# الفصل الثالث عشر

# جهاد الفقيد عام ١٩٠٧

obeikandl.com

خطت الحركة الوطنية سنة ١٩٠٧ خطوات موفقة، وحفلت بالجهود الجبارة التي بذلها الفقيد في بث روح الوطنية في النفوس والدفاع عن حقوق مصر، وكانت هذه السنة فوزًا كبيرًا ونصرًا مبينًا للحركة الوطنية.

ففيها عظم اهتمام الرأي العام في أوروبا وانجلترا بالمسألة المصرية، على اثر دعاية الفقيد العظيمة، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال في مصر، بفضل ما نشره عن فظائع دنشواي، واشتد تأييد الأمة لدعوته، وازداد إقبال القراء على اللواء، إذ رأوا فيه صوت الوطنية الحقة وعلمها الخفاق. وتضاعفت منزلة الفقيد في نفوس الأمة مما ظهر في الحفاوة البالغة التي قوبل بها عند عودته من أوروبا في أكتوبر من تلك السنة.

وفيها أصدر الفقيد جريدتي (ليتندار اجبسيان) و(وذي اجبشيان ستاندرد) بعد أن أسس لهما شركة كانت أكبر شركة صحفية تألفت حتى ذلك الحين في مصر والشرق.

## ظهور ليتندار اجبسيان

## وذي اجبشيان ستاندرد

اعتزم مصطفى كامل بعد حادثة دنشواي إصدار صحيفتين يوميتين: إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية للدفاع عن حقوق مصر وإطلاع الرأي العام الأوروبي على حقائق الشئون المصرية ورد المفتريات عن مصر، وقد تولدت عنده هذه الفكرة عقب زيارته للندن في يوليه سنة ١٩٠٦، فكاشف بها صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد في (فيشي) صيف هذا العام، فحبذ المشروع وشجعه عام تنفيذه، وهو مشروع ضخم يستدعي همة كبيرة وكفاية عالية ومقدرة في الإدارة والتحرير، وقوة في المال، وقد اضطلع الفقيد بهذا العمل الكبير إلى جانب إصداره اللواء وقيادته للحركة الوطنية ومراسلته لأهم الصحف الأوروبية.

وقد أسس من أجل ذلك في نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لإصدار الجريدتين، تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه، اكتتب بها المساهمون فيها، وكلهم من صفوة المصريين. وقد حنق اللورد كرومر من هذا المشروع فزعم بلسان الصحافة الإنجليزية أن الخديو عباس الثاني هو الذي بذلك المال لمصطفى كامل لإنشاء الجريدتين، فدحض الفقيد هذه المزاعم الباطلة، ونشر أمساء المساهمين ومقدار ما اكتتبوا به وهم: مصطفى كامل باشا، محمد بك فريد. عمر سلطان باشا. محمود بك أنيس. على بك فهمي كامل. محمد بك أحمد الشريف. إسماعيل بك صادق. إبراهيم بك حليم. أحمد فائق باشا. حسن حارس باشا. سيف الله يسري باشا. محمود بك أبو

النصر. محمد بك سعاد. مصطفى بك رشيد. يوسف بك حافظ. محمد بك عبد اللطيف الصيدلي. إسماعيل أفندي كامل. أحمد بك حجازي. حسن محسن باشا. محمد بك خورشيد. عثمان بك أبو شنب. فؤاد بك المنشاوي. إسماعيل أفندي حافظ. خالد بك سعيد. عبد الحميد بك عمار. إبراهيم أفندي نيازي. حسن بك جمجوم. يوسف بك ذهني. قليني باشا فهمي. جلال الدين بك عارف. توفيق بك حمودة. حافظ أفندي مصطفى.

واختار لتحرير الصحيفتين محررين من خيرة الكتاب الأوروبيين، وذهب خصيصًا على أوروبا يصحبه المغفور له محمد بك فريد في ديسمبر سنة ١٩٠٦ لاستقدام المحررين واستحضار معدات الصحفيتين، وبدأ ظهورهما في مارس سنة ١٩٠٧، فكانت ليتندار اجبسيان تصدر في المساء وذي اجبشيان ستاندرد في الصباح.

ظهرت لتندار يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧، وذي اجبشيان ستاندر صباح اليوم التالي، وقي صدرها مقالة للفقيد ختمها بقوله:

"ليس في جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحدًا من الناس، فإن التسامح والكرم من الصفات التي تفتخر بها مصر على الدوام، وإن المكان هنا لمتسع لكل العاملين ولكافة الرجال المستقيمين النزيهين، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسكنا في الحال والاستقبال بمبدئنا الذي تضمنته هذا الكلمة " "أحرار في بلادنا. كرماء لضيوفنا!"

## خطبتان لصاحب اللواء

وأقام المترجم بفندق الكونتنتال يوم ٢ مارس احتفلا لمناسبة ظهور الجريدتين جمع صفوة القوم من مصريين وأجانب، وألقى فيه خطبة بالفرنسية قال فيها:

" إن قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر علمًا بخطتنا الوطنية التي غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها، فقد مثلونا في أغلب الأحيان كأننا أعداء لأوروبا نريد جمع كافة قوى الإسلام ضدها، وإحداث انقلاب عام؛ وأظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادي بالبغضاء والتعصب الديني، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة، ونثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالي السامي هو أن نردّ لمصر مكانة في العالم تليق بتاريخها ومركزها، وأن كل مجهوداتنا موجه لهذه الغاية".

" إلى أن قال:

" إننا لسنا بثوار ولا أعداء للأوروبيين، بل إن كل ما نريده هو أن تنال مصر حريتها واستقلالها، مصر مهد المدنية والنور، ومصدر كل تقدم إنساني، إننا الوارثون لمدنيتين كبيرتين

بدعيتين: المدنية الفرعونية والمدنية العربية، فمن حقوقنا ومن واجباتنا أن نجلس بين الأمم المتمدنة ونطالب بحقنا في هذه المدنية".

وختم خطبته بقوله:

"إن العمل الذي نعمل له ويرمي على جعل مصر بلادًا كبيرة حرة كريمة، وإن الاتفاق بين المصريين والأوروبيين هو من أهم مبادئنا الأساسية، فاسمحوا لي إذن أيها السادة أن أدعوكم لأن تحيوا معي ذلك اليوم الذي لابد من مجيئه والذي يرى فيه العالم طرا شروق شمس الحرية والاستقلال في مصر".

وخطب بعده المسيو سانت أوجان أحد محرري ليتندار، والمستر شارل رودي المحرر بجريدة ذي اجبشيان ستاندرد.

ثم وقف الفقيد وخطب للمرة الثانية باللغة العربية خطبة قال فيها:

" إن إصدار جريدتين بلغتين أجنبيتين في وادي النيل يعد عملاً صغيرا أو كبيرًا في آن واحد، إنه أيها السادة صغير في جانب اهتمامكم به، ولكنه عظيم لأنهم من الأعمال التي تقوم بها هذه الأمة في سبيل الخدمة الوطنية، وهو صغير في جانب آمالنا العظيمة وأمانينا الكبرى وهي المطالبة بالاستقلال! (تصفيق طويل).

"أيها السادة! اسمحوا لي أن أقول لكم إنكم تخجلونني بهذا التصفيق الطويل لأنني أراني أقدم شخصيًا لهذه البلاد خدمة وطنية بهذا الاهتمام، وإني أرى نفسي في (ألف باء) من خدمة تلك الأمة العزيزة، وأرجوكم أن تطلبوا مني المزيد لا أن تصفقوا لي، فلربما عاقني هذا الاستحسان عن الاستمرار في تلك الخدمة الشريفة".

## الأمل

ثم قال:

"إن البلاد إذا أصابتها مصيبة انقسم أهلها إلى فريقين، فريق الأمل وفريق اليأس، فكونا أيها السادة من الفريق الأول، وأعلموا أنني لا أسألكم سوى أن تكونوا من هذا الفريق، أسألكم أيها السادة أن يكون لكم أمل، أسألكم أن تقولوا، إن لنا أملاً وقوة ثقة بالله، ويقينا بالمستقبل".

## الاتحاد

إلى أن قال:



obeikandi.com

"أيها السادة، لم يتطلع العالم المتمدن لأحوال هذه البلاد لم يتنبه لشئونها مثل تطلعه وتنبهه في هذه الأيام فقد ظهرت آثار هذا الاهتمام في سائر المظاهر ولم تخف على أحد، فأعلموا أن أول واجب عليكم نحو هذا الوطن العزيز هو واجب الاتحاد، لأن الاتحاد قوة ليس وراءها قوت، ليترك كل وطن الحزازات والضغائن الصغيرة، لأن هنا شعورًا أقوى وأشرف من تلك الأمور، ألا وهو إنقاذ الوطن المصري، أعلموا أيها المصريون الأعزاء أنكم إذا أردتم أن تنالوا غيتكم وتصلوا إلى غرضكم فليس لكم إلا الاتحاد، وهو الغرس الذي ينبت ثمره قبل أن تفرغوا من زرعه، إن الله سبحانه وتعالى خلقكم لتكونوا أحرارًا سعداء،÷ لا أرقاء تعساء، فإذا عملتم بأوامره تعالى نلتم هذه الأمنية الكبرى وفزتم بالنجاح، فكونوا كلكم أملاً، واعملوا لهذا الغرض الشريف وتلك الغاية السامية، وأنا الكفيل لكم بالوصول إلى الاستقلال المنشود لا محالة إن شاء الله".

وقد قوطعت كلمات الفقيد بالتصفيق الشديد، وبعد أن أتم خطبته دعا الحاضرين إلى تناول الشاي ولبثوا يتحاثون على منتصف الساعة السابعة مساءً وانتهت الحفلة في أبهى رونق من الجمال والجلال.

## حفلة تكريم اللورد كرومر وخطبته

## (مايو سنة ١٩٠٧)

استقال اللورد كرومر كما أسلفنا في إبريل سنة ١٩٠٧، وقد قوبل نبأ استقالته من الأمة بالابتهاج العام، فجهدت الحكومة نفسها في مقابلة هذه الحركة الطبيعية بحركة معارضة، بإقامة حفلة تكريم له، فتألفت من أجل ذلك لجنة حكومية لإقامة هذه الحفلة، أعضاؤها وزراء الحكومة وقتئذ وهم: مصطفى فهمي باشا رئيس الوزارة، وحسين فخري باشا، وسعد زغلول باشا، وأحمد مظلوم باشا، وإبراهيم فؤاد باشا، ومحمد العباني باشا، وبعض كبار الشخصيات البريطانية، ولفيف من كبار الأعيان المصريين الموالين للاحتلال، مثل رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق، ومحمد شواربي باشا، ومحمود سليمان باشا، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش.

وقد أقيمت الحفلة بالأوبرا مساء ٤ مايو ١٩٠٧ وخطب فيها الكونت دي سريون مدير شركة قناة السويس، ثم مصطفى فهمي باشا رئيس مجلس الوزراء وقد شكر اللورد في خطبته "على خدماته لمصر"، وقال: "إن عملكم المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها في مستقبل الأيام إلى الاعتراف لكم بهذا الجميل" وختم كلمته بقوله:" لا غرو إذا اغتنما هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكل ولنقول إننا لا نزال نعتبركم كواحد منا".

وخطب اللورد كرومر في هذه الحفلة خطبة طويلة جارحة للكرامة الوطنية، مؤلمة للنفوس الأبية، امتدح فيها الخديو توفيق باشا ونوبار باشا ورياض باشا، ثم مصطفى باشا، وقال عنه: "إنه خدم بلاده بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء، والابتعاد عن التعريض لغيره والدخول فيما لا يعنيه" (يريد استسلامه المطلقة لسياسة الاحتلال)، وامتدح بطرس باشا غالي، ثم سعد باشا زغلول، ورمى المصريين عمومًا بنكران الجميل لأنهم لا يعترفون بفضل الاحتلال وقال في هذا الصدد: "إن أولاد العميان يولدون عادة مبصرين"، مؤملاً أن الجيل المقبل يعترف بفضل الاحتلال، وعرج على ما سماه (حقائق الحالة المصرية)، فقال إن أولاها هي أن الاحتلال البريطاني يدوم إلى ما شاءا الله، وثانيتهما أنه مادام الاحتلال باقيا فالحكومة البريطانية تكون مسئولة عن الخطة التي تجري عليها الإدارة المصرية.

وقد قوبلت الخطبة من المصريين بالاستياء الشديد والسخط والاستنكار.

## تعيين المستر هيل

## ناظرًا لمدرسة الحقوق

## (يوليه سنة ١٩٠٧)

وقع في تاريخ التعليم في مصر حادث هام صيف سنة ١٩٠٧ آلم نفوس المصريين، ذلك أن الأستاذ إدوارد لامبير العالم القانوني الفرنسي كان يتولى نظارة مدرسة الحقوق الخديوية، وكان من خيرة النظار الذين تولوا إدارة المدرسة، ونال من أجل ذلك محبة الطلبة واحترام المدرسين، وبذل جهده لينهض بالمدرسة إلى المستوى اللائق بها، فوقع خلاف بينه وبين المستر دنلوب مستشار وزارة المعارف، إذ وقف له بالمرصاد، وأحرجه وأساء معاملته، مما أدى إلى استقالته من منصبه، وكان الظن أن يسند هذا المنصب إلى عالم مصري، ولكن المستر دنلوب أملى إرادته في تعيين خلف للمسيو لامبير، فوقع اختيار وزارة المعارف على المستر هيل أحد أساتذة مدرسة الحقوق، وكانت هذه أول مرة يتقلد فيها إنجليزي هذا المنصب الكبير.

قابل الرأي العام وطلبة الحقوق هذا التبديل باستياء شديد، وكتب الطلبة المقالات العديدة احتجاجًا عليه، ذلك أن مستر هيل لم يكن على كفاية تسمح بتقليده هذا المنصب الكبير، لاسيما وقد كان حديث العهد بالحصول على شهادة الحقوق، فتعيينه لهذا المنصب الذي كان يوجد من علماء القانون الوطنيين من هو أجدر منه به، كان ضربة مصوبة إلى التعليم والكرامة الوطنية، وقد أحدث هذا التغيير ضجة كبيرة في مصر وفي فرنسا، وكتب الأستاذ لامبير مقاله عند في



obeikandl.com

جريدة (الطان) الباريسية الكبرى، كانت بمثابة صحيفة اتهام لسياسة الاحتلال في التعليم ولتصرفات المستر دنلوب، وقد أذاع فيها من الفضائح ما لم يسبق لعالم أجنبي كبير أن ينشره على الملأ بلسان قومه، وإنا ناشرون هنا هذه المقالة لأهميتها قال:

" تركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يمزق فؤادي، لأن البقاء لم يعد في وسع رجل مثلي جعل حياته وقفًا على العلم، ولأني ما كنت بقادر على حفظ هذا المنصب ذي الراتب الضخم ما لم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قويمة ومكدرة لصفاء العلاقات بين المصريين والأوروبيين.

" إن الموظف الإنجليزي القابض فعلاً على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف وهو المستر دوجلاس دنلوب كان قبل قدومي إلى مصر بعام قد حارب ناظر مدرسة الحقوق السابق (الأستاذ جرانمولان) بثبات نادر، فغلبه على أمره وسلب منه سلطته، ثم اغتنم تلك الفرصة التي آلت فيها هذه السلطة إلى العدم، فأخذ يهيج عواطف الطلبة ويستفزها بإصداره لهم أوامر متناهية في القسوة والغلظة ولا مسوغ لها، حتى جرهم إلى الإضراب، ثم اتخذ إضرابهم ذريعة للتشفي من سلفي الذي كان حاقدًا عليه، ولم يكن حظي من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف، إذ كثيرًا ما وضعني المستشار الإنجليزي بسوء تصرفاته، ولا أدري إن كانت مقصودة منه أو غير مقصودة، في مراكز حرجة عجزت عن الخروج منها وعن توقي نتائجها، إذ كنت مقيدًا كل التقييد بلوائح تنزع من يدي كل سلطان حتى في المسائل الفنية الصرف التي أدخلت أيضًا في اختصاص أقلام الوزارة. وقد حارب المستر دنلوب تقدم التعليم الفرنسي في مدرسة الحقوق بلا تبصر، على حين أن تعليم الحقوق في هذه المدرسة لا يزال ويجب أن يبقى تعليما فرنسيًا، ما دامت قوانين البلاد لم تغير تغييرًا كليًا، لأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا، ولأنه لا توجد لها شروح ومؤلفات بالعربية إلا في النادر، وقد مثل (أي المستر دنلوب) رواية مضحكة للتعليم العالي في مدرسة الحقوق، فوقف تعيين ما يحتاج غليه القسم الفرنسي من الموظفين تتميما لما ينقص من عددهم المحدد قانونا، وحجته في ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال في القريب العاجل، واكتسح من القسم الأكبر وهو الذي تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنكليزية الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره في مبدأ تأسيسه، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة في الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا، واستبدل بهم شبانا من الإنجليز يعينون بمجرد تخرجهم من الكلية الإنجليزية فيقدمون إلى مصر، وهم والطلبة المكلفون بتعليمهم سواء في الجهل بالقوانين المصرية، بل إن فريقًا من هؤلاء المعلمين لم يبلغ إلى الآن في معرفة لغتنا حدًا يستطيعون مع ترجمة المؤلفات الفرنسية التي يستعان بها على التدريس ترجمة غير مقبولة، ولقد بذلك كل جهد في سبيل ترقية شئون المعلمين إما بتخصيصهم لتدريس فرع واحد أو بتقليل عدد الدروس التي يكلفون بها حتى

لا يصعب عليهم تحضيرها، أو توسيع مجال المباراة بينهم بترقية النجباء منهم أو بمنع الأسباب التي تدفع المعلمين الإنجليز إلى ترك المدرسة بمجرد استفادتهم شيئًا من المبادئ القانونية يتمكنون بها من الدخول قسرا في المحاكم الأهلية، بذلك كل سعي في هذا السبيل، فذهبت مساعي كلها أدراج الرياح بإزاء عناد مستر دنلوب وتعنته.

"كان هذا الرجوع بالعلم إلى الوراء يقتضي التبصر والحكمة ومعاملة الطلبة بالحسنى خشية أن تهيج غضبهم حالتهم السيئة وانحطاط التعليم فيهم، خصوصا وفي مصر الآن حركة فكرية ترمي إلى طلب العلوم والعرفان، ولكن مستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاما من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية. وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دنيء، فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية، وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلا للونية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا.

"حاولتُ مرارًا أن ألفت نظر المستشار الإنجليزي إلى الأخطار التي تنشأ عن إتباع خطته في نظام التعليم، فلم أنل منه شيئًا اللهم إلا بعض تجاوز وقتي عن بعض مسائل، ولكنه لم يخلص مطلقًا في التنازل نهائيًا عن خطة كلها إيلام وإرغام ولذلك كنت أتوقع دائمًا وراء مستر دنلوب واستفزازه للخواطر من هذا القبيل أن تعصف في مدرستي عواصف جديدة اشد خطرًا من العاصفة التي عصفت بها في سنة ١٩٠٦ وكانت تلقى على مسئولية ذلك أمام الرأي العام المصري.

"انتهى مستر دنلوب أخيرًا بالتعرض لكرامتي تعرضًا مؤلمًا، وذلك أنه أراد أن يجعلني بالرغم عني شريكا له في الدسائس التي يدبرها ضد وزير وطني هو سعادة سعد زغلول باشا، ذلك الذي اختارته الوكالة الإنجليزية بفعل تأثير الرأي العام عليها والذي لم يشأ أن يكون آلة لا إرادة لها. فلكي ينزع من هذا الوزير كل سلطة ويغلبه على كل أمر، أكره رؤساء الموظفين في الوزارة على أن يتألبوا حزبًا واحدًا لعرقلة كل عمل لرئيسهم الرسمي، ولم يكن حظي من هذا الإكراه أقل من حظ زملائي، فكنت أتلقى أوامره قبل تحرير تقاريري الرسمية، ثم كان يجبرني على تقديمها له قبل إرسالها للوزير لينقح فيها ما يشاء، بل لقد حدث لي أحيانًا أني بعد أن حررت أوراقي وبعد أخر خرجت من مكتبي وسجلت في الوزارة عدت فغيرت ونقحت منها ما يشاء المستشار، كل ذلك مما لا طاقة لي على احتماله، لم يكتف مستر دنلوب بذلك، بل كان يريد مني أني مادمت راغبا في البقاء طويلا بجانبه يجب أن أتدنى غلى حد تضحية ضميري وتعريض نفسي في كل حين للظهور بمظهر الخائن الأثيم أمام الوزير، نتج عن هذه الأسباب

التي بينتها أن علائقي مع مستر دنلوب كانت دائمًا مشوبة بأكدار. على أنها توترت فجأة إثر خلاف حدث بسبب مسألة تعيين بعض المعلمين، فقد ترك ثلاثة من المعلمين وظائفهم ووضعت لائحة جديدة للتدريس تزيد بها عدد الحصص، فاضطررت والحالة هذه أن أطلب للسنة الدراسية ١٩٠٧–١٩٠٨ معلمين اثنين على الأقل، فبعد أن وعدني مستر دنلوب وعدًا صريحًا بإجابة طلبي عاد فنكث وعده قائلا أن الظروف السياسية لا تسمح باستخدام معلمين أوروبيين زيادة على الموجودين، ثم هو لا يقبل بحال من الأحوال استخدام الوطنيين للتدريس في مدرسة الحقوق، غلا أني لم أذعن لهذه النتيجة وتمكنت بفضل مساعدة أحد كبار الموظفين الإنجليز من حمل مستر دنلوب على تعيين معلمين من أصل مصري في مدرسة الحقوق، ولكن بعد أن اضطررت أن أتساهل معه في مسائل كثيرة أخصها تعهدي له بإساءة الشهادة في كل مصري ينتظر أن يتقدم للتدريس بمدرسة الحقوق إجابة للدعوة التي أعلنها وزير المعارف في الجريدة الرسمية، شدد مسر دنلوب حملته علىّ كما شددها على سلفي، فبعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع وأيقنت أني أصبحت عاجزًا عن حماية موظفي مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر دنلوب استخرت الله في السفر إلى وطني، ثم حدثت بعد ذلك حادثة يستنكرها الذوق السليم، وقد أبلغها إلى الجرائد بصورة لو احتملتها لضيعت كل كرامة لي عند زملائي وتلامذتي فلذلك أصررت على تنفيذ رغبتي في الاستقالة وقدمتها فعلا، فبلت بمزيد الارتياح، وفي اليوم التالي عين بدلا عني مدرس إنجليزي لا أجد جملة تصدق عليه خيرًا من هذه الجملة التي نسبت بحق أو بغير حق إلى السير الدون جورست وهي.

" إن مستر هل جاهل وإنه خير لنا أن يكون كذلك ليكون أسهل قيادا"

" وقد عتب علىّ نفر من أبناء وطني في القاهرة وأخذوا على تضحية مصالح فرنسا المهمة في سبيل عواطفي الذاتية، وقالوا إني تركت وظيفة من أسمى وظائف التعليم في مصر كانت للآن محفوظة للفرنسيين رغبة في الخلاص من مهمة لم ترق لي، ولست أرى رأيهم هذا في تقدير المصالح الفرنسية، فإنه كما كان من اللازم لنشر نفوذ أمتنا في الشرق أن يتولى مدرسة الحقوق الخديوية رجال أمثال فيدال باشا وتستو في وقت كانت أيديهم فيه مطلقة حرة يعملون ما يشاءون لنشر علومنا القضائية، كذلك لا يليق بشرف فرنسا ولا يوافق تأييد نفوذها في مصر أن يرضى علماؤها بأن يقتل مستر دنلوب روح الأخلاق ويهدم صورح العلم تحت ظلالهم".

ولقد كان لهذه المقالة المهمة، وصدورها من ذلك العالم الفرنسي الكبير، ونشرها في كبرى الجرائد الفرنسية، وتعريبها في اللواء، أثر كبير في فضح سياسة التعليم التي كان يجري عليها الاحتلال، وكان للفقيد اليد الطولى في نشر المقالة في (الطان) لنفوذه الأدبي لدى مديرها، وهو الذي قدم إليه الأستاذ لامبير. وبوساطته نشرتها الطان في مكان بارز من صحائفها.

## كتاب المترجم إلى السير هنري كامل بانرمان

في خريف سنة ١٩٠٧ أرسل الفقيد كتابًا مفتوحًا إلى السير هنري كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية بتاريخ ١٤ سبتمبر، لمناسبة ذكرى احتلال الانجليز القاهرة سنة ١٨٨٢، جاهر فيه بالاحتجاج على استمرار الاحتلال، وطالب الحكومة البريطانية بلغة رصينة متزنة بتحقيق وعودها في الجلاء، ولما كان هذا الكتاب من الوثائق المهمة في تاريخ الحركة الوطنية فإنا ننشر تعريبه قال:

" يا حضرة الرئيس

" إن هذا اليوم ١٤ سبتمبر هو يوم مخلد الذكر في التاريخ سواء بالنسبة لمصر أو لانجلترا.

" فاسمحوا لي أن أذكركم بأنه في آن واحد تذكار مرور مائة عام على جلاء الجنود البريطانية عن مصر، ذلك الحدث الذي وقع يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧، والتذكار الخامس والعشرون لدخولها مدينة القاهرة الذي حصل يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢، فلهذا التذكار شأنان، وإذا كان يذكّر المصريين بمجد آبائهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ويجبرون انجلترا على العدول عن غزو مصر من قرن مضى، فإنه يحملهم أيضًا على التفكير في التصريحات الرسمية التي صدرت عند حصول الاحتلال الحالي لبلادهم، وفي كلمة الشرف والتعهدات التي أخذتها على نفسها بريطانيا العظمى.

"إن لانجلترا يا حضرة الرئيس في تذكار ١٤ سبتمبر هذا من الفخار اقل مما لمصر، فإن الشعب المصري لم يجد في انجلترا فاتحًا غزا بلاده بقوة السلاح، بل دولة صديقة أرادت مساعدة الخديو على توطيد الأمن والنظام ووعدت علنًا بمغادرة البلاد متى توطدت أركان الأمن، ولقد مضت خمس وعشرون سنة ولم ينفذ هذا الوعد، وإن القليل من الانجليز ليفكرون الآن في الأقسام التي فاهت بها الملكة فيكتوريا والخطب التي ألقاها وزراؤها وأكدوا فيها أن استمرار الاحتلال الإنجليزي في مصر يكون "عاراً على التاج والشرف البريطاني".

"ولكننا نحن معاشر المصريين نفكر في هذه الأقسام وتلك الخطب. نفكر في ذلك العهد الذي يسمو على كل المعاهدات وهذا العقد الذي يعلو كل العقود ورغما عمن يقولون إن السياسة ليست إلا "كذبا واحتيالا وخداعا" فإننا نظن أنه لا يمكن لأمة متمدنة كبيرة أن تفكر في تشويه تاريخه باختلاس لا مثيل له، ولا يمكن تعريفه لجسامته، وهاهو التاريخ يقول بأعلى صوت ويبين الخطر الذي تلحقه مصر بالدول الطامعة اللواتي حاولن امتلاكها ولم تفلح واحدة منهن في استعبادها بصفة نهائية، ولكن لعل دروس التاريخ لا تكفي في نظر أنصار التوسع في



obeikandl.com

الاستعمار من الانجليز لأن تثبت أنه لا يمكن أن يملك مصر أحد سوى المصريين إلا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال، وأن مصر تحافظ على آمالها أكثر مما كان ذلك في أي زمان وترقب المستقبل بثقة لا يزعزعها شيء، وذلك رغما عن المصائب كافة، وعن جميع التدابير السياسية والمناورات الدولية، بل أؤكد أن المصائب قد قوت الروح الوطنية المصرية، وكل العارفين بأحوال مصر يعترفون بأن "دنشواي" أفادت في تقدم "الوطنية" أكثر من المجهودات الكبرى التي ذلها الوطنيون.

"وإن المسألة المطروحة اليوم أمامكم يا حضرة الرئيس وأمام الأمة الإنكليزية هي معرفة ما إذا كانت انجلترا تريد أن تجعل مصر صديقة أو عدوة لها، هي معرفة ما إذا كانت انجلترا تدرك مصالحها العالية وتقدر الفوائد التي تكتسبها من الاتفاق مع أمة تزداد كل يوم عددًا وثروة وقوة فتوفي بوعدها وتحترم شرفها أو إذا كانت تصّر على العناد وتحارب كرامتها، وتجاهد ضد أمة تفيض حياة ومصرة على نيل حريتها.

"وإنه إذا كانت انجلترا قد اعتبرت الجلاء ممكنا في عام ١٨٩٠ وحددت هذا الميعاد في اتفاقية "درو مندوولف" لانسحاب الجنود البريطانية فكيف يمكنها أن تدعي أن وقوع هذا الأمر الموافق للشرف ولحقوق الشعب المصري غير ممكن الآن؟ أي انجليزي حر يستطيع أن يزعم يجد أن ساعة الجلاء عن مصر لم تأذن بعد، في حين أن المستر جلادستون قد اعترف في خطابيه اللذين كتبهما لي في عام ١٨٩٦ أن ساعة الجلاء "آذنت من عدة أعوام".

"يقول السير إدوارد جراي إنه لو تركت انجلترا مصر للمصريين لسادت الفوضى والرشوة في البلاد، وهذا التأكيد لا يفسر إلا بشيء فاضح، وهو عدم اقتدار انجلترا بعد احتلال دام خمسة وعشرين عاما على القيام بمهمتها في مصر، أو القضاء على الأمة المصرية بأنها ليست أمة قادرة على حكم نفسها بنفسها وخليقة بأن تنال مكانتها بين الشعوب المتمدنة، ومن المحال أن يقبل رجل عادل مستقل الفكر هذه النظرية التي هي مسبة مزدوجة لانجلترا ولمصر، وفضلا عن ذلك فإنه لا يجهل أحد من الناس أننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة وأننا لا نقبل حكم الأهواء والاستبداد أبدًا وأن الإرادة الوحيدة التي نريد أن نخضع لها إرادة الأمة، وأن العقل لا يقبل مطلقًا أن السلطة المطلقة المتقلبة حسب الأغراض والأهواء التي يتصرف بها المعتمد البريطاني، تكون أفضل وأنفع من دستور أهلي مؤسس على المبادئ الحرة، إذ القول بذلك يعادل القول بأن حكومة الصين خير من حكومة انجلترا، وإنكم قلتم يا حضر الرئيس في أحدى خطبكم إنه لا يمكن أبدًا أن تعوض حكومة حسنة حكومة أهلية و أقول أنا أيضًا أنه لا يوجد شيء في العالم ينسى الاستقلال لشعب عارف بحقوقه، وإن حكومة الأجنبي ولو كانت مثال اللطف والرقة، بخلاف ما هي في مصر، مبغوضة وممقوتة على الدوام، لأن سلاسل الاستعباد هي سلاسل

على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد ولا أظنني مبالغًا إذا أكدت يا حضرة الرئيس أن أفضل صديق لانجلترا هو الذي ينصحها باحترام شرفها ووعودها، ويقول لها بكل إخلاص إن كل ما تستطيع عمله ضد مصر لا يوقف بلادنا في طريق التقدم والحرية الذي سلكته بكل عزم، وإن أمة كأمتنا، جمعت مدة قرون عدة، قوى من الصبر والهمة والإرادة لا تعرف اليأس ولا تقف أمام أي عائق لاسترداد استقلالها، وإن لانجلترا الحرة أن تقرر إذا كان هذا الاستقلال سيتم بإرادتها أو ضدها، ولقد رأيت من الضروري يا حضرة الرئيس أن أذكركم في هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم وبالنسبة لنا بوعد الحكومة البريطانية، وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل.

"وإننا تألمنا كثيرًا من "كذب السياسة" فلا نلجأ للمهارة والاحتيال والكذب، وإن كرامتنا وشرف قضيتنا ليحتمان علينا الصراحة والصدق والاستقامة.

"وتفضلوا يا حضرة الرئيس بقبول عظيم احترامي"

باريس في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧

**مصطفى كامل**

obeikandl.com

نشرت جريدة (الفيجارو) هذا الكتاب في صدر عددها المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧، فكان بمثابة بعث جديد للمسألة المصرية، لأن شخصية الفقيد، وحججه الدامغة، استرعت النظار إلى قوة الكتاب وصاحبه، وقد تناقلته الصحف الأوروبية، فنشرت خلاصته الصحف الفرنسية الكبرى كالطان والديبار والإكلية والايكودى باريس وغيرها وعلقت عليه باستحسان عام، ونقلت كبريات الصحف الإنجليزية كالتيمس والستاندرد والمورننج بوست والديلي نيوز خلاصته ضمن الرسائل التلغرافية الواردة إليها من مراسليها بباريس، وعلقت الديلي نيوز، عليه تعليقا مشوبا بروح الود والتأييد، وعارضته التيمس في مقال لها، وتردد صداه في الصحف الألمانية والنمسوية والإيطالية، وكان له دوىّ كبير في مصر إذ جاء على أثر نجاح الفقيد في بعث قضية دنشواي في العالم، فكان حديث الناس في المجالس والصحف ووجه الحركة الوطنية وجهة الجلاء أي في الطريق الذي رسمه الفقيد من قبل.

## عظم منزلة الفقيد

## استقباله عند عودته إلى مصر

## (أكتوبر سنة ١٩٠٧)

أكبرت الأمة جهاد مصطفى كامل في أوروبا سنة ١٩٠٧، بعد جهاده عقب حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦، فلم يكد يعلم الجمهور بحضوره إلى الإسكندرية ومجيئه إلى القاهرة حتى ذهبت جماهير الوطنين جماعات ووحدانا إلى محطة العاصمة قبيل وصوله إليها يوم ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧، دون دعوة أو سابق اتفاق لاستقبال الزعيم، وأخذ إقبال جماعات المستقبلين يشتد ويتعاظم قبل قدوم القطار، حتى صار كل من شاهد هذه الجموع الزاخرة يدهش لكثرة الزحام، وكأن كلا منهم كان على موعد من الآخرين مع أنه لم يكن ثمة موعد ولا اتفاق، وهال موظفي المحطة ذلك الزحام الذي لم يسبق له نظير، ووجد عمال صرف تذاكر المقابلة حيرة كبيرة في تلبية رغبات طالبي التذاكر، و قبيل قدوم القطار بلغ الزحام أشده على أرصفة المحطة، وبلغ عدد المستقبلين نيفا وثلاثة آلاف بحيث كان هذا الجمع الزاخر يستوقف النظر لكثرة عدد المجتمعين، وحضورهم جميعًا مسوقين بشعور تكريم صاحب اللواء، دون أن يدعوهم إلى ذلك داع من لجنة أو جماعة أو أفراد، وكان معظمهم من علية القوم وصفوة الشباب، يتقدمهم المغفور له محمد بك فريد، وما كاد القطار يصل إلى إفريز المحطة حتى دهش الفقيد لكثرة هذه الجموع التي جاءت لتحيته، واغرورقت عيناه بالدموع من التأثر، ولم يكد يقف القطار حتى ضج الجميع بالهتاف:" ليحي صاحب اللواء، ليحي الرئيس، ليحي الباشا"، وكرروا هذا الهتاف قبل



obeikandi.com

وقوف القطار وبعد وقوفه، ولما تقدم أصدقاء الزعيم وأخصاؤه لتحيته تعذر الوصول إليه لأنه كان محوطًا بسور من الجماهير المتلاحمة المتزاحمة، إلى حد جعل الجباه تتصبب عرقا، ومازالت الجماهير تحيط به إلى أن وصل خارج المحطة وهناك وقف قائلاً:

**مصطفى كامل**

**(سنة ١٩٠٧)**

"إنـي أشـكركم مـن صـميم فـؤادي علـى مظـاهرتكم السـامية، وأدعـوكم لأن تقولـوا "لتحـي مصـر". إنكم تعرفون جميعًا أنـي لست إلا أضـعف خـادم لهـذه البـلاد العزيـزة، وأنـي إنمـا أقـوم بـبعض الواجـب لهـا، فكـل تحيـة مـنكم هـي موجهـة لهـا بالـذات، ولا يمكننـي أن أقبلهـا إلا بهـذه الصـفة، فاسـمحوا لـي أن أشـكركم باسـم مصـر شـكرًا جزيلاً، وأسـأل الله أن يحقـق آمـالي وآمـالكم وأدعوكم لأن تقولوا معي: "لتحي مصر، ليحي الاستقلال"، فرددت الجموع هذا الهتاف عاليا، وقد وقفت حركة المحطة نحو نصف ساعة. لم يستطع فيها أحد من ركاب القطار على ما فيه من الكبراء والعظماء أن يبرح مكانه، حتى انصرفت تلك الجموع، وكان هذا الاستقبال هو الأول من نوعه في الاستقبالات الوطنية الرائعة، غذ لم يسبق أن قوبل زعيم في عهد الاحتلال بمثل هذه المظاهرة الكبرى، وبخاصة لأنها حصلت من غير سابق اتفاق أو دعوة أو دعاية أو توريط، بل كانت وحي الشعور الوطني الصادق الذي أنطبع في نفوس المصريين، تقديرًا لجهاد الفقيد وتشبعًا بروحه الوطنية.

* * *

obeikandl.com

# الفصل الرابع عشر

# تأسيس الحزب الوطني

## (حزب الجلاء)

obeikandl.com

كان اسم (الحزب الوطني) يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين ينادون بالاستقلال والجلاء، وكان الفقيد يعتبره موجودًا منذ الساعة الأولى، والصحف الأوروبية تعبر عن أنصاره بالحزب الوطني على أنه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء ومجلس إدارة، ولكنه كان موجوًا بالفعل كفكرة تضم حولها الأنصار والمجاهدين، قال مصطفى كامل في هذا الصدد في لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧: "إن الحزب الوطني المصري الذي جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها إليها موجود فيها فعلاً من ثلاثة عشر عاما مضت، فهو وإن لم يظهر بشكل نظامي وبلائحة ولجنة إدارة قد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة، قاوم الاحتلال في أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين، وارتبط بروابط أكيدة مع جملة من سواس أوروبا، ولما حدثت حادثة (فاشودة) ضعفت همم بعض رجال الحزب، كما انفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم، وثبت في موقفه من أعتقد أن في نهضة الأمة بنفسها سلامتها وبلوغها كل مأربها".

وقال فريد بك في هذا الصدد: "قضى رحمة الله خمس عشرة سنة من حياته أي منذ كانت سنة تسعة عشر عاما في تكوين الحزب الوطني، فابتدأ بأن جمع حوله بعض إخوانه المخلصين وكون منهم جماعة مخلصة له ولعمله".

ثم فكر سنة ١٩٠٠ في جعل الحزب حزبا منظما على غرار الأحزاب الأخرى الأوروبية، وكتب في عدد ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ من اللواء مقالا بعنوان (حزب وطني حر في مصر) أعرب فيه عن أمنيته في تأسيس هذا الحزب، كتب مقاله هذا من (بودابست) حيث أعجبه ما رآه من وطنية الشعب المجري، قال في هذا الصدد:

"إن تاريخ هذا الوطن المجري هو أكبر مدرسة لرجل مثلي وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه"، وختم مقاله بقوله: "هل يسمح لي الزمان بأن أرى في مصر هذا الحزب الوطني الحر الشريف المبادئ، المتحد الأعضاء الناهض بالأمة إلى مراقي النجاح والفلاح؟ إني أعرف أن اليائسين سيقولون إن (تأسيس حزب كهذا أمر محال) ولكني إذا كنت لا أيأس من خلاص بلادي فمحال على أن أيأس من تحقيق هذا الأمر الجليل".

وفي سنة ١٩٠٧ اعتزام تنفيذ فكرته بوضع نظام للحزب الوطني، وفي ذلك يقول في لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧: " ولما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطني نظام تام يجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه وأنصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشاركون لنا في العمل بكل أنواع المشاركة، وإني من ساعة وصولي الإسكندرية (٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧)

إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبني بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لأمتهم المتشربين مبادئ الشهامة والإرادة والصدق والإقدام فتكون الخدمة أجل وأكبر، والعمل أفيد وأعظم".

## خطبته الكبرى بالإسكندرية

## (٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧)

وقد اعتزم عقب عودته من أوروبا إلقاء خطبة كبرى بالإسكندرية جعلها بمثابة دعوة عامة إلى الانضمام للحزب الوطني، واتخذ (الجلاء) مبدأ للحزب حتى صار أصحّ تعريف له أنه (حزب الجلاء).

كانت هذه الخطبة أكبر خطبة سياسية وطنية ألقاها في حياته، وأحدثت من التأثير ما لم تحدثه اية خطبة أخرى، وهي لا تزال ماثلة في الأذهان أكثر من أية خطابة أو كتابة للفقيد، وقد حدد لإلقائها مساء الثلاثاء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ بمسرح زيزينيا. وما أن أعلن اللواء عن موعد إلقائها حتى انهالت الطلبات من الراغبين في سماعتها، وفي مساء ذلك اليوم ازدحم المسرح على سعته بالحاضرين الذين جاءوا من كل صوب لسماع تلك الخطبة، وجلهم من علية القوم وفضلائهم وذوي المكانة الأدبية، والشباب المثقف، وكل ذي وطنية صادقة، حتى زخر المكان بهم، ولم يتسع لهم، فوقف الكثيرون منهم في حديثة المسرح وفي الشوارع المجاورة له، وبلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف، وهو أكبر عدد اجتمع لسماع الخطيب وما أو ظهر على منصة الخطابة في منتصف الساعة التاسعة مساء حتى ضج المكان بالتهليل والتصفيق الشديد، وهتفوا جميعًا. "لتحي مصر، ليحي خدام الوطن، لتحي الوطنية".

ثم أخذ الفقيد يلقى خطبته، ولم يكن يقف عند موضع يحسن الوقوف عند إلا دوي المكان بالتصفيق وإظهار علامات الرضا والاستحسان، ولما تكرر التصفيق أضطر الفقيد أن يتقدم إلى السامعين بالرجاء ألا يصفقوا ففعلوا، ثم عادوا إلى التصفيق، واستغرق إلقاء الخطب نحو ساعة ونصف.

والخطبة هي أقوى خطب الفقيد وأعظمها شأنا، بل كانت أعظم خطبة ألقيت في مصر والشرق منذ أقدم العصور، بدأه بشكر الحاضرين، ثم تكلم عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودي الفرنسي الإنجليزي، ونوه بالخطوات الواسعة التي خطتها الحركة الوطنية برغم هذا الاتفاق، بعد أن كان الإنجليز يظنون أنه سيقضي على أمل الأمة، وأبان أن اعتماد الأمة على نفسها هو سبيلها إلى الاستقلال.

قال في هذ الصدد:

"إن العزلة التي صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدة وأرشدتنا إلى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيره ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها وهي أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع و آلات الذبّ عن الشرف والمال والحياة".

ودعا الأمة في خطبته إلى الانضمام إلى الحزب الوطني

وقد تضمنت الخطبة كلمات رائعة للفقيد لا تزال وستظل مضرب الأمثال في قوة الوطنية والثبات في الجهاد، وسنوردها في الفصل الحادي والعشرين تحت عنوان (كلماته الخالدة).

## وصف الاجتماع وتأثير الخطبة

كان للخطبة تاثير بالغ في النفوس وفي الأندية السياسية والدوائر الأوروبية قالت جريدة "الريفورم" في وصفها ما يأتي:

" لا يتاح للمرء في كل يوم أن يحضر خطبة سياسية في مصر، والحق يقال أن مصطفى كامل باشا هو الوحيد الذي اتبع طريقة الخطابة، وهو وحده الذي يسمعنا الخطب السياسية في مصر، فكما رأيناه منذ عشر سنوات في تياترو زيزنيا يخطب رأيناه مساء أمس في التياترو نفسه خطيبًا سياسيًا، وبديهي أن الصحفي لا يدع فرصة تفوته من هذا القبيل، بل إن أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطرًا إلى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع أكثر من ستة آلاف إنسان في مظاهرة وطنية، أضف إلى حشد هذا العدد العظيم جمع عدد من رجال الشرطة، فالصحفي الذي لا يخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفي مقصر في واجبات وظيفته.

"وعلى هذا نقول لقرائنا إنه ما وافت الساعة الثامنة مساء حتى تقاطرت جماهير الوطنيين إلى تياترو زيزينيا فملئوا الألواج والكراسي وازدحم الملعب بهم أي مزدحم حتى لم يبق موطئ لقدم، بل لقد غصت المماشي والحديقة بالناس يأتون أفواجًا حتى امتلأ بهم الشارع، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وأفندية متحمسين، قادمين من جميع جهات الوجه البحري لسماع خطبة "الرئيس" كما يلقبونه بذلك، وكان في الحضور صفوة المحامين والأطباء الوطنيين في الدلتا والقاهرة، وكانت نظرات الذكاء تلمع من خف نظاراتهم الذهبية، وفيهم كل الشبيبة المصرية من جميع المدارس، أولئك الطلبة الذي ابتدأوا يشعرون بالحياة وتنطبع في قلوبهم العواطف الصادقة، والعقائد السليمة.

"كان المنظر فخما جليلا، منظر هذه الطرابيش الحمراء التي ملأت الملعب جميعه وبينها هنا وهناك بعض العمائم البيضاء، كان المنظر جامعًا بين زهور مختلفة من أزهار الإنسانية، كان داعيًا إلى الدرس الفلسفي والاجتماعي، وما أجدر منه بذلك وهو يمثل الألوف من العقول البشرية، وما أجدر منه بالتأمل والتفكير وهو يجمع في جملته طلبة المدارس المصرية هؤلاء الطلبة الذين سيكونون غدًا رجال مصر وقوتها، هم الذين كانوا اشد استحسانا وتصفيقًا لخطبة مصطفى كامل، وأكثر تحية وإجلالا له، وإن أذن الأوروبي المعودة سماع الفصاحة الغربية قد لا تالف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيرًا بنبرات صوت الخطيب الشرقي وتنقله بين ارتفاع وانحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين، ولكن هذا الشأن لا يصدق علينا نحن الذين عشنا في مصر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية وما فيها من قوة التأثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى، ولقد كان الخطيب جامعًا لكل ذلك وتأثيره شديدًا في الحاضرين يمكن إتباع أثره على وجوههم من دقيقة إلى أخرى، كان تأثيره بحيث لم تكفّ الأيدي عن التصفيق له تصفيقًا صادرًا من أعماق القلوب خاليًا من كل تملق.

"إن لهذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة، إن كلامه مؤثر في النفوس تأثيرًا عظيمًا، على أننا نرى حقا علينا مدحه، لأنه لم يلعب بهذه العقول التي ملكها، ولم يستخدم تأثيره في الحاضرين لطبع اثر سيء في النفوس، بل كان كلامه غاية في الاعتدال؛ لم يستعمل عبارة حادّة ولا استخدم ألفاظاً جارحة، وقد دامت خطبه رصيفنا إلى الساعة العاشرة، أي أنه ظل يخطب أكثر من ساعة ونصف دون أن يتولاه أقل تعب، ولما انتهى خطابه صفق له الحاضرون تصفيقًا حادًا، وارتفعت الأصوات قائلة: ليحي مصطفى كامل ليحي الحزب الوطني. ويقدر عدد الذين حضروا هذه الخطبة بنحو سبعة آلاف إنسان، وقد انصرفوا بهدوء لم تعد معه فائدة للقوة التي حشدها البوليس".

وكان للخطبة صدى كبير في أوروبا، وخصصت لها جريدة (الطان) الفرنسية مقالها الافتتاحي، واقتبست فقرات منها، وأفاضت بنوع خاص فيما ورد في الخطبة عن علاقة الإسلام بالمدنية، وكذلك فعلت جريدة (الفيجارو)، ووصفت (الإكلير) الاجتماع وأشارت إلى المظاهرة الكبرى التي قوبل بها الفقيد واقتبست فقرات من الخطبة، ونشرت جريدة الديلي نيوز الإنجليزية مقالة افتتاحية بحثت فيها حركة الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي، وعدت مصطفى كامل باشا الرئيس السياسي للنهضة الإسلامية، وقالت إنه أقوى صحفي في العالم الإسلامي، وقالت عن الخطبة إنها غاية في الفصاحة، واستطردت من ذلك إلى انتقاد السياسة التي ترمي إلى صبغ مصر بالصبغة الإنجليزية، وطلبت العفو عن مسجوني دنشواي وتعليم العلوم في المدارس المصرية باللغة العربية.

# أول جمعية عمومية للحزب الوطني

# (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧)

وما أن دعا الفقيد الأمة إلى الانضمام للحزب الوطني حتى انهالت طلبات الانضمام إليه من كل جانب، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء، وكان اجتماعا حافلا تمثلت فيه طبقات الأمة من أعينا ومزارعين وسراة ومحامين وتجار وأطباء ومهندسين وأرباب أعمال وصناع وما إلى ذلك، وأحصيت تذاكر الدعوة التي قدمها المجتمعون فكان عدد ١٠١٩ تذكرة، وبلغ عدد الاعتذارات البرقية والبريدية (٨٤٦) اعتذاراً، وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطني من قديم، ثم أشار إلى ضرورة تنظيمه، وقال عن أغراض الحزب: "إننا لسنا حزبا سياسيًا فقط بل نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين سائل الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمي إلى الاستقلال أس كل سعادة، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصري جاهلا تحت سماء مصر، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى، وهو يرمي قبل كل شيء إلى أن يكون المصري إنسانًا بأسمى معاني الكلمة، وأقصد بالمصري ليس فقط ذلك الذي نراه في المدائن يجدّ ويعمل، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذي قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له، فأمسى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته، فهو ممثل النشاط المصري، ومصدر كل خير ونعيم؛ ليحي عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفرح ألقى أثقال القرون الماضية٠وصار رجلا حرًا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين في سبيل حريته وسعادته".

ثم قال:

"إننا إذا دعونا الناس للدخول في هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة، بل ندعوهم باسم وطنيتهم، باسم شرفهم، باسم حقوق وطنهم، باسم كرامة الإنسان، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم".

ثم نفى تهمة الثورة التي ينسبها بعض خصومه غليه وتشبيهه بحزب العرابيين، وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال، واستنكر الحكم المطلق، ودعا إلى التمسك بالنظام الدستوري، وحث على الثبات والاتحاد، وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق الشديد والاستحسان المتواصل.

ثم ألقى محمود بك أنيس كلمة مجّد فيها أعمال الفقيد وجهاده في سبيل مصر، وانتخب الحاضرون بالإجماع مصطفى كامل رئيسًا للحزب الوطني مدى الحياة، فوقف الفقيد وارتجل فيها الكلمة الآتية:

" أيها الإخوان:

" إنكم حملتموني طول حياتي حملا ثقيلا على كاهلي، فأنا قبل كل شيء، أشكر لكم ثقتكم بي، هذه الثقة التي كانت عونا في كل أعمالي، وأقول لكم إنكم أنتم قوتي وساعدي بصفتكم من خير أمة أوقفت لخدمته حياتي وقواي وعقلي وقلبي وقلمي ولساني وصحتي، وكم من صديق قال لي أشفق على صحتك التي لا تدخر وسعًا في بذلها، ولكن الواجب لبلادي ووطني ينسيني هذه النصائح الثمينة، فأنا الآن إذا قبلت اختياركم لي رئيسا فإنما هو لثقتي بأن كل واحد منكم أصبح حياتي وشعوري واعتمادي، بل صار كل منكم في الشعور الوطني أكبر من "مصطفى كامل".

ثم وقف فؤاد بك سليم (باشا) وأخذ يتلو لائحة الحزب مادة فمادة والحاضرون يبدون رأيهم فيها، وبعد المناقشة صدقوا على نصفها النهائي، وأهم ما جاء فيها أن رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة وأن الجمعية العمومية للحزب تجتمع مرة في كل سنة في شهر ديسمبر باسم (المؤتمر الوطني)، واختصاصاتها انتخاب اللجنة الإدارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله والنظر في اقتراحات الأعضاء وتقرير كل أمر نافع للبلاد، وتناقش الجمعية في كل اجتماع المسائل الحيوية كافة للقطر المصري، ويبدي الأعضاء آراءهم في كل أمر مهم، وتؤلف من أبحاثهم وأقوالهم مجموعة سنوية باسم (تقرير الحزب الوطني)، وتؤلف اللجنة الإدارية من ثلاثين عضوا عدا الرئيس، وتنتخب لمدة ثلاث سنوات، وتجتمع مرة في كل شهر على الأقل، وتنتخب وكيلين للحزب وسكرتيرا وأمين الصندوق لتنفيذ قرارات الجنة الإدارية وتجتمع مرة في كل أسبوع على الأقل، وينشأ ناد للحزب وفروع له في الأقاليم.

وبعد التصديق على اللائحة انتخب الحاضرون الأعضاء الثلاثين للجنة الإدارية الأولى وهم: محمد بك فريد. أحمد فائق باشا. حسن حارس باشا. سيد باشا شكري. على باشا آصف. عمر بك سلطان (باشا). محمود بك أنيس. فؤاد بك سليم الحجازي (باشا). الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب سابقا). الدكتور حسين يسري بك. محمود بك محرم رستم. يوسف بك ذهني. على بك فهمي كامل. على بك حشمت. محمود بك حسيب. عبد الحميد بك عمار. محمد بك حافظ رمضان (باشا). شمس الدين بك حمودة إسماعيل بك لبيب. محمد بك خلوصي. محمد بك رشوان. عبد الرؤوف بك السيوفي. يوسف بك حافظ. إبراهيم بك حفظي. عبد الله بك طلعت. على بك لهيطة. إسماعيل بك الملواني. محمد بك عبد اللطيف. محمود بك فهمي حسين. الدكتور أحمد فهمي الجهيني. وانتهى الاجتماع في الساعة السادسة مساءًا، وانتخبت

اللجنة الإدارية محمد بك فريد وأحمد فائق باشا وكيلين لحزب، وفؤاد بك سليم (باشا) سكرتيرًا. وعمر بك سلطان (باشا) أمينًا للصندوق.

وفي ٤ فبراير سنة ١٩٠٨ استقال عمر بك سلطان (باشا) من أمانة الصندوق مع بقائه عضوًا باللجنة الإدارية، وانتخب على بك المنزلاوي ومصطفى بك الخادم المحامي عضوين في اللجنة الإدارية بدلا من سيد باشا شكري وعبد الرؤوف بك السيوفي المستقيلين من عضوية اللجنة.

## الإفراج عن مسجوني دنشواي

ما فتئ الفقيد يطالب بالعفو عن مسجوني دنشواي لكي يمحي أثر من آثار الظلم الذي وقع بالأبرياء من شهداء هذه الحادثة، ودعا المصريين إلى تقديم العرائض إلى الخديو بهذا الطلب، وقد لبت الأمة دعوته وأقبل المصريون على رفع العرائض الإجماعية إلى الخديو في هذا الصدد وبلغت عدتها ١٤٨ عريضة وقع عليها ١٢٦٧٠ من المصريين، وتردد صدى هذه الحركة في أوروبا وانجلترا، إذ طالب بعض النواب الأحرار في البرلمان البريطاني بالإفراج عن مسجوني هذه الحادثة، وكان من نتائج هذه الحركة المزدوجة أن تقرر في شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ العفو عنهم، على أن ينفذ العفو في يوم عيد الجلوس الخديوي (٨ يناير سنة ١٩٠٨)، وكان اللواء أول من زفّ إلى الأمة هذه البشرى، ولما اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطني في يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء كان من قراراتها إرسال كتاب شكر إلى الخديو بهذا العفو، وإرسال تلغرافات شكر إلى السير هنري كامبل بانرمان رئيس الوزارة الإنجليزية والمستر نورمن النائب بالبرلمان الإنجليزي،إلى مدير جريدة (الديلي نيوز) على سعيهم في استصدار هذا العفو.

وقد أفرج عن المسجونين الباقين يوم ٧ يناير لا يوم ٨، لكي لا تحث مظاهرات في اليوم المحدد للإفراج عنهم، وكان عددهم تسعة، منهم ثلاثة كانوا في سجن الدلتا وهم محمد عبد النبي، وأحمد عبد العال محفوظ، وكان محكومًا عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، ومحمد مصطفى محفوظ، وكان محكومًا عليه بالسجن سبع سنوات، وواحد كان في سجن أبي زعبل وهو العيسوي محمد محفوظ، وكان محكومًا عليه بسبع سنوات وخمسة كانوا بليمان طره منهم واحد كان محكوم عليه بالأشغال الشاقة خمس عشر سنة وهو أحمد محمد السيسي والباقون كان محكومًا على كل منهم بالسجن سبع سنوات، وهم عبده البقلي ورسلان السيد علي وعلي سمك وعلى على شعلان.

وقد قوبل نبأ الإفراج عنهم بالاستحسان والابتهاج العام في البلاد، وهرع الذين خرجوا من السجن إلى القاهرة قاصدين دار (اللواء) ليقابلوا الفقيد ويقدموا له شكرهم على دفاعه المجيد

عنهم، ويعربوا له عن اعترافهم بجميله غذ كان صاحب الفضل في إطلاق سراحهم، ولكن الزعيم كان طريح الفراش في مرضه الأخير، فلم يستطيعوا مقابلته وأعربوا للواء عن شعورهم نحو منقذهم العظيم.

obeikandl.com

# الفصل الخامس عشر

# القضاء المحتوم

## (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨)

obeikandl.com

كانت صحة الفقيد يعتريها التعب والاعتلال من الجهد الذي حملها إياه، وتدل رسائله الخاصة على أن صحته كانت في حاجة إلى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات، ولكنه كان ماضيًا في سبيله، لا يبالي أن يحملها ما لا تطيق من التعب والعناء. كتب إلى مدام جولييت آدم من فيشي في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول:

"يجب أن أقضي معظم هذا الشهر في (التيرول) مع صديق فريد بك الذي تشرفت بتعريفه إليك منذ سنتين، لأن الأطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضي في الجبل بعض الزمن، إذ أخذ التعب يستولي على أعصابي، ولهم الحق في ذلك فإني لم أشفق على نفسي".

وكتب إليها في ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ كتابًا قال فيه:

"إن العمل قد أضناني إلى حد اشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذي أعيش فيه، وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها، إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي".

وقد سافر في يوليه من تلك السنة إلى أوروبا وقصد إلى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض في أمعائه كان يشتد به أحيانًا فيؤلمه كثيرًا وفي صيف سنة ١٩٠٦ ذهب إلى أوربا للاستشفاء والعلاج، وكان في حاجة قصوى إلى الراحة، ولكن حادثة دنشواي جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج، فنهض نهضة الأسد، وبذلك تلك الجهود الهائلة التي لا تصدر إلا عن أقوى الناس صحة وجسمًا، ولما سافر إلى باريس ولندن وفي شتاء سنة ١٩٠٦ يصحبه محمد بك فريد لاختيار محرري جريدتي ليتندار اجبسيان وذي اجبشيان ستندارد عاوده المرض في أثناء الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها إلى الجهاد والكفاح.

وفي صيف سنة ١٩٠٧ ذهب إلى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد، وكانت هذه آخر رحلة له بأوروبا، وكان يشعر بدبيب المرض يعتريه أحيانًا، أذكر المسيو أدولف أدرير (مراسل الاتيندار في باريس) أنه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له: "إني أشعر أن المرض قد دبّ إليّ، ترى هل أعيش حتى أرى أو نجاح لجهودي؟ ليحص الآخرون نتائج جهودي، ولكن ليكن لي وقت كاف للغرس والزرع، وكان هذا القول نذيرًا بخطورة مرضه، وقد قابله في شهر أغسطس في إفيان على حيرة جنيف حيث قصدها للعلاج، وكان يلزمه أن يمكث بها واحدًا وعشرين يومًا للاستشفاء بحماماتها، ولكنه لم يمكث بها غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه، فسافر إلى أعالي جبال سويسرا، ولم يلبث بها غير بضعة أيام، لأنه لم يكن يستريح أينما توجه، قال المسيو أدرير: "وجاء شهر سبتمبر فعدت وإياه إلى باريس ولم أتركه حتى ساعة سفره، وان

دائمًا متوعك الصحة فكنت أرى هذا الوجه الذي ترتسم عليه الشجاعة، والذكاء والإقدام ممتقعًا شاحبًا، وقد سافر منهوكًا إلى حيث لا يعود إلينا أبدًا".

وقد عاد الفقيد إلى مصر في أكتوبر ١٩٠٧، فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قوبل بها في حياته، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطني حتى إذا لم يكن في عمره متسع، لا يخشى عليه من الانحلال، وألقى خطبته الشهيرة بالإسكندرية يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وعلامات الضعف بادية على محياه، وقد لمحها أصدقاؤه الأقربون.

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطني يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧، ترك سرير مرضه ونزل إلى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية، وألقى خطبته كأقدر وأقوى خطيب، حتى دهش السامعون لبلاغته وبراعة إلقائه وقوة جنانه، مع ما كان باديًا عليه من الضعف، وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع واد إلى غرفته مريضًا ولم يغادرها، وقد بلغه في صباح اليوم التالي للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسي الحزب الوطني وأحد أعلام الحركة الوطنية فجزع لوفاته جزعًا شديدًا، وازداد ما به من المرض حزنًا على صديقه العظيم.

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل ولتفكير، فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجًا برقيًا قويًا ضد تصريحات فاه بها السير إدوارد جري في مجلس العموم البريطاني اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتي، فرد عليه بأن مصر تماثل في الاستعداد للحكم الذاتي كثيرًا من الأمم الأوروبية، وأن مصر ستظل تجاهد في سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها.

## الوفاة

وأخذ المرض يشتد ويلح عليه أعي الطب والأطباء، إلى أن حُمّ القضاء، وأسلم الفقيد الروح في الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦هـ) فانتشر نعيه بسرعة البرق في العاصمة والأقاليم، وطيرت الأسلاك البرقية خبره إلى الخارج، وملأ النبأ الفاجع جنبات وادي النيل، ويا لها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعي ونحن في مدرسة الحقوق، فقابلناه بالذهول والوجوم، وفاضت دموعنا حزنًا وأسى على الفقيد الذي كان لنا إمامًا وطنيًا، وأبا روحيًا، ما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر، فكان له في كل نفس مناحة وفي كل قلب مأتم.

## جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يومًا مشهودًا في تاريخ الحركة الوطنية، كان مظهرًا رائعًا لشعور الوطن نحو الزعيم، انبعث من القلوب المكلومة والأفئدة الحزينة لفقده، أرادت الأمة أن تشيعه إلى مقره الأخير، وأن تظهر وفاءها لباعث نهضتها الوطنية، وموقظها من رقدتها، وأدرك الناس كافة حتى الذين كانوا لا يؤمنون برسالة مصطفى كامل أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقًا بتقدير الوطن، ولم يكن هذا الشعور مقصورًا على طبقة دون أخرى، بل تناول طبقات الأمة كافة، شمل المتعلمين وغير المتعلمين، وتناول الكبار والصغار، والرجال والنساء.

لم يكد يذاع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بمحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام، عطلت فيه المدارس كلها حزنا على الزعيم، وقرروا جميعًا الاشتراك في الجنازة التي حدد لها عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير، فسرنا فيها جميعًا مدفوعين بشعور واحد، شعور الحزن للفجيعة، والوداع للراحل العظيم.

ومع عظم منزلة الفقيد، لم يكن متوقعًا أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التي تجلت فيها، وان مقررًا أن تسير من طريق سراي عابدين ومنها إلى باب الخلق فمدافن الإمام الشافعي، واختير هذا الطريق بدلاً من السيدة زينب، التماساً لاتساع الشوارع وطولها منعًا للزحام، ولكن بوادر الحال دلت على أن هذه الشوارع مهمات اتسعت فإنها لا تكفي للجموع الزاخرة والألوف المؤلفة التي قدمت من نواحي العاصمة كافة، ومن الضواحي والثغور والأقاليم، واكتظت بها الشوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنازة بأربع ساعات، فرؤي إلغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء ومدافن الإمام، ليتسنى للجموع الحاشدة

الاشتراك فيه وهو طريق شارع الدواوين (نوبار باشا الآن) حيث كان دار اللواء [1]، فشارع المدابغ فشارع المناخ فميدان الأوبرا فشارع البوستة فميدان العتبة الخضراء فشارع محمد على (القلعة الآن) فميدان المنشية (صلاح الدين الآن) ومنه إلى مدافن الإمام، وهذه المسافة لا تقل عن اثني عشر كيلومترا، وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان وأضافت إليها عددًا كبيرًا من جنود الاحتياطي وقلم المرور، لتنظيم سير الجنازة، وأوقفت عددًا آخر من البوليس في منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام، ولكن كل تقدير لعظم الموكب كان أقل من الواقع.

وأخذ العظماء والكبراء والمثقفون وطبقات الأمة كافة يفدون إلى دار اللواء حتى عصت بهم على سعتها، وفاض جمعهم المتدفق إلى شارع الدواوين فملأه، ثم ضاف بجموعهم الزاخرة، فامتلأت بهم الشوارع المجاورة، وتعطل المرور من جميع الشوارع التي تتصل بطريق الجنازة، وأوقفت مركبات الترام في جميع خطوط العاصمة، ما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة حتى لم يبق موضع لقدم، وبدأت الجنازة في المسير، فتقد المشهد الجنود الفرسان فتلاميذ مدرسة "مصطفى كامل"، فالمدارس الابتدائية الأميرية والأهلية، فطلبة مدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي، فالمدارس الثانوية وهي التوفيقية والخديوية والسعيدية وكثير من طلبة مدرسة رأس التين بالإسكندرية ومدرسة عبد العزيز والمدرسة الإلهامية، ومدارس الأقباط الكبرى وفيكتوريا والفرير، ثم المدارس العليا وهي الحقوق والطب والمهندسخانة والزراعة والصنائع، ثم عساكر البوليس وتلاميذ مدرسة البوليس، ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية، محمولاً على أعناق طلبة مدرسة الحقوق، مندوبين لذلك من قبل جميع طلبة المدارس العليا، وكانت كل مدرسة تحمل علمًا مجللاً بالسواد وفيه شارة تدل عليها، وقد صنعت هذه الرايات خصيصًا للاشتراك في الجنازة، كما أن مدرسة الزراعة رفعت أمامها شجرة مجللة بالسواد، ثم سار المشيعون خلف النعش، يتقدمهم المرحوم محمد بك فريد، وكان عددهم في بدء الجنازة يزيد على عشرات الألوف، إلا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن إلا قطرة من بحر ممن انضم إلى الجنازة أثناء مسيرها، حتى زخرت الشوارع بالمشيعين، ولما تعذر سيرهم في موكب الجنازة وقف معظمهم على جانب الشوارع من دار اللواء إلى مدفن الفقيد، وبلغ عدد المشيعين نحو ٢٥٠،٠٠٠ (ربع مليون) نفسي، عدا الألوف الذي كانوا على جانب الطريق، وفي نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها، وفوق أسطحها، وفي المنعطفات المترامية الأطراف، وجملة القول أن الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها إلا على أجسام

---

(١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الآن.



obeikandi.com

متراصة من المشعين، أو كتعبير المسيو ريمون كولرا مدير جريدة (إيجيبت) في وصف الجنازة: "إن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر، إشارة إلى الطرابيش الحمراء، ومع اشتداد هذا الزحام الذي لم سبق له نظير، كان النظام مستتبًا، والسكون شاملاً رهيبًا، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والباكيات وزفراتهم، ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم، وكلهم يبكي شباب الزعيم ووطنيته، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة في تاريخ مصر الحديث، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله: "١١ فبراير سنة ١٩٠٨! يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواي، أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب "اللواء" فقد ظهر ذلك الشعور ساطعًا في قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر، هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة، وهو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة. هو المستقبل".

سارت الجنازة حتى جامع "قيسون" بشارع محمد علي حيث أقيمت الصلاة على الفقيد. ثم تابعت سيرها في بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم بقرافة الإمام الشافعي، واستمر سيرها أربع ساعات، ولما وصلت ساحة المدفن كانت على رحبتها غاصة بفريق من المشيعين ممن سبقوا الموكب تفاديًا من الزحام وتعذر دخول الجموع الحاشدة إلى رحبة المدفن، وأبى طلبة المدارس إلا أن يدخلوا ولما لم يكن ذلك ميسورًا لاشتداد الزحام، انتدبت كل مدرسة وفدًا ينوب عنها، وكان حملة النعش منهم قد كثر عددهم، وأبو إلا أن يظلوا حامليه داخل المدفن حتى حافة الضريح الطاهر، فأجيبوا إلى طلبهم بعد تذليل الصعاب في إجابته، غذ كان الزحام الهائل داخل رحبة المدفن يحول دون ذلك.

وعندما اجتاز النعش ساحة المدن وأدخل مكان الضريح ووضع على حافته ضدّ المكان بالبكاء والنحيب، وفي هذا الوقت وقف الشاعر الكبير إسماعيل صبري باشا وان صديقًا حميمًا للزعيم ليلقي كلمة الوداع، فألقى البيت الأول منها وهو:

أداعـي الأسـى فـي مصـر ويحـك داعيـا  هـددت القـوى إذ قمـت بـالأمس ناعيـا

ولم يكد يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يتم رثاءه.



obeikandi.com

## قصيدة حافظ إبراهيم

ثم قام شاعر النيل حافظ إبراهيم وألقى قصيدته الرائعة في رثاء الفقيد، قال:

أيـــا قبـــرُ هـــذا الضـــيفُ آمـــال أمـــة ... فكبـــرْ وهلـــل والـــقَ ضـــيفكَ جاثيـــا

عزيـــزٌ علينـــا أن نـــرى فيـــك مصـــطفى ... شـــهيد العـــلا فـــي زهـــرة المـــر ذاويـــا

أيـــا قبـــر لـــو أنـــا فقـــدنا وحـــده ... لكـان التأسـي مـن جـوى الحـزن شـافيا [1]

ولكـــن فقـــدنا كـــلّ شـــيء بفقـــده ... وهيهـــات أن يـــأتي بـــه الـــدهر ثانيـــا

فيـــا ســـائلي أيـــن المـــروءة والوفـــا ... وأيـــن الحَجـــا والـــرأي؟ ويحـــك هـــا هيـــا

هنيئًـــا لهـــم [2] فليـــأمنوا كـــل صـــائح ... فقـد أُسـكت الصـوتُ الـذي كـان عاليـا

ومـــات الـــذي أحيـــا الشـــعور وســـاقه ... إلـــى المجـــد فاســـتحيا النفـــوس البواليـــا [3]

***

مـــدحتكَ مـــلا كنـــت حيًـــا فلـــم أُجـــدْ ... وإنـــي أجيـــدُ اليـــوم فيـــك المراثيـــا

عليـك [4]، وغـلا مـا لـذا الحـزن شـاملاً ... وفيـــك، وإلا مـــا لـــذا الشـــعب باكيـــا

يمـــوت المـــداوي لنفـــوس ولا يـــرىَ ... لمـــا فيـــه مـــن داء النفـــوس مـــداويا

وكنـــا نيامـــا حينـــا مكنـــت ســـاهدا [5] ... فأســـهدتنا حزنًـــا وأمســـيتَ غافيـــا [6]

---

(١) التأسي بمعني الصبر على المصيبة.

(٢) يريد الإنجليز.

(٣) استحيا: أي أحيا.

(٤) عليك: أي عليك الحزن.

(٥) ساهدًا: ساهرًا.

(٦) غافيا: أي نائمًا.



obeikandi.com

شـــهيد العـــلا، لا زال صـــوتك بيننـــا يـــرنُّ كمـــا قـــد كـــان بـــالأمس داويـــا

يهيـــبُ بنـــا: هـــذا بنـــاءٌ أقمتـــه فـــلا تهـــدموا بـــالله مـــا كنـــتُ بانيـــا

يصـــيح بنـــا: لا تشـــعروا النـــاس أننـــي قضـــيتُ وأن الحـــيّ قـــد بـــات خاليـــا

يناشـــــــدُنا بـــــــالله ألاَ تفرقـــــــوا وكونـــــا رجـــــالاً لا تســـــروا الأعاديـــــا

فروحـــيَ مـــن هـــذا المقـــام مطلـــة تشـــارفكم [1] عنـــي وإن كنـــتُ باليـــا

فـــــلا تخزنوهـــــا بـــــالخلاف فـــــإنني أخـــاف علـــيكم فـــي الخـــلاف الـــدواهيا

***

أجـــلْ أيهـــا الـــداعي إلـــى الخيـــر إننـــا علـــى العهـــد مـــا دمنـــا فـــنم أنـــت هانيـــا

بنـــــاؤك محفـــــوظٌ وطيفـــــك ماثـــــلٌ وصـــــوتك مســـــموع وإن كانـــــت نائيـــــا

عهـــدناك لا تبكـــي وتنكـــر أن يُـــرىَ أخـــو البـــأس فـــي بعـــض المـــواطن باكيـــا

فَـــرَخّص لنـــا اليـــومَ البكـــاءَ وفـــي غـــد ترانـــا كمـــا تهـــوى جبـــالاً رواســـيا

فيـــا نيـــلُ إن لـــم تجْـــرِ بعـــد وفاتـــه دمًـــا أحمـــرًا لا كنـــتَ يـــا نيـــلُ جاريـــا

---

(١) تشارفه أي تنظر إليه من علو.



obeikandl.com

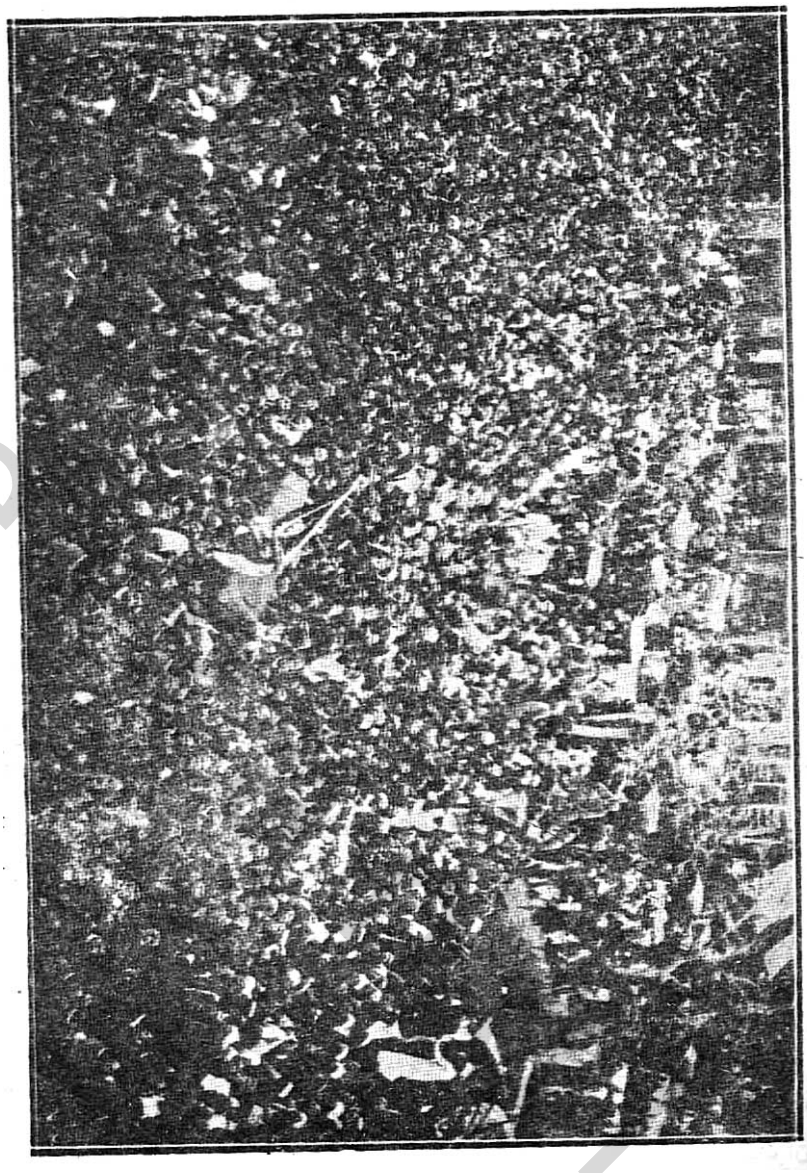

**جنازة المغفور له مصطفى كامل – ١١ فبراير سنة ١٩٠٨**

(هذه الصورة وصورتا الاحتفال بافتتاح نادي المدارس العليا أهداها إلينا الأستاذ عبد المقصود متولي عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطني ومن خيرة تلاميذ الفقيد)

ويـا (مصـر) إن لـم تحفظـي ذكـر عهـده إلـــى الحشـــر لا زال انحلالـــك باقيـــا

ويـا أهـل (مصـر) إن جهلـتم مصـابكم ثقـوا أن جـم السـعد قـد غـار هاويـا

ثلاثـــون عامًـــا [1] بـــل ثلاثـــون ذّرة بجيـــد الليـــالي ســـاطعات زواهيـــا

ستشـــهد فـــي التـــاريخ أنـــك لـــم تكـــن فتـــى مفـــردًا بـــل كنـــت جيشًـــا غازيًـــا

ثم وقف المرحوم أحمد أفندي حلمي أحمد محرري اللواء ومن خاصة تلاميذ الزعيم، وألقى كلمة مؤثرة في وداعه، ثم أنزل جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير بين الضجيج والنحيب، ووضع المشيعون الأزهار والرياحين على قبره، وعادت الجموع تبكي زعيم الحركة الوطنية ولبست العاصمة في ذلك اليوم الرهيب ثوب الحداد العام.

## رثاء الزعيم وحفلات التآبين

اهتزت البلاد وروعت لوفاة الزعيم فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب بالمراثي الصادرة من أعماق القلوب، وممن رثاه من أعلام الأدب شوقي بك أمير الشعراء وكان من أصدق أصدقائه وأكثرهم إعجابا به، وقد حزن عليه حزنًا شديدًا، وترجم عن شعوره بقصيدة تجلت فيها حكمة الشعر وروعة البلاغة، نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يومًا، فأثرت في النفوس تأثيرًا عميقًا، وجددت أحزان الأمة،ننشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم، وصور حية بريشة أمير الشعراء.

---

(١) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبي لأنه توفى في الرابعة والثلاثين من عمره.



obeikandi.com

## رثاء شوقي لمصطفى كامل

## (الحياة في الموت)

المشـــــــرقان عليـــــــك ينتحبـــــــان  قاصـــــيهما فـــــي مـــــأتم والـــــداني

يـــا خـــادمَ الإســـلام أجـــر مجاهـــد  فـــي الله مـــن خلـــد ومـــن رضـــوان

لمـا نعيـتَ إلـى الحجـاز مشـى الأسـى  فـــــي الزائـــــرين ورُوِّع الحرمـــــان

الســـكة الكبـــرى [1]حيـــال رباهمـــا  منكوســـــة الأعـــــلام والقضـــــبان

لـــم تألُهـــا عنـــد الشـــدائد خدمـــة  فـــــي الله والمختـــــار والســـــلطان

يـــا ليـــت مكـــة والمدينـــة فازتـــا  فـــي المحفلـــين بصـــوتك الرنـــان

ليـــــرى الأواخـــــر ذاك ويســـــمعوا  مـــا غـــاب مـــن قـــس ومـــن ســـحبان [2]

***

جـــارَ التـــراب وأنـــت أكـــرم راحـــل  مـــاذا لقيـــتَ مـــن الوجـــود الفـــاني

أبكـــي صـــباك ولا أعاتـــب مـــن جنـــى  هـــذا عليـــه كرامـــة للجـــاني [3]

يتســـاءلون أبالســـلال قضـــيت أم  بالقلـــب أم هـــل مـــت بالســـرطان

الله يشـــهد أن موتـــك بالحجـــا  والجـــد والإقـــدام والعرفـــان

***

---

(١) يريد سكة حديد الحجاز.

(٢) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب.

(٣) الجاني إشارة إلى الفقيد، أي أنه ضحى بحياته وشبابه في سبيل مصر.



obeikandi.com

إن كـــان للأخـــلاق ركـــن قـــائم  فـــي هـــذه الـــدنيا فأنـــت البـــاني

بـــالله فـــتِّش عـــن فـــؤادك فـــي الثـــرى  هـــل فيـــه آمـــالُ وفيـــه أمـــاني

وجـــدانك الحـــيّ المقـــيم علـــى المـــدى  ولـــربّ حـــيٍ ميّـــتِ الوجـــدان

***

النـــاسُ جـــارٍ فـــي الحيـــاة لغايـــة  ومضـــلِّل يجـــري لغيـــر عنـــان

والخلـــدُ فـــي الـــدنيا ولـــيس بهـــينّ  عليـــا المراتـــب لـــم تـــتح لجبـــان

فلـــو أن رســـلَ الله قـــد جبنـــوا لمـــا  مـــاتوا علـــى ديـــن ولا إيمـــان

المجـــد والشـــرف الرفيـــع صـــحيفة  جُعلـــت لهـــا الأخـــلاق كـــالعنوان

وأحـــبُّ مـــن طـــول الحيـــاة بذلـــة  قصـــرٌ يريـــك تقاصـــر الأقـــران

دقـــاتُ قلـــب المـــرء قائلـــة لـــه  إن الحيـــاة دقـــائق وثـــوان

فـــارفع لنفســـك بعـــد موتـــك ذكرهـــا  فالـــذكر للإنســـان عمـــرٌ ثـــاني

للمـــرء فـــي الـــدنيا وجـــم شـــؤونها  مـــا شـــاء مـــن ربـــح ومـــن خســـران

فهـــي القضـــاء لراغـــب متطلـــع  وهـــي المضـــيق لمؤشـــر الســـلوان

***

النـــاس غـــاد فـــي الشـــقاوة رائـــحٌ  يشـــقى لـــه الرحمـــاء وهـــو الهـــاني

ومـــنعَّم لـــم يلـــق إلا لـــذة  فـــي طيهـــا شَـــجنٌ مـــن الأشـــجان

فاصـــبر علـــى نُعمـــى الحيـــاة وبؤســـها  نعمـــى الحيـــاة وبؤســـها ســـيان

***



obeikandi.com

يـــا طـــاهرَ العـــدوات والروحـــات والخطـــرات والإســـرار والإعـــلان

هـــل قـــام قبلـــك فـــي المـــدائن فـــاتح غـــاز بغيـــر مهنِّـــد وســـنان

يـــدعو إلـــى العلـــم الشـــريف وعنـــده أن العلـــوم دعـــائم العمـــران

لفُّـــوك فـــي علـــم الـــبلاد منكسًـــا جـــزَع الهـــلالُ علـــى فتـــى الفتيـــان

مـــا احمـــرَ مـــن خجـــل ولا مـــن ريبـــة لكنمـــا يبكـــي بـــدمع قـــاني [1]

يُزْجُـــون نعشـــك فـــي الســـناء وفـــي الســـنا فكأنمـــا فـــي نعشـــك القمـــران

وكأنـــه نعـــش (الحســـين " بكـــربلاء" يختـــال بـــين بكـــي وبـــين حنَـــان

فـــي ذمـــة الله الكـــريم وبـــره مـــا ضـــم مـــن عـــرف ومـــن إحســـان

***

ومشـــى جـــلال المـــوت وهـــو حقيقـــة وجلالـــك المصـــدوق يلتقيـــان

شـــقّت لمنظـــرك الجيـــوبَ عقائـــلٌ وبكتـــكَ بالـــدمع الهتـــون غـــواني

والخلـــقُ حولـــك خاشـــعون عهـــدهم إذ ينصـــتون لخطبـــة وبيـــان

يتســـاءلون بـــأي قلـــب ترتقـــى بعـــدُ المنـــابر أم بـــأي لســـان

فلـــو أن أوطانـــا تُصَـــوِّر هـــيكلا دفنـــوك بـــين جـــوانح الأوطـــان

أو كـــان يُحمـــل فـــي الجـــوارح ميـــت حملـــوك فـــي الأســـماع والأجفـــان

أو صـــيغ مـــن غـــرّ الفضـــائل والعلـــى كفـــن لبســـت أحاســـن الكفـــان

أو كـــان للـــذكر الحكـــيم بقيـــة لـــم تـــأت بعـــدُ رثيـــت فـــي القـــرآن

---

(١) قاني أحمر.



obeikandi.com

ولقـــد نظرتـــك والـــردى بـــك محـــدق  والـــــداء مـــــلء معـــــالم الجثمـــــان

يبغـــــى ويطغـــــى والطبيـــــب مضـــــلل  قَـــــنطٌ وســـــاعات الرحيـــــل دوانـــــي

ونـــــواظرُ العـــــوَّاد عنـــــك أمالهـــــا  دمـــــعٌ تعـــــالج كتمـــــه وتعـــــاني

تملـــــى وتكتـــــب والمشـــــاغل جمـــــة  ويـــــداك فـــــي القرطـــــاس ترتجفـــــان

فهششـــتَ لـــي حتـــى كأنـــك عائـــدي  وأنـــا الـــذي هـــدّ السـقام كيـــاني

ورأيـــت كيـــف تمـــوت آســـاد الشـــرى  وعـــرف كيـــف مصـــارع الشـــجعان

ووجـــدتُ فـــي ذاك الخيـــال عزائمًـــا  مـــا للمنـــون بـــدكهن يـــدان

***

وجعلـــتَ تســـألني الرثـــاء فهاكـــه  مـــن أدمعـــي وســـرائري وجنـــاني

لـــولا مغالبـــةُ الشـــجون لخـــاطري  لنظمـــت فيـــك يتيمـــة الأزمـــان

وأنـــا الـــذي أرثـــى الشـــموس إذا هـــوت  فتعـــود ســـيرتها مـــن الـــدوران

***

قـد كنـت تَهتـف فـي الـورى بقصـائدي  وتجـــلُّ فـــوق النيـــرات مكـــاني

مـــاذا دهـــاني يـــوم بنْـــتَ فعقنـــي  فيـــك القـــريض وخـــاننني إمكـــاني

هَـــوِّنْ عليـــك فـــلا شـــمات بميـــت  إن المنيـــة غايـــة الإنســـان

مـــن للحســـود بميتـــة بُلَغتهـــا  عـــزت علـــى كســـرى أنوشـــروان

عوفيـــتَ مـــن حَـــرَب الحيـــاة وحرْبهـــا  فهـــل اســـترحت أم اســـتراح الشـــاني

***



openkandi.com

يـــا صَـــبّ مصـــر ويـــا شـــهيدّ غرامهـــا هـــذا ثـــرى مصـــر فـــنم بأمـــان

إخلـــع علـــى مصـــر شـــبابك غاليًـــا والـــبس شـــباب الحـــور والولـــدان

فلعـــل مصـــرًا مـــن شـــبابك ترتـــدي مجـــدًا يتيـــه بـــه علـــى البلـــدان

فلـــو إن بـــالهرمين مـــن عزَماتـــه بعـــضَ المضـــاء تحـــرّك الهرمـــان

عَلّـــمَ شـــبان المـــدائن والقـــرى كيـــف الحيـــاة تكـــون فـــي الشـــبان

مصـــر الأســـيفة ريفهـــا وصـــعيدها قَبُّـــر أبُّـــر علـــى عِظامِـــك حـــاني

أقســـمت أنـــك فـــي التـــراب طهـــارةٌ مَلـــك يهـــاب ســـؤاله الملَكـــان

obeikandl.com

## حفلة التأبين الكبرى – يوم الأربعين

أقام الحزب الوطني حفلة تأبين كبرى للفقيد يوم الأربعاء لوفاته (الجمعة ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨)، وألف لجنة لتنظيمها برئاسة المرحوم محمد بك فريد، وقد تجدد الحداد على الفقيد في ذلك اليوم، فكنت ترى معظم المحال التجارية مغلقة وعليها علامات الحداد، والأعلام منكسة تجللها شارات السواد، وعربات الركوب موقدة المصابيح مجللة بأشرطة سوداء، والشباب من فتيان وفتيات لابسين شارات الحداد، وكان محددًا لحفلة التأبين الساعة الثالثة عصر ذلك اليوم بالساحة الواسعة التي تحيط بضريح الزعيم بمدافن الإمام الشافعي، وكان البرنامج أن يتألف موكب الأربعين ويسير بنظام من دار اللواء بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) إلى مدفن الزعيم، وهناك ينتظره المدعوون للحفلة، فمنذ أخذت وفود الطلبة وجموع الوطنيين يحتشدون في الشوارع المجاورة لدار اللواء، ثم انتظم منهم موكب رهيب يشبه في عظمته وعدده موكب تشييع الجنازة، وسار في نفس طريقها إلى مدافن الإمام، وتقدمه طلبة المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم الخصوصية ثم العالية ثم الأزهر، ولكل مدرسة علمها، ثم جمعيات الشبيبة وجماعات الصناع وجمعيات الأقاليم وجمعية النهضة الوطنية ببولاق، تتلوها عربة الفقيد مجللة بالسواد لا يركبها أحد علامة على فقد صاحبها العظيم، ثم الوفود من أحياء العاصمة والأقاليم، وبدأ سير الموكب في الساعة الأولى بعد الظهر تمامًا، وسار بنظام رهيب حتى وصل إلى المدفن في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥، فكانت مظاهرة حداد قومية لم يسبق لها مثيل، وقد أعد الحزب الوطني مكان الاحتفال بعد أن أزال البناء الذي في تلك الساحة لكي يتسع لعشرة آلاف من المدعوين، وعند الساعة الثالثة بدأ الاحتفال قبل مجيء الموكب، فافتتح بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم.

## خطبة محمد بك فريد

وكان أول الخطباء المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني، فألقى الخطبة الآتية:

"إخواني الأعزاء:

" إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يمت، نعم لم تمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا إن المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا، ولكن الفقيد بث هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الأمة المصرية بثباته وعدم تزعزع عزيمته أمام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التي أنا أعلم بها من غيري.

"وضع مصطفى كامل نصف عينيه خدمة مصر وإيقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية بل منذ كان بالمدارس الثانوية، وسار في طريقه الشريف طريق التفاني في خدمة البلاد، لا يلوي يمنة أو يسرة، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأي غرسه يانعا قبل أن ترك هذا العالم الفاني، نعم إن مصطفى كامل لم يمت بل روحه ترفرف عليها وتنظر إلينا من الملكوت الأعلى تشجعنا على السير في الطريق المستقيم الذي رسمه لنا، ولن نترك هذا الغراس الشريف، غراس الوطنية الحقة يزول أو يعوقه أي عائق عن النمو، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا خيانة نو الوطن المحبوب.

"إن هذه الفكرة السامية، فكرة خدمة الوطن حتى الممات، كانت تملأ جنابه ووجدانه منذ بدأ في عمله، فقد كتب لي جوابًا في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ من فيينا قال في آخره: "إني مستمر إلى يوم الوفاة على خدمة بلادي، وإن غيرتي على حقوقها تزداد يومًا بعد يوم، ولا يقلل من عزمي تهاون بقية المصريين أبدًا بل إني سائر إلى الأمام حتى أنزل القبر، وبعد موتي يكون على روحي واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل، أو إن شئت قل واجب إحياء من هم أموات في قالب أحياء".

"لقد نجم مصطفى كامل في عمله، فقد أصبح القوم كلهم أحياء، أصبح القوم كلهم متفقين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة، فاستمروا يا إخواني في هذا الطريق السوي، ولا يقعدنكم عن العمل تثبيط بعض ضعفاء العزيمة أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة، فإن سرنا بعزيمة واتحاد لا يلبث أهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضا ونلنا ما كان يسعى إليه فقيدنا.

"وكتب إليّ في جواب آخر من بودابست في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ردًا على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله قائلا: "ولكنه جهلوا أن لي روحًا هي من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد، جهلوا أن روحي تنادي إلى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعي الحق، وماذا أقول لك وأنت تحسن بما لا يستطيع القلم كتابته وأنت إذا تلوت هذه الأسطر سالت الدموع من عينيك، ماذا أكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عاليًا مرفوعًا ازداد لهيب فؤادي وتفتت منى الكبد".

"هذه أقواله من نحو أثنى عشر عاما، فحق لمصر أن تبكيه بدل الدموع دما، ووجب عليها أن تقيم له التماثيل في كل المدن الكبرى، ووجب على كل مصري أن يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التي كانت أشعتها تخترق الحجب فتصل إلى أعماق القلوب، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم الوطنية، نعم إن صورته لن تغيب عنا، بل

هي منقوشة على صفحات قلوبنا، كما أن أقواله مكتوبة بأحرف من نور على أفئدتنا، ولكن فائدة التماثيل هي لمن يأتي بعدنا ولم ير بعينه ذلك الذكاء ولا هاتيك الشهامة التي كانت تنبعث من محياه فتحرك القلوب الجامدة، لقد شه دله الد أعدائه بقوة التأثر بخلابة منطقه وقوة حجته ونفوذ روحه إلى نفس المتكلم فيخرج من لدنه مقتنعا معترفا بفضله إن لم يكن جهرًا فسرًا.

" إخواني الأعزاء

" لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظمًا ونثرًا، ولكن أني لشعراء والأدباء أن يوفه حقه من الثناء والمديح وهو من النوابغ الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لإحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من هم أموات في قالب أحياء.

"إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير في الطريق السوي الذي رسمه ومهده لنا، وأن نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مخاتل، ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك أبراجها، وتحصينها بالنظام النيابي الدستوري حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانيًا، إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليها روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا فأصبحنا كلنا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لي بالجواب السابق ذكره (وبعد موتي يكون على روحي واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل).

"فيا أيها الفقيد المحبوب ويا أبتها الروح الطاهرة، قد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الأفكار والقلوب، لا يمنعها من الحصول على رغائبها مانع، ولا تقف في وجهها قوة، فقوة الأمة فوق كل قوة، وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهريا إتباعا لقوله رحمه الله (لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)

"إخواني

" قال تعالى في محكم التنزيل: (وأطيعوا اله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا).

## قصيدة إسماعيل باشا صبري

"وبعد أن انتهى فريد بك من خطبته تلاه الشاعر الكبير إسماعيل صبري وطلب إلى حافظ إبراهيم أن يتلو قصيدته، فتلاها بصوته الجمهوري قال:

أجـــلْ أنـــا مـــن أرضـــاكَ مـــوافي ويرضـيك فـي البـاكين لـو كنـتَ واعيًـا

وقلبـــي ذاك المـــردُ العـــذب لـــم يـــزلْ كمـــا ذقـتَ منـــه الحـبَ والـود صـــافيا

ســـوى أنـــه يعتـــادُه الحـــزن كلمـــا رآك عـــن الحـــوض المهـــدّد نائبـــا

ويعثـــر فـــي بعـــض الخطـــوب إذا إلـــى بعـــض مـــا يهَـوى فيرجـــع داميًـــا

وإن رامَـــه ســـربُ المســـرات لـــم يجـــد محـــلا بـــه مـــن لاعـــج الهـــم خاليًـــا

ألا عللانـــــي بالتعـــــازي وأقنعـــــا فـــؤاديَ أن يرضـــى بهـــنَ تعازيـــا

و إلا أعينـــاني علـــى النـــوح والبكـــا فشـــأنكما شـــأني ومـــا بكمـــا بيـــا

ومـــا نـــافعي أن تبكيـــا غيـــر أننـــي أحـــبّ دمـــوعَ البـــر والمـــرء وافيـــا

أيـــا (مصـــطفى) تـــالله نومُـــك رابنـــا أمثلـــك يرضـــى أن ينـــام الليـــالي

تكلْـــم فـــإن القـــوم حولَـــك أطرقـــوا وقـــلْ يـــا خطيـــب الحـــي رأيـــكَ عاليـــا

لقـد أوشـكت مـن طـول صـمت وهجـرة تخالـــك أعـــواد المنـــابر فانيـــا

وتبكيـــك لـــولا أن فيهـــا بقيـــة تعللهـــا مـــن ذلـــك الصـــوت داويـــا

فهـــل ألفـــت مـــا بـــين جفينـــك والكـــرى مخالفـــة أم قـــد أمنـــت الأعاديـــا

***

obeikandi.com

فقـــدناك فقـــدان الكمـــيّ ســـلاحه وســارى الـدياجي كوكـب القطـب هاديـا

وبتنـــا وقـــد باتـــت رفاقـــك فـــي الثـــرى ســقاها الحيـا [1] تسـتبطئ الـدمع هاميـا

ولـــولا تـــراثٌ مـــن أمانيـــك عنـــدنا كـــريمٌ بكينـــا إذا بكينـــا الأمانيـــا

طـــوال الـــردى طـــي الكتـــاب تضـــمنت صـــحائفه مـــن كـــل خفـــر معانيـــا

مضـــاءٌ إذا البـــيض انتمـــت لأصـــولها غضـــبنا إذا ســـمّاك قـــومٌ يمانيـــا

ورأى يجلـــى اليـــأس واليـــأس ضـــارب علـــى الأفـــق لـــيلا فـــاحم اللـــون راجيـــا

إذا مـــا تقاضـــينا ولـــم تلـــك بيننـــا ذكرناهمـــا [2] حتـــى تجيـــد التقاضـــيا

فليتـــك إذ أعييـــتُ كـــل مســـاجل فنعـــت فلـــم تعـــي الطبيـــب المـــداويا

وليتـك إذ ناضـلت عـن مصـر لـم تفـض مـــع الحبـــر قلبًـــا يعلـــم الله غاليًـــا

---

(١) المطر.

(٢) أي ذكرنا المضاء والرأي.



obeikandl.com

## قصيدة حافظ إبراهيم

ثم ألقى شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته، قال:

نثـــروا عليـــك نـــوادي الأزهـــار [1] وأتيـــت أنثـــر بيـــنهم أشـــعاري

زْيَـــن البـــاب وزْيـــن طـــلاَب العـــلا هـــل أنـــت بـــالمهج الحزينـــة داري

غادرتنـــــا والحادثـــــات بمرْصـــــد والعـــيش عـــيش مذلـــة وإســـار

مـــا كـــان أحوجنـــا إليـــك إذا عـــدا عـــاد وصـــاح الصـــائحون: بـــدار

أيـــن الخطيـــب وأيـــن خـــلال بـــالنهى؟ طـــالَ انتظـــار الســـمع والأبصـــار

بـــالله مالـــك لا تجيـــب مناديـــا مـــاذا أصـــابك يـــا أبـــا المغـــوار؟

فْـــم وامـــح مـــا خطّـــت يمـــين (كرومـــر) جهْـــلا بـــدين الواحـــد القهـــار

قـــد كنـــت تغضـــب للكنانـــة كلمـــا همـــتْ وهَـــم رجاؤهـــا بعثـــار

غضـــب التقّـــي لربـــه وكتابـــه أو غضْـــبة (الفـــاروق [2] للمختـــار)"

***

قـد ضـاق جسـمك عـن مـدارك فلـم يطـقْ صـــبرًا عليـــك وأنـــت شـــعلة نـــار

أودى بـــه ذاك الجهـــاد وهـــدّه عـــزمٌ يهـــد جلائـــل الأخطـــار

لعبـــتْ يمينـــك بـــاليراع فـــأعجزت لعـــب القـــوارس بالقنـــا الخطـــار [3]

وجريْـــت للعليـــاء تبغـــى شـــأوها فجـــرى القضـــاء وأنـــت فـــي المضـــمار

---

(١) نوادي الأزهار أي الرطبة المبللة بالندي.

(٢) الفاروق عمر بن الخطاب، والمختار النبي عليه الصلاة والسلام.

(٣) القنا: الرماح.



obeikandl.com

أو كلمـــا هـــزّ الجـــراء مهنـــدًا بـــدرت إليـــه غوائـــل الأقـــدار

***

عـــز القـــرار علـــىّ ليلـــة نعيـــه وشـــهدت موكبـــه فقـــرّ قـــراري [1]

وتســـابقت فيـــه النعـــاة فطـــائر بالكهربـــاء، وطـــائُر ببخـــار

شـــاهدت يـــوم الحشـــر يـــوم وفاتـــه وعلمـــت منـــه مراتـــب الأقـــدار

ورأيـــت كيـــف تفـــي الشـــعوب رجالهـــا حـــقّ الـــولاء وواجـــب الإكبـــار

تســـعون ألـــف حـــول نعشـــك خشـــعُ يمشـــون تحـــت (لوائـــك) السّـــيار

خطُّـــو بـــأدمعهم علـــى وجـــه الثـــرى للحـــزن أســـطارًا علـــى أســـطار

آنـــا يوالـــون الضـــجيج كـــأنهم ركـــب الحجـــيج بكعبـــة الُّـــزوار

وتخـــالهم آنًـــا فـــرط خشـــوعهم عنـــد المصـــلى ينصـــتون لقـــاري

غلـــب الخشـــوع علـــيهم فـــدموعهم تجـــري بـــلا كلـــح [2] ولا اســـتنثار

قـــد كنـــتُ تحـــت دمـــوعهم وزفيـــرهم مـــا بـــين ســـيل دافـــق وشَـــرار

أســـعى فيأخـــذني اللهيـــب فـــأنثني فيصـــدني متـــدفق التيـــار

لـــو لـــم ألُـــذْ بـــالنعش أو بظلالـــه لقضـــيتُ بـــين مراجـــل وبخـــار

***

(١) أي استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد في موكب الجنازة.

(٢) الكلح العبوس أي تجري الدموع بطبيعتها بلا عبوس.



obeikandl.com

كـم ذات خـدر يـوم طـاف بـكَ الـردى هتـــكْ عليـــك حرائـــرَ الأســـتار

سَـــفرتْ تـــودع أمـــة محمولـــةً فـــي الـــنعش لا خَبـــرًا مـــن الأخبـــار

أمِنـــتْ عيـــون النـــاظرين فمزّقـــتْ وجـــهَ الخَمـــار فلـــم تَلُـــذُ بخمـــار [١]

قـــد قـــام مـــا بـــين العيـــون وبينهـــا سِـــتْرٌ مـــن الأحـــزان والأكـــدار

***

أدرجـــتَ فـــي العلـــم الـــذي أصْـــفْيتَه منـــك الـــودادَ فكـــان خيـــرَ شـــعار

عَلمـــان [٢] مـــن فـــوق الـــرؤوس كلاهمـــا فـــي طيِّـــه ســـرٌ مـــن الأســـرار

ناداهمـــا داعـــي الفـــراق فأمْســـيا يتعانقـــان علـــى شـــفير هـــاري

تـــالله مـــا جـــزع المخـــبُّ ولا بكـــى لنـــوىً مُرَوعـــةٍ وبعـــد مـــزار

جـــزع (الهـــلال) عليـــك يـــوم تركتـــه مـــا بـــين حَـــرِّ أســـى وَحـــرِّ أوار [٣]

متلفتـــــا متحيـــــرًا متخيّـــــرًا رجـــلاً يناضـــل عنـــه يـــوم فخـــار

إن الثلاثـــين التـــي بـــك فـــاخرت باتـــتْ تُقـــاس بـــأطول الأعمـــال

ضَـمتْ إلـى التـاريخ بضـعَ صـحائف بيضـــاء مثـــل صـــحائف الأبـــرار

شـــــبهتُن بنقطـــــة عطريـــــة وسـعتْ مُحصـل روضـةٍ معطـار [٤]

خلفتهـــا كالمشـــق يحـــذو حَـــذوها راجـــي الوصـــول ومقتفـــي الآثـــار

---

(١) الخمار أي الحجاب.

(٢) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية، والثاني علم مصر.

(٣) الأسى الخزن والأوار الظمأ والتعطش أي التعطش إلى الفقيد.

(٤) الروضة المعطار هي الكثيرة الأزهار والرياحين.



obeikandi.com

مـــاذا علـــى الســـار – وهُـــنِّ [١] منـــائر –  لـــــو ســـــار بـــــين مجاهـــــل وقفـــــار

***

مازلـــــتَ تختـــــارُ المواقـــــف وعْـــــرة  حتـــــى وقفـــــت لـــــذلك الجبّـــــار [٢]

وهـــــدمت ســـــورًا قـــــد أجـــــاد بنـــــاءَه  فرعـــــون [٣] ذو الأوتـــــاد والأنهـــــار

ووصـــــلت بـــــين شـــــكاتنا ومشـــــايخ  فـــــي (البرلمـــــان) أجلـــــةً أخيـــــار

كشـــفوا العطـــاء عـــن العيـــون فأبصـــروا  مـــا فـــي الكنانـــة مـــن أذى وضِـــرار

نبـــذوا كـــلام (اللـــورد) حـــين تبينـــوا  حَنَـــقَ المغـــيظ ولهجـــة الثرثـــار

ورمـــــأُهُم بمجلـــــدين [٤] رَمْوهُمـــــا  فـــــي رُتبـــــة الأصـــــفار لا الأســـــفار

***

واهًـــا علـــى تلـــك المواقـــف إنهـــا  كانـــت موقـــف ليـــث غـــابٍ ضـــاري

لـــم يُلْـــوه عنهـــا [٥] الوعيـــدُ ولا ثَنَـــى  مـــن عزمـــه قـــولُ المريـــب: حـــذار

فاهنـــأ بمنزلـــكَ الجديـــد و نَـــمْ بـــه  فـــي غبطـــة وانعـــم بخيـــر جـــوار

واســـتقبل الأجـــرَ الكبيـــر جـــزاء مـــا  ضَـــحّيتَ للأوطـــان مـــن أوطـــار

---

(١) هن إشارة إلى الثلاثين عاما أي ماذا على الساري في المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.

(٢) يريد بالجبار اللورد كرومر الذي كان حكمه مطلقا في مصر.

(٣) شبه اللورد كرومر بفرعون.

(٤) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.

(٥) أي لم يصرفه عن مواقفه الوعيد والتهديد.



obeikandl.com

نْعـــــم الجـــــزاء مـــــا بُلِّغتَـــــه  فـــي منزلَيـــك [1] ونعـــم عُقبـــى الـــدار

ثم وف المسيو كولرا رئيس تحرير جريدة الإيجبت وألقى كلمة تأبين بالفرنسية بالنيابة عن الصحافة الأوروبية، وهنا أقبلت طلائع الموكب، فاشتد الزحام وعظم التلاحم، وامتلأت المنافذ بالقادمين، ولما ضاف المكان وعظم تدافع الجماهير قررت لجنة التأبين اختتام الاحتفال خوفا من وقوع حادث من شدة الزحام، إذ اختلطت جموع الموكب بالحاضرين، ونشرت اللجنة خطب المؤبنين وقصائدهم بحسب ترتيب ورودهم في البرنامج: محمد فريد بك، إسماعيل باشا صبري، أحمد لطفى السيد بك، والمسيو كولرا مندوب الصحافة الأوروبية، محمود بك أبو النصر، قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم، كملة الأستاذ أخنوخ فانوس، قصيدة محمد بك أبو شادي، كلمة مندوب طلبة المدارس (الأستاذ محمود خيرت)، كلمة الشيخ مصطفى القاياتي عن الأزهر، كلمة الأستاذ مرقس بك حنا (باشا)، قصيدة الدكتور السيد بك رفعت، قصيدة شاعر القطرين خليل بك مطران (وقد نشرناها فيما يلي) قصيدة حسن بك حمدي، وقصيدة الشيخ سليمان على مطيريد شيخ قيلة عربان الضعفاء ببني سويف، كلمة محمد أفندي لمعي المهندس، قصيدة السيدة زينت فواز عن السيدات، كلمة إبراهيم أفندي فهمي عبد الهادي التلميذ بمدرسة مصطفى كامل، وكلمة على بك فهمي كامل شقيق الفقيد.

هذا وقد للفقيد حفلات تأبين عدة في مختلف الأحياء والعواصم والأقاليم.

---

(١) أي الدنيا والآخر.



obeikandl.com

## قصيدة خليل مطران

## (حق الوطن وحق الإخاء)

أعلـــى مكانتـــكَ ألإلـــهُ وشَـــرفا فـــانعم بطيـــب جـــواره يـــا (مصـــطفى)

اليـــومَ فُـــزتَ بـــأجر مـــا أســـلفتهُ خيـــرًا وكـــلٌ واجـــدٌ مـــا أســـلفا

وجُزيـــتَ مـــن فـــاني الوجـــود بخالـــد ومـــن الأســـى الماضـــي بمقتَبـــل الصَّـــفا

***

أعظـــمْ بيومـــك فـــي الزمـــان ومـــن لـــه بـــك واصـــفًا ذاك الجـــلال فيوصَـــفا

حيـــث الوفـــود مـــن الملائـــك أقبلـــوا حـــافّين حولـــك فـــي الســـرير وعُكَّفـــا

وتحملـــوك علـــى الأشـــعّة وارتقـــوا سِـــربًا يجـــوز بـــك الـــدراري موجفـــا

فـــوردتَ ورْدك فـــي الخلـــود منعَّمـــا والأرض مائـــدةٌ عليـــك تأسّـــفا

لـــم تُلـــف قبلـــك أمّـــةً فـــي مشـــهد يـــذْرو الرجـــالُ بـــه المـــدامع ذُرّفـــا

يمشـــون مـــن حـــول الجنـــازة ضـــائقًا بهـــم الرحيـــبُ مـــن المســـالك مصـــرفا

متثـــاقلين مـــن الوقـــار وإنمـــا ســـاروا بطيـــف ناحـــلٍ أو أنحفـــا

بحـــرٌ مـــن الأحيـــاء نعشُـــك فوقـــه قُلْـــكُ يظللـــه اللـــواء مرفرفـــا

يبكـــونَ فـــي آثـــاره العَلَـــم الـــذي آثـــارُهُ مـــن رفعـــةٍ لا تُقتفـــى

سَـــعت الخـــوادرُ حاســـرات والأســـى مُلْـــق علـــى الأبصـــار ســـترًا أغـــدفا

ولـــئن ســـفرنَ ولـــم يَخْلـــن فإنـــه خطـــبٌ ألان بروعـــه صُـــمَّ الصـــفا

فـــزع الشـــباب إلـــى الشـــيوخ بثـــأرهم مـــن دمعهـــم إن خـــانهم متكفكفـــا



obeikandi.com

ومـــن الغضاضـــة أن دعـــا داعـــي العـــلا بعـــــد الفقيـــد فتـــىً بهـــم فتوقفـــا

جـــــزع النصـــــارى واليهـــــود لمســـــلم هـــو خيـــر مـــن والـــي وأوفـــى مـــن وفـــى

بكَـــوا المرجَّـــى فـــي خـــلاف عـــارضٍ ليزيـــــل ذاك العـــــارضَ المتكشّـــــفا

واشـــــتد رُزْءُ المســـــلمين وحـــــزنهم لمـــا مضـــيتَ ولســـت فـــيهم مخلفـــا

مَـــن بَعـــد كـــاتبهم وبَعـــدَ خطيـــبهم يُعلـــى لهـــم صـــوتًا وينشـــرُ مصـــحفا

***

مـــن يبـــرئ الإســـلام مـــن تهـــم العـــدى ويـــــردُّ نقـــــد الناقـــــدين مزيفًـــــا

يبـــــدي لأعـــــين جاهليـــــه فضـــــلهُ ويزيـــلُ مـــا يلـــدُ التنـــاكرُ مـــن جفـــا

ويثيـــر مـــن غضـــب الغضـــاب لمجـــده هممًـــا تعيـــد لـــه المقـــام الأشـــرفا

لكـــنّ مـــن أقـــلام جنـــدِك حولـــه سُـــمرًا تهـــزُّ لكـــل خطـــبٍ معطفـــا

ولعـــل حـــرًا لا يـــديُن بـــه انبـــرى ليـــذودّ عنـــه خصـــمهُ المتعســـفا

إن يَعتـــرِ الشـــمس الكســـوفُ هنيهـــةً أيكـــون منقصـــةً لهـــا أن تُكســـفا

وهـــل الكســـوف ســـوى تَـــرض حائـــل يثنـــي أشـــعتها إلـــى أن يكشـــفا

لـــم تنـــزل الأديـــان إلا هاديـــا للعـــــاملين ورادعًـــــا ومثقِّفـــــا

بشـــعار حِّـــي علـــى الفـــلاح ومـــا بهـــا أن قصـــر الأقـــوامُ عنـــه فأخلفـــا

وبكـــل أمـــر موجـــبٍ إصـــلاحهم أن خـــالفوه فمـــا اســـتحال ولا انتفـــى

قـــد كـــان للإســـلام عهـــدُ بـــاهرٌ نلنـــا بـــه هـــذا الرقـــيَّ مســـلفا

مـــلأ الـــبلاد إنـــارةً وحضـــارةَ ومُنـــىَ الســـماحةِ عـــودُةُ مســـتأنفًا

فـــالخيرُ كـــل الخيـــر فيـــه مقـــبلاً والشـــرُّ كـــل الشـــر أن يتخلفـــا



obeikandi.com

يـــدعو البقـــاء إلـــى التكـــافؤ بـــالقوى بـــين العناصـــر أو يهـــينَ ويضـــعفا

والخلـــقُ جســـمٌ إن ألـــمَّ ببعضـــه سَـــقَمٌ ولـــم يُـــتَلافَ عَـــمّ وأتلفـــا

بشـــرى البريـــة بعـــد مُـــزمْن دائهـــا بســـلامة الإســـلام وهـــي لهـــا شـــف

إن أغضـــبت تلـــك الســـلامة جـــائرًا أرضـــت خبيـــرًا بالحيـــاة ومنصـــفا

يـــا مـــن نهضـــتَ بنصـــرهِ وأبْتَـــه حـــقَّ الإبانـــة هـــل تبـــالي مرجِفـــا

مـــا زلـــتَ فـــي مصـــر قـــديمُ منـــارَة حتـــى أنـــارَ الكـــونَ منهـــا مُشْـــرِفا

***

مصـــر العزيـــزةُ قـــد ذكـــرتُ لـــك اســـمَها وأرى ترابَـــكَ مـــن حنـــين قـــد هفـــا

وكـــأنني بـــالقبر أصـــبح منبـــرًا وكـــأنني بـــك مُوشـــكٌ أن تهتفـــا

مصـــرُ التـــي لـــم تحـــظ مـــن نجبائهـــا بـــأعزَّ منـــك ولـــم تعـــزَّ بأحصـــفا

مصـــرُ التـــي لـــم تبـــغ إلا نفعَهـــا فـــي الحـــالتين ملاينًـــا ومعنفـــا

مصـــرُ التـــي غســـلت يـــداك جراحَهـــا بصـــبيب دمعـــك جاريًـــا مســـتنزفا

مصـــرُ التـــي كافحـــتُ لـــدَّ عُـــداتها متصـــدرًا لرماتهـــا مســـتهدفا

مصـــرُ التـــي سُـــقْتَ الجيـــوش مناقبـــا" ومُنـــى لتكفيهـــا المُغيـــر المجحفـــا

مصـــرُ التـــي أحببتهـــا الحـــبَّ الـــذي بلـــغ الفـــداءَ نزاهـــةً وتعففـــا

حتـــى مضـــيتَ كمـــا ابتغيـــتَ مؤلفـــا مـــن شـــملها مـــن مـــا لـــم يكـــن ليؤلفـــا

أمنّيـــة أعيـــتْ خلالـــك دونهـــا لـــو لـــم يُضـــافرْها رداك فيُســـعفا

وهـــي التـــي لـــو أقســـمت لنمـــا بهـــا شـــعبٌ يعـــزّ بنفســـه مستنصـــفا

obeikandl.com

مـــن كـــان أجـــرأ منـــك يـــوم كريهـــة ... بـــــالحق لا شكسًـــــا ولا متصـــــلفا

مـــن كـــان أقـــدرَ منـــك تصـــريفًا لمـــا ... يعنـــــي الحكـــــيمَ مـــــدبرًا ومصـــــرّفا

مـــن كـــان أظهـــرَ منـــك خلقًـــا جامعـــا ... فيـــــه مهيـــــبَ الطبـــــع والمســـــتظرفا

مـــن كـــان أزهـــد منـــك إلا فـــي الـــذي ... يجـــــدي الـــــبلادَ فتبتغيـــــه مُلْحفـــــا

مـــن كـــان أســـمعَ منـــكَ منّاعًـــا لمـــا ... تهـــــوى ومعطـــــاءً لغيـــــرك مُســـــرفا

مـــن كـــان اصـــدق منـــكَ لا متنصـــلاً ... ممـــــا تقـــــولُ ولا تعاهـــــدُ مخلفـــــا

***

لهفـــى علـــى فخـــر الصـــبى هـــادي النهـــى ... عـــالي اللـــواء حمـــى المـــروءة والوفـــاء

يـــا مـــن نعـــى تلـــك الفضـــائل والعلـــى ... أغـــدت معـــالمهنّ قاعًـــا صفصـــفًا

لا لا وحقلـــــك يـــــا شـــــهيد وفائـــــه ... ورجائـــــه كـــــذبَ النعـــــيُّ وأرجفـــــا

مـــا أنـــتَ بالرجـــل الـــذي يمســـي وقـــد ... ملـــئ الوجـــودُ بـــه ويصـــبح قـــد عفـــا

إنـــــى أراك ولا تـــــزال كعهـــــدنا ... بكـــل فـــي جهـــادك أو أشـــد وأشـــعفا

ثـــابرْ علـــى تلـــك العـــزائم ذائـــدًا ... عـــن مصـــر تضـــربُ فـــي الـــبلاد مطوّفـــا

أصـــدر صـــحائفك التـــي تحـــي بهـــا ... نِضْـــوَ الطريـــق وتـــدفع المتخلفـــا

وتكـــــاد أســـــطُرها تهـــــبُّ نواطقـــــا ... ويكـــاد يعـــزفُ كـــلُّ حـــرف معزفـــا

فـــإذا حنـــوتَ علـــى الحمـــى متحببًـــا ... فهـــو النســـيم وقـــد ذكـــا وتلطفـــا

وكأنمـــــا الألفـــــاظ ممـــــا خففـــــت ... نقَـــش المـــدادُ رســـومها وتحففـــا

تُســـــتام مـــــن أثوابهـــــا أرواحُهـــــا ... وتعـــــاف تحليـــــة لـــــئلاّ تكشـــــفا



openkandil.com

قـــم للخطابـــة فـــي المجـــامع وامتلـــك تلـــك النفـــوس مروّعًـــا ومشـــنفا

أعـــد القـــديمَ مـــن الممالـــك والقـــرى ذكـــرى وعرّفنـــا الحيـــاة لنعرفـــا

شـــدِّدْ عزائمنـــا وقاتـــلْ ضـــعفنا حتـــى نبيـــتَ ولا نـــرى متخوِّفـــا

مـــا هـــذه الآيـــاتُ يَرْمـــي لفظهُـــا شـــررًا وتهـــوى الشـــهبُ فيهـــا أحرفـــا

مـــا ذلـــك الترضـــيعُ لـــيس مرصُّـــعًا مـــا ذاك التفويـــفُ لـــيس مفوّفـــا

وحـــيٌ بأهجيـــةٍ إذ مـــا أطْلَقـــتْ هبطـــت رواســـب عنـــه والمعـــزى طفـــا

تُحـــي حرارتُهـــا ويهـــدي نورُهـــا متماهـــلَ الإشـــراق أو متخطفـــا

تـــالله مـــا أنـــت الخطيـــبُ وإنمـــا وقَـــفَ القضـــاءُ مـــن المنصـــة موقِفـــا

عـــن نطقـــه تقـــعُ الصـــروفُ مواعظًـــا وكـــأمره أمـــرُ الزمـــان مصـــرّفا

يـــا حبـــذا لـــو كـــلُّ ذلـــك لـــم يَـــزلْ لكنـــه حُلـــمٌ مضـــى مســـتطرفا

والآن نحـــن لـــدى ثـــراك نحجـــه متلهبـــين تشـــوقا وتشـــوفا

نثُنـــي وهـــل يـــوفى ثنـــاؤك حقـــه وبـــأي ألفـــاظ المحامـــد يُكتفـــى

مـــاذا يعيضـــك مـــن شـــبابك نظُمنـــا فيـــكَ الرثـــاءَ منســـقًا ومصـــففا

ويُعـــيض منـــك وكنـــت جـــوهرة الحمـــى صـــوغُ الكـــلام مرصَّـــعًا ومزخرفـــا

يـــا أخلـــص الخلصـــاء أبكـــي بُعـــدَه كبكـــاء مصـــر تحرَّقًـــا وتلهفـــا

هـــذا مثـــال لاح يرعانـــا وقـــد كشـــف الجـــوى عنـــه الحجـــاب فأشـــرفا

جـــاد الهـــلال برســـمه تاجًـــا لـــه وكســـتهُ ناســـجةُ الطهـــارة مطُرفـــا

كهـــواك للأوطـــان فلـــيكن الهـــوى لا مفتـــرى فيـــه ولا متكلفًـــا

يجـــري علـــى قـــدرَ المطالـــب ناميـــا ويجـــلُّ فـــي مجـــراه عـــن أن يصـــدفا

أنشـــأتَ مـــن مصـــر الشـــتات بفضـــله مصـــر الفتـــاةَ حمـــى يعُـــز ومألفـــا

أحـــدثت فيهـــا أمـــةَ أنـــدى يـــدًا للصـــالحات وبالعظـــائم أكلفـــا

عرَّفـــتَ أهليهـــا حقيقـــةَ قـــدرهم وكفـــاهُم مـــن قـــدرهم أن يُعرفَـــا

نفحـــاُ روحـــك خـــامرت أرواحهَـــم فهـــم مرامُـــك ســـاءَ دهـــرٌ أو صـــفا

حصـــنٌ أشـــمُّ تســـاندت أجـــزاؤه علْمًـــا وأمنًـــهُ النُّهـــى أن ينســـفا

فارقْـــد رُقـــادَك إن ربَّـــك قـــد محـــا بـك ذنـبَ مصـر كمـا رجـوتَ وقـد عفـا

obeikandl.com

# تمثال مصطفى كامل

اتجهت الأفكار منذ وفاة مصطفى كامل إلى إقامة تمثال له تقديرًا لجهاد مؤسسة الحركة الوطنية، وبدأ الكثيرون بالاكتتاب للتمثال قبل أن تتألف لجنة لإقامته، وقد قدرت الأمة على اختلاف أحزابها فضل الزعيم، فاتجهت الفكرة إلى جعل المشروع قوميًا لا يختص به حزب من الأحزاب، لأن مصطفى كامل، كان زعيم حركة قومية لا زعيم حزب فحسب.

فتألفت لجنة لإقامة تمثاله واجتمعت في ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ برآسة إسماعيل باشا صبري الشاعر الكبير، ومن أعضائها محمد بك فريد، والدكتور محمد علوي باشا، وحسن بك عبد الرازق (باشا) ومحمود بك أبو النصر، وعلى بك فهمي كامل، ومرقس حنا بك (باشا) والأستاذ ويصا واصف، وأحمد بك لطفي السيد (باشا)، ويسوف صديق بك (باشا) وإلياس بك عوض (باشا) وفؤاد بك سليم (باشا)، وعبد العزيز فهمي بك (باشا)، وعمر بكل سلطان (باشا) وأحمد بك عبد اللطيف المحامي الشهير، وأخذت في جميع الاكتتابات للتمثال.

وعهد فريد بك نيابة عن اللجنة إلى المسيو سافين المثال الفرنسي الشهير بباريس صنع التمثال من البرونز، فأتمه في إبريل سنة ١٩١٠، وعرضه في معرض الفنون الجميلة في باريس، فحاز الاستحسان العام، وهو يمثل الفقيد واقفًا يخطب مشيرًا بيده اليمنى ومرتكزًا باليسرى إلى تمثل لأبي الهول كأنه يوقظه، وعلى القاعدة صورة من البرونز تمثل مصر منصتة إلى الخطيب تشير بيدها اليمنى كأنها تطلب من العالم أن ينصت إليه مثلها، والصورة والتمثال آية في الفن والجمال.

ويبلغ ارتفاع التمثال دون قاعدته مترين وثمانين سنتيمترًا، ويبلغ مع القاعدة ستة أمتار وستين سنتيمترا، وقد بلغت تكاليف صنعه ونقله ٢١٢٠ (عشرين ومائة وألفي جنيه).

وجاء التمثال إلى القاهرة في يناير ١٩١٤، على عهد وزارة محمد سعيد باشا، وطلبت اللجنة من الحكومة تخصيص ميدان من الميادين العامة لإقامة التمثال، ولكن الحكومة صمّت آذانها عن تلبية نداء اللجنة، وظل التمثال سجينا في مدرسة مصطفى كامل مدة أربع وعشرين سنة، حتى اقتضت إرادة الله عز وجل وتحت ضغط جماهير الشعب الإفراج عن التمثال وإقامته في ميدان عام من ميادين العاصمة، فقرر مجلس الوزارة بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ إقامته في ميدان (سوارس) مع تغيير اسم الميدان وتسميته ميدان (مصطفى كامل).

obeikandl.com

**تمثال مصطفى كامل – بميدان مصطفى كامل**

# حفل إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

# (١٤ مايو ١٩٤٠)

وقد بنت الحكومة قاعدة التمثال في ميدان (مصطفى كامل) ونقشت على صدر القاعدة "مصطفى كامل باشا ١٨٧٤-١٩٠٨"، وعلى الجانب الأيمن منها هذه العبارة المأثورة من كلمات الزعيم "لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة" وعلى الجانب الأيسر منها قوله "إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان"، وعلى الجانب الخلفي هذه العبارة "اكتتبت الأمة بجميع طبقاتها في صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠ وفي سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة إقامته في هذا الميدان تميدًا للذكرى".

وأقامت الحكومة التمثال على هذه القاعدة، واحتفلت برفع الستار عنه، على عهد وزارة على ماهر باشا، يوم الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٤٠، وفي حفلة فخمة، ألقى على ماهر باشا رئيس الوزراء الخطبة الآتية:

" جئنا لنحي تمثال مصطفى، فلنقف هنيهة خاشعين أمام الذكرى.

"كلمات ذكر مصطفى، ظهر اسمه في هالة من المجد، وانتشر ذلك النور الساحر الذي يملأ النفوس رهبة وإجلالا٠

"في هذه الساعة يطب لنا أن نجتمع في ظل المبادئ التي أفنى نفسه وجسمه في سبيلها، وفي ظل الإخلاص الذي مات عليه فأحيا أمة ودفع شبابها إلى ميادين الكفاح والعلا.

"نجتمع أمام ذلك التمثال الذي يحرك النفس وهو صامت، لأن جلال التاريخ وجلال الذكرى في شخصه يلتقيان.

"كان مصطفى كامل أو من حم لواء الحرية بعد أن طوى زمانًا، وكان أول من صاح تلك الصيحة في طول البلاد وعرضها، صيحة التضحية، صيحة الحرية، صيحة الحب صيحة الحياة: "بلادي بلادي لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك حبي وجناني، أنت، أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر".

"نقرأ اليوم خطب مصطفى، فلا نرى فيها أثر البلاغة والتنميق، ذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم، ليست بحاجة على صلة أو سبب مادي لتصل إلى النفس وجوّها.

"ذلك أن حياة مصطفى قصيرة، لم تكن كحياة غيره من الزعماء والقادة، سلسلة أعمال توصف وتحلل، وإنما كانت هذه الحياة كلها، التي تعلو على كل حصر وتحليل، صوتًا يخيل إلى



obeikandi.com

سامعيه أنه يهبط من السماء صوتًا كصوت الماضي، رن في الوادي فانتبه، ولا تزال أصداؤه تتجاوب وتمتد بعد الموت.

"وقد كان مصطفى يجمع بين إقدام الشباب، واتزان الكهول في الفكر.

"وهذه المبادئ التي استمدها من وحي الوطن واتخذها شعارًا لجهاده قد دلت التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم التفكير.

"كان مصطفى مقدامًا، يخلق الحماسة ويتعهدها لأنه يعلم أن الحماسة في حياة الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن وأن الشعب إذا غابت عنه الحماسة غابت عنه الحياة، فكان يعمل ليله نهاره كاتبًا وخطيبًا على تغذية العاطفة الوطنية و إيقاظ الجماهير التي كان يجذبها بشخصه وإيمانه وشجاعته.

"كان مصطفى يحمل في قلبه صورة الوطن الحي أني سار أو أقام، فكان قلبه مقتدرًا على جمع القلوب، تخفق كلما خفق، وتشاطره حمل السراء والضراء وكان الشباب– شباب الوادي وعدته– جنوده المجندة تأتلف وتلتف حول لوائه، وكان هو قائدها وهاديها.

" كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة، وكان خير محام عن خير قضية، وان في دفاعه يهبّ لنصرة الحق والعدل، وكان جلدًا على الكفاح، لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمي السهم في مقاتله.

"وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى في سبيل مصر، في سبيل النيل ووادیه، في سبيل تلك القرى والمدائن الجاثمة في حضن الوادي، في سبل ذلك الأفق الضاحك وبين جنات النخيل والأعناب، بين هزج السواقي وأغاني الفلاح.

obeikandi.com

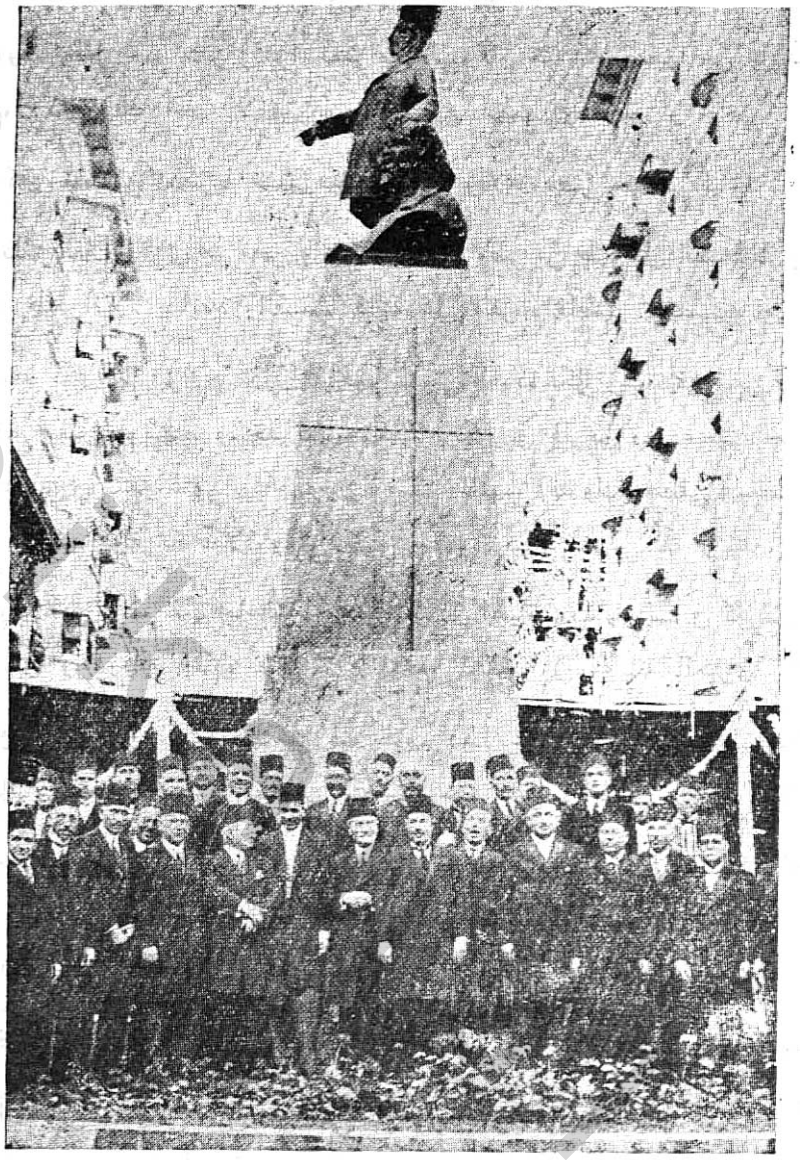

**على قاعدة تمثال مصطفى كامل**

**يوم إزاحة الستار عنه – ١٤ مايو سنة ١٩٤٠**

وترى في الصورة: الدكتور إسماعيل صدقي بك. عبد الرحمن الرافعي بك، محمود خيري باشا. محمود جلال بك. الأستاذ عبد المقصود متولي. الأستاذ حسن حسنى كامل. عبد الملك حمزة بك. أنطون الجميل بك(باشا). الأستاذ محمود العمري. الأستاذ حسن شافعي الجيزاوي. إسماعيل العسيلي. على على بسيوني– شعبان الكاتب. على فهمي خليل. حسين رمزي. الدكتور يحي الدرديري. الدكتور منصور القاضي. الدكتور نصر فريد بك. محمد على المهندس.. إلخ.

" وقد تغلغل حسب مصر في فؤاد مصر مصطفى، لأنه حبه كان صادرًا عن عاطفة وعقل وعلم، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع في مادة أو جاه.

" كان مصطفى مصريًا صميمًا يحب مصر وفلاّح مصر حافظ كيانها.

"ذلك الفلاّح الذي هو نحن وأنتم، الذي هو مصر من طيبة إلى الفسطاط والقاهرة والذي طبع البلاد بطابعه، وانضمت كتلته على الغزاة، فأفنت شخصيتهم في ثناياها.

" وقد كان المصريون في أدوار تاريخهم سلسي القيادة لكل زعيم يخرج من صفوفهم، ويعرف كيف يسوسهم، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز في قلوبهم وفي صميم إحساساتهم وعواطفهم، وفي شجاعتهم وإيمانهم، وفي أرضهم ولغتهم، وقد ولد مصطفى في مصر، وحك جلده بأرضها الغراء طفلاً، ونشأ حرًا، وعاش حرًا.

"وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ويخيل إلينا أن الحياة تدب وتتوثب في كل ذرة ساكنة منه، وأن وراء هذه المادة قوة خفية تدفع الشعب على غاياته الكبرى.

"في هذا اليوم الذي تتطاحن فيه الأمم ذودًا عن كرامتها، وتدعيمًا لشخصيتها وحرياتها، نقف أمام تمثال مصطفى متعاونين متساندين في سبيل إعلاء كلمة الحق.

"مات مصطفى، فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية في مختلف الطبقات، وأول دليل على أن في هذه الأمة قوة بل قوى حيوية كامنة، إذا وجدت من يحركها ويتعهدها، أتت بالمعجزات.

"فنذكر مصطفى، ولنلطف بتمثاله، ولنأخذ من موته معنى للحياة والحرية والأمل.

" أنه وإن لم تتحقق أماني مصطفى كلها إلى اليوم، فإننا لا نشك لحظة في أن هذه الأماني ستتحقق على أيديكم، فقد أعلن الاستقلال وستكمل بإذن الله دعائم هذا الاستقلال وتتوطد" وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق في شتى مواضعها، وعلى أثر إلقائها جُذب شريط متصل بالستار فانشق عن تمثال الزعيم العظيم، ودوى التصفيق في جنبات سرادق الاحتفال، فرددته الجماهير المحتشدة التي تجمعت خارج السرادق.

obeikandi.com

## مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب

## لمناسبة حفلة إزاحة الستار

## قصيدة خليل مطران

## تحية الشعر

أمنـــوا بموتـــك صـــولة الرّئبَـــالِ ... مـــاذا حشـــوا مـــن فَتْنَـــةِ التمثـــال؟

حبســـوه عـــن مُقَـــلٍ إليـــهِ مشـــوقَةٍ ... فاضـــت أسًـــى ودمـــوعهن غـــوال

حتـــى أرادت مصـــر غيـــرَ مُـــرَادهم ... وجـــلاء مـــن أوفـــى بنيهـــا جـــال

أتهيـــئ اســـتقلال قومـــك جاهـــدًا ... وتُـــذَادُ عـــنهم يـــوم الاســـتقلال

أنصـفْتَ بعـض الشـيء بـل هـي توبـة ... فـــي بـــدئها ولكـــل بـــدءٍ تـــال

فلقـــد تـــؤوب وَجَـــدُّ غيـــركَ عـــاثرٌ ... فـــيم ادعـــى صـــلفًا وجـــدكَ عـــال

يـــا حُسْـــنَ عـــودكَ والكنانـــة حـــرةٌ ... تلقـــاكَ بـــالإكرَام والإجـــلال

أيروعُـــكَ الحشـــد الـــذي بـــك يحتفـــي ... مـــن غـــرّ فتيـــان وصـــيد رجـــال

مـــاذا بثثـــت مـــن الحيـــاة جديـــدة ... فـــي هـــذه الآســـاد والأشـــبال

بَعْـــثٌ لموطنـــكَ العزيـــز رَجَوْتَـــهُ ... وســـواكَ يحســـبه رجـــاء مُحَـــال

خـــاطرت فيـــه بالشـــباب وبذلـــه ... سَـــرَفٌ لمطلـــوب بعيـــد منـــال

***



obeikandl.com

أي مصـــطفى وَلّـــتْ سُـــنُون ومـــا اشـــتقى  شـــــوقي إليـــكَ فهـــن جـــدّ طـــوال

عجـــب بقـــائي بعـــد أكـــرم رفقـــة  زالـــوا ولـــم يشـــأ القضـــاء زوالـــي

هـــم صـــفوة الـــدنيا وكـــانوا صـــفوها  فـــأحق حـــيّ بالأســـى أمثـــالي

حـــزن بعيـــد الغـــور فـــي قلبـــي فـــإن  وجـــب الرثـــاء فإنمـــا يُرْثـــى لـــي

مـــــاذا أقـــــول وهـــــذه أســـــماؤهم  وَشُخُوصـــــهم مـــــلْ الزَّمـــــان حيـــــالي

تعتـــادني فـــي مَسْـــمعي أو نَـــاظِري  وإلـــى يمينـــي تـــارة وشـــمالي

إنـــي لأحفـــظ عهـــدهم وأصـــونه  فـــي كـــلِّ حَادِثَـــةٍ ولَسْـــت بـــال

وكـــأن حِسِّـــي حســـهم فرحًـــا بمـــا  يقضـــي الْحِمَـــى مـــن حقهـــم ويُـــوَالي

كـــم فـــي مغارســـهم جنـــى ألفيتـــه  متجـــــددًا يتعاقـــــب الأحـــــوال

ســـلوَى أتاحتهـــا مـــآثرهم، وقـــد  يغـــدو الفـــرَاق بهـــا شـــبيه وِصَـــال

وكـــذاك مجـــد البقريـــة والفِـــدَى  لا ينقضـــــي بتحـــــوّل الأحـــــوال

***

أي مصـــطفى مـــا كنـــت كـــاملاً  لـــو كـــان يُتَّصـــفُ امـــرؤٌ بكمـــال

مـــاذا لقيـــت مـــن الصِّـــباَ ونعيمـــه  غيـــر المكـــاره فيـــه والأهـــوال

إنـــي شـــهدت شـــهادة العنـــين مـــا  عانيـــت فـــي الغَـــدَوَات والآصـــال

متطوعًـــا تَسْـــخُو بمـــا يُفْنـــي القـــوى  مـــن جهـــد أيـــام وسُـــهْد ليـــالي

إذ قمـــتَ بـــالأمر الجســـام ولـــم يكـــن  فـــيمن أهَبْـــتَ بهـــم مجيـــبُ ســـؤال

حـــال التـــورع دون إراء المنـــى  زمنـــا نمـــا مـــن مســـعد ومـــوال

والقـــوم فـــي ظمـــأ ووعـــدك مطمـــع  لكـــــن يـــــرون لـــــه رفيـــق الآل

تســـعى ويعتـــرض الســـبيل قنـــوطهم  فـــي كـــل حـــل منـــك أو ترحـــال

فتظـــل تضـــرب فـــي جوانبـــه ومـــا  تلقـــى إلـــى نظـــر الحبـــوط ببـــال

لـــك دون مـــا تبغـــي مضـــاء مصـــمم  لا ينثنـــي، وبـــلاء غيـــر مبـــال

حتـــى إذا وضـــح اليقـــين وصـــدقت  دعـــواك آيـــة ربـــك المتعـــالي

فثويـــت أظهـــر مـــا تكـــون علـــى يـــدي  مصـــر بعقبـــى دائـــك المغتـــال

***

هـــزت منيتـــك الـــبلاد ولـــم تكـــن  بأشـــد منهـــا هـــزة الزلـــزال

فـــالقومُ مـــن جـــزع عليـــك كـــأنهم  آلٌ وقـــد رُزِئـــوا عزيـــز الآل

كشـــف الأســـى لهـــم الحجـــاب فـــأيقنوا  أن الحيـــاة مطالـــب ومعـــال

وتبينـــوا أن الخنـــوع مهانـــة  لا يْسَـــتطَالُ بهـــا مَـــدَى الآجـــال

لله حســـن بلائهـــم لمـــا أبـــوا  متضـــافرين دوام تلـــك الحـــال

وتوثبـــوا بعزيمـــة مصـــدوقة  برئـــت مـــن الأحقـــاد والأوجـــال

يـــردون حوضـــا والمنايـــا دونـــه  مستبســـلين ضـــروب الاستبســـال

حتـــى أتـــيح الفـــتح يجلـــو حســـنه  فـــي يومـــه إحســـان يـــوم خـــال

فـــتح بـــدا اســـمك وهـــو فـــي عنوانـــه  متخضـــبا بـــدم الشـــاب الغـــالي

أيهـــا شـــهيد الحـــب للبلـــد الـــذي  لا أنـــت ســـاليه ولا هـــو ســـال

أبهـــج بأوبتـــك الســـنية طالعـــا  فـــي افقـــه كالكوكـــب المتلالـــي

الـــذكر آفـــاق ســـحيقات المـــدى  ولزهرهـــا المتألقـــات مجـــال



obeikandi.com

فـــإذا دنـــت منـــا فتلـــك عـــوالم وإذا نـــأت عنـــا فتلـــك لآلـــي

تطـــوى مـــن الأدهـــار مـــا لا ينقضـــي وتجـــول فـــي الأفكـــار كـــل مجـــالٍ

أبـــوار وجهـــك طالعتنـــا اليـــوم مـــن بـــرج حللـــت بـــه لغيـــر زبـــال

قـــد أثبتتهـــا مصـــر بـــين عيونهـــا فالحـــال متصـــل بالاســـتقبال

نهـــم الثـــواب لـــذي مـــآثر فـــي الفـــدى فرضـــت محبتـــه علـــى الأجيـــال

***

فتيـــان مصـــر وعهـــدها غيـــر الـــذي عانتـــه فـــي الأصـــفاد والأغـــلال

حيـــوا مـــديل حياتهـــا مـــن بأســـها ومـــذلل الآلام للآمـــال

حيـــوا زعـــيم اليقظـــة الأولـــى بهـــا وخطيـــب ثورتهـــا فـــي الاســـتهلال

هـــدى مواكبهـــا وتلـــك وفودهـــا فـــي ملتقـــى ذي روعـــة وجمـــال

حفلـــت برمـــز نهوضـــها ومثالـــه مـــا لا تـــداني صـــنعه المثـــال

لكنهـــا مهـــج بنتـــه ولـــم تكـــن إلا ذرائعهـــا فضـــول المـــال

وكَفَـــاهُ فخـــرا أن ذاك المـــال لـــم يـــك مكُـــسُ جَـــابٍ أو تطـــوّل وال

رســـم يَلُـــوحُ وفيـــه مهنـــى أصـــله فيـــروع بـــين حقيقـــة وخيـــال

لاَنَ الحديـــد لـــه فصـــاغ لعينـــه أثـــرًا علـــى الأيـــام لـــيس بِبَـــال

كـــم فـــي بليـــغ سُـــكُوته مـــن عبـــرة أو فـــي وأكفـــى مـــن فصـــيح مقـــال



obeikandi.com

هـــو خالـــدٌ ويظـــل مـــدره قومـــه فـــي كـــل نازلـــة وكـــل نضـــال

عطـــف المليـــك وقـــد أمـــاط حجابـــه رفـــع المقـــام إلـــى مقـــام جـــلال

أعلـــى الملـــك مكانـــةَ أرعـــاهم لمكانـــة العلمـــاء والأبطـــال

obeikandl.com

# كلمة الأستاذ محمود العمري

## رسالة مصطفى كامل

اليوم، إذ يحتفل المصريون برفع الستار عن تمثال مصطفى كامل، إنما يحتفلون بصفحة من أمجد صفحات تاريخ مصر الحديث.

اليوم يسجل المصريون صفحة مصطفى في تاريخهم الرسمي بعد موته بما يقرب من ثلث قرن، وهي مرحلة من الزمن، إذا أصدر الشعب حكمه، كان صادقًا غير متأثر بدعوة من الدعوات، وإذا حكم التاريخ بعدها لإنسان فإنما يكون ذلك لأنه صعد بعقيدته إلى مستوى الحقائق الأبدية التي لا يحدها زمان ولا مكان.

ولو كان مصطفى كامل رجلاً كسائر الرجال لنسيناه كما ينسى المرء أعزاءه، ولو كان رجل جيل معين أو مرحلة معينة لعصفت به رياح الزمن، ولكنه رجل أمة، والأمة وحدة تاريخية تشمل الأمس واليوم والمستقبل الذي لا نهاية له، بل هو رجل جمع الأمم، إذ لا يصح في إحداها ما لا يصح في غيرها من شبيهاتها ما دامت جديرة بأن تسمى امة.

وكيف يسمع المصري قول "سمجلي ريدز" قبيل الحرب مخاطبًا: " إذا كان عليك واجب نحو وطنك فلتعلم أن علىّ أيضًا واجبًا نحو وطني"، ثم لا يشعر وكأنه يسمع قول مصطفى كامل إذ يقول:" إن كان أنصار التوسع في سلطة انجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟".

ثم كيف يشاهد بطولة الفنلندي والبولندي ووطنيتهما ولا يشعر بالفخار لقول مصطفى كامل في "اللواء" سنة ١٩٠٤ حاثًا على حب الوطن:" انظر تجد البولندي وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجدّ ويعمل مفكرًا كل يوم بل كل لحظة في بولندا، يذكر تاريخها ويبكي أيامها الخالية، ويربي ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندي وقد لبس ثوب الحداد هو وبقية ذويه يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة".

لم يجد مصطفى كامل مبلغ حب الوطن بمقدار ما في الإمكان عمله في خدمته إذ أن الوطن صورة روحية، ولا سبيل للقوى المادية على النيل من الوطنية الصحيحة، فإذا عجزت الأمة الرشيدة عن الوصول إلى حقها لم تقل عن المرحلة التي لا تتخطاها جهودها في وقت معين أنها محط آمالها وغاية الوطنية، على حد قول القائل" إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون".

obeikandl.com

ولم يقف بحق بلاه عندما يمليه عليه إدراك معاصر به، بل عمل على رفع مستوى هذا الإدراك إلى مستوى رسالته، وكان مؤمنًا بمنطق الوطنية الذي يجعل حق الوطن كحق الفرد لا ينتهي إلا عندما يكون فيه حد لحقوق وطن آخر.

نشرت "النيويورك هرالد" للمسيو سيمون في سنة ١٨٩٧ مقالاً عن مصطفى كامل جاء فيه: "إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على الحياة والمال والولد، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟"

وقد علقت الجريدة على هذه الرسالة بكلمة جاء فيها: " ومن عرف أن مصطفى كامل ليس بغني كبير ولا وزير حكومة ذات سلطا، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهيئهم التاريخ من حين إلى حين، إلى الأمم المضطهدة ليهدوها طريق السداد، وإنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر الساسة لا يستحقون ما يبتغونه فإننا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذي حادثه مراسلنا في الأستانة في العام الماضي، لا يقل علمًا عن أعظم سياسي في أمريكا وأوروبا، ولكن لسوء حظ مصر أنه جاء في الزمن الذي بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغًا عظيمًا.

لقد تصدى مصطفى كامل لما لم يتصد له الذين وقفوا موقفه من الأمم الأخرى، إذ كان عليه أن يدعو إلى تشييد كل شيء في صرح الوطنية، لذا كانت دعوته شاملة قام فيها بكل مقومات الحركات الوطنية مما يضطلع به في تلك الأمم رجال عديدون في مختلف نواحي نهضتها، فبعضهم ينهض بالتعليم الوطني، وبعضهم الآخر ينهض بالأدب الوطني وفريق ينهض بالفنون، وآخرون ينهضون بالإصلاح الديني أو الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، ثم تلتقي هذه الجهود جميعها عند غاية واحدة هي النهضة الوطنية العامة.

نعم كان على مصطفى كامل أن يقوم بما تقوم به أجيال في مختلف النواحي، فهو شاعر مصر الوطني، يتغنى بجمال منظرها واعتدال جوها، ويزداد هيامه بها كلما اشتد عليها المحن، وكأنه قرأ ما قاله الشاعر الانجليزي العظيم: "أحبك يا انجلترا على كل ما فيك من عيوب" فكان يقول:" هل الوطنية فضيلة هناك ورذيلة هنا؟ هل انجلترا أحق بحب بنيها من مصر".

وهو المشبه لمصر بالأم المريضة وحولها أبناؤها تقول لهم: ألا فأسعفوني، وبالدار شبّت فيها النيران تنادي بلسان الحال أربابها أن اتحدوا في إطفاء اللهب.

وهو مربيها الوطني بلسانه وقلمه، وبالدعوة إلى توجيه التعليم إلى المثال العليا التي لا يكون بدونها تعليما؟ وإلى إنشاء الجامعة والحث على الإكثار من المدارس لتعليم الشعب، قائلاً: "إن بين أبناء الفقراء الذي سدّ الاحتلال في وجوههم أبواب العلم والنور، رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخر مصر إلى ابد الزمان، وليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن في مصر كنوز لم

تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نورا، وأن هذه الكنوز مدفونة في بيوت الفقراء"، وهو مؤرخ مصر الوطني يذكر أبناءها كل آن بمجدها السالف وبتراث الآباء والأجداد.

وقد حصل مصطفى كامل على نصب وافر من الثقافة الغربية، أتاح وهو شاب أن يخطب ساعات باللغة الفرنسية ويكتب الافتتاحيات في أمهات صحف فرنسا، فلم يدفع به إلمامه بمدنية الغرب إلى حب الفناء في دولة من دوله. بل كان مما قاله: "لا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطني في البلاد على اختلافها، فأهل تلك البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبا شديدًا، ويستقبل الفرد منهم الموت في سبيل خدمة بلاده راضيا مسرورًا"، وهكذا لم يقل في قرارة نفسه: هذه بلاد عظيمة فيجب أن أكون عبدا لها، بل قال بلسان الحال والمقال: هذه بلاد عظيمة فلأ بلغن بوطني ما بلغت من رفعة وعلو شأن.

ولهذا كان أكبر المناضلين عن الإسلام بقوة بيانه، وكان فخورا بمصريته وبأنه "ابن ضابط شهم من أبناء الفلاحين"، ومما قاله في اعتزازه بقومه: "يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستبعد كالشعب المصري مما لا يليق، بإنسان، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء أمة سبقت كافة الأمم؟"، وقال أيضًا إن الوطنية تظهر فيما يعانيه الوطن من الشدائد لا في الرخاء.

كان مصطفى كامل يملك نفسه في مواقف الشدة. فأقام على من يتهمونه بالتطرف أقوى الحجج، على أن هذا التطرف لم يكن إلا التمسك بحقوق الوطن وأنهم لم يقصدوا بكلمة الاعتدال إلا التساهل في هذه الحقوق.

كان يهيب بالقوم إلى خدمة بلادهم خدمة إيجابية ويبث فيهم أنه لا يكفي في شرعة الوطنية أن لا يؤذي الإنسان وطنه، بل إن المرء لا يكون بريئا من ذنب تأخر بلاده إلا إذا عمل على رفعتها، وأن كل مصري مسئول عن مصر، وأنه لا يليق بأي إنسان أن يقول إن هذا النصح صحيح ولكنه موجه إلى غيري، إذ الوطن موجود في ضمير كل شخص.

قال ردا على بعض من خشوا ألا تكون رسالته قد نفذت على قلوبهم لأنها رسالة عقيدة: "يقول البعض إن المناداة بالوطنية كلام في كلام، ونسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس، لأن العقيدة تحركا الجبال، ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها، والتاريخ وأحكامه، والعوامل الفعال في الشعوب كلها".

ولقد أصبحنا اليوم نذكر بذكر مصطفى كامل جميع الحقائق التي لمسناها في شئوننا، فإذا نظرنا في أحوالنا الاقتصادية، رأينا المصلحة الوطنية ماثلة أمام أعيننا، وإذا تصدينا لشئون التعليم وجدناها لا تستقيم في غير الوضع الوطني، وإن الفرد، إذا أراد في أية ناحية في نواحي الحياة، أن يرفع من شأن نفسه لم يجد لذلك سبيلاً إلا برفع شأن الوطن.

**محمود العمري**

## قصيدة أحمد محرم

## هذا الذي شرع الجهاد لقومه

هتف البشير به، وحان الحينُ ... فأضاء وجه، واستنار جبينُ

وبدت مواكبه حسانا طلقة ... فشدا اللهيب، وغرّد المحزن

ويجي، أأنت انشق قبرك فانقضى ... عبث الخطوب، ورأيها المأفون

إنْ غِبْتَ عن نظر العيون هنيهة ... فقلوبنا الجرَّي عليكَ عيون

ماذا تظنُّ بكَ البلاد وأهلها ... تلكَ القيامة، لو يكون يقين

مَنْ أطقَ الأفكار من أوهامها ... أيظلُّ طول الدهر وهو سجين

أوَلَمْ يقولوا: نَكْبَة نزلت بنا ... هيهات يكشفها فتى مفتون

ألهُ جُنودٌ حوله محشودَةٌ ... وبَوَارجٌ مبثوثةٌ وسُفين

***



obeikandl.com

هـــذا الـــذي بعـــثَ الشـــعور، وبَثَّـــةُ مـــلْء "الكنانـــة" والشـــعُورُ دفـــين

نَـــادَى: بـــلادي، فاســـتجابت أمـــة ليســـت بغيـــر هَـــوَى الـــبلاد تَـــدينُ

تبغـــي الحيـــاة عزيـــزة، ويغيظُهَـــا أن يُسْـــتَبَاحَ مـــن الليُـــوثِ عَـــرين

أبَـــتِ القعُـــود مـــع الخَوَالـــف بعـــدما أخَـــذَ "اللـــوَاء" القائـــدُ المـــأمون

ومضـــى، يـــذود اليـــأس عـــن آمالهـــا ويُعَلِّـــم الأحـــداثَ كيـــفَ تلـــين

هـــذا الـــذي شَـــرَعَ الجهـــاد لقَومْـــه فَهَـــدَى الكتائـــب نَهْجـــه المســـنُون

إن المضـــلل فـــي الحيـــاة لَمَـــنْ يَـــرَى أن الحيـــاة وســـاوسٌ وظُنُـــون"

هـــي مـــا رأيـــت، فكـــلُّ شـــيء دونهـــا إن كنـــت تكـــره أن تُضَـــامَ يَهَـــوُن

***

إنـــا وفينـــا للـــبلاد، فلـــم نحـــن والـــدهر يَظْلُـــم والخُطْـــوب تخُـــون

نســـخو بأنفســـنا، نريـــد حياتهـــا إن صَـــدَّ هيـــأَبٌ، وكيـــفَ ضـــنين

obeikandl.com

# جوائز مصطفى كامل

## ١ – المباراة الأدبية

لمناسبة حفلة إزاحة الستار عن تمثال (مصطفى كامل) تبرع الوطني الكريم الأستاذ محمد محمود جلال بمبلغ خمسين جنيها تعطى مكافأة لمن يحوزون قصب السبق في مباراة أدبية موضوعها (جهود مصطفى كامل في نواحي النشاط الإنشائي القومي وبخاصة في التعليم والاقتصاد والاجتماع، وعلاقة ذلك بدعوته الوطنية) وكانت شروط المباراة:

١ – أن يكون المشترك فيها شابا مصريا لا تزيد سنة عن ثلاثين سنة.

٢ – أن لا تزيد الكتابة في موضوع المباراة عن عشر صحائف من القطع الكبير.

٣ – أن تقدم المواضيع إلى لجنة المباراة التي ألفت من: أنطون الجميل بك.

عبد الرحمن الرافعي بك. فكري أباظة بك. الأستاذ محمود العمري في مدة ثلاث أشهر من تاريخ الإعلان عن المباراة. وقد وزعت الجوائز في حفلة فخمة أقيمت يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٤١، وهو يم الذكرى الثالثة والثلاثين لوفاة الزعيم، وفاز في المباراة كل من الأستاذ نجيب تاوفيلس الموظف بمصلحة السكك الحديدية. على منصور الطالب بكلية الحقوق. الأستاذ لبيب السعيد الموظف بتفتيش مراقبة القطن بالدقهلية. الأديب محمد الخالد ببني مزار.

## ٢ – جائزة كلية الحقوق

وتبرع حفظه اله بجائزة أخرى (سنوية) قيمتها عشرة جنيها سميت (جائزة مصطفى كامل) تمنح كل عام لأول ناجحي الليسانس في الدور الأول لكلية الحقوق وهي الكلية التي بدأ بها الفقيد دراسته العليا، وأرسل إلى عميد الكلية خطابا بذلك وأرفق به صورة الاعتماد الذي خصصه ببنك مصر عن قيمة الجائزة، وبموجبه يصرف المبلغ في شهر مايو عن كل عام، فورد غليه خطاب رقيق من حضرة العميد مع قبول هذه الجائزة الكريمة.

## ٣ – جائزة كلية تولوز

وتبرع أيضًا بمبلغ ألفي فرنك لأول الفائزين في سنة ١٩٤٠ بكلية الحقوق بتولوز، وهي الكلية التي أتم فيها الفقيد دراسته ونال منها شهادة الليسانس سنة ١٨٩٤، وكتب بذلك خطابا إلى وزير فرنسا المفوض في مصر وأرفق به قيمة الجائزة فتلقى خطابا من الوزير المفوض قبول الجائزة وشكره على هذه المبرة.



obeikandl.com

## كلمة الأستاذ محمد محمود جلال في حفلة المباراة

وإنا ناشرون هنا كلمة الأستاذ محمد محمود جلال التي ألقاها في حلة المباراة الأدبية قال:

سادتي الأجلاء: أيها المتسابقون النجباء.

حفظنا عن أستاذنا وزعيم الوطنية مصطفى كامل "أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الروح الوطنية إذا تمكنت من كل مصري فتحت المدارس العلمية وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في كل جهة وناحية، وأتحدث الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها في المال والعلم والوطنية والوئام".

وإذا استجبنا بتوفيق الله على هذه الدعوة وهديت لها قلوبنا، وصبغت عليها أرواحنا، فإنما إليها يرد الإطراء الذي شرفني به زملائي وأصدقائي، لأن ما فكرت فيه وما قمت به نتيجة لاستيعاب هذه التعاليم التي مكنتها تضحيات فريد وأخلاق فريد، فرحمة الله في كل مناسبة على البطل الخالد الذكر "مصطفى كامل".

لقد استخرت الله قاصدًا من هذه المباراة إلى تسابق الشباب من هذا الجيل إلى كدح أذهانهم وتوجيه أبحاثهم في سبيل المثل العليا واضحة الصورة في مصطفى كامل وهي الوطنية الشاملة التي طبع الله عليها روحه.

جاءت هذه الكلمات على لسان مصطفى كامل لآخر عهد بخطاب جامع، فكانت وصية لها قيمتها وخلودها. كشف لنا كيف كانت الوطنية التي دعا لها وطنية عامة شاملة غير مقصورة على ما يسمى بالنشاط السياسي، ولو قصرت عليه لكانت سطحية غير منتجة، ولكان تحديد الدعوة به تضييقًا على الطبيعة ومجافاة لحقائق الوطنية وتضييعها بثمراتها.

أذكر لأحد كبار كتاب الغرب قوله: إن ما في الإنسان من قوة ليس ناتجًا عن اليد وحدها، وإنما هو فعل قوة البنية جميعًا ممثلة في اليد، فإذا استعطت أن تحمل ثقلا عظيمًا في يدك فإنما تتأتي لك القوة لأن القلب يقوم بوظيفته والمعدة تؤدي عملها وكذا سائر أعضاء بدنك تتآزر في سبيل القوة التي كانت يدك مظهرها وأداة تنفيذها.

من أجل ذلك تطرقت الوطنية الممثلة في مصطفى كامل إلى ميادين العلم والتاريخ والاقتصاد وأوضاع المجتمع تحييها وتقومها على الغزار الوطني، ترأب أصداع القائم منها، وتقديم الجديد على الأساس القويم، محافظة عليها مما تتنوع به محاولات الخصم في هذه الميادين، فينشئ بالتعليم جيلاً يسيغ حكمه وبتزييف التاريخ يهدم من ثقة الشعب بنفسه ويهون عليه الوضع المراد كما يوغل في شئون الاقتصاد يوطئها لغير المصلحة الوطنية ويوجهها إلى

نفعه بحيث تعد في الإنتاج والاستيراد مرتبطة به بفعل الزمن من حيث لا تدري، ثم يعمد إلى مصطلحات الاجتماع يهبط كاهلها بتقاليد جديدة منحرفة وإذاعات وصياغات جديدة تجر بضعاف النفوس إلى ناحيته، وبكل هذه الوسائل مجتمعة يصل إلى خلق الوهم في الشعب، ثم إلى أن يكون أداة السيطرة عليه، حتى إذا رجع القوم إلى حال اطمأنوا إليها زمنًا ظنوا في حضانتها أنهم غير جديرين بغيرها وظنها البعض منهم نعمة وطويت الثقة بالنفس.

ولنستمع هنا مرة أخرى لوصية (مصطفى كامل) في هذه النتيجة التي كانت أخشى ما خشي على بلاده: إن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق البلاد".

فمصطفى كامل حريص لدعوته ولنجاحها على المثل الأعلى للفرد ولشعب وادي النيل، وهو لذلك يضفي على كل ناحية من مسالك الدعوة ما ينفي عنها الأشواك الغربية والهنات التي تسيء إلى المستوى المرتقب لأمته فالاستقلال عنده إذن غاية تكرس لها الجهود ويعني بها الفكر وتثمر الظروف بقدر ما هو وسيلة لابد منها لنهوض بالنواحي المختلفة وتمكين الأمة على الأسس الصحيحة من كل مرافق الحياة على الوضع الذي يلائمها هي دون تعلق بغيرها. على أن مصطفى لم يعلق بمطالبته بالاستقلال على بلوغ الغاية في تلك النواحي كما هو الحال في الأمم المستقلة، لأنه لا يرتب الحق الطبيعي في الحرية على مستوى معين تكون الأمة ملزمة بإثباته أمام الغير متى كان ذلك الغير هو المتحكم في وسائل نهوضها، وإن لجهاد مصطفى في جميع هذه النواحي معنى لا يسمو عليه أي معنى من المعاني التي يعيش الأبطال لتحقيقها وتمثيلها، إذ كان دليلا على فنائه في المثل الأعلى فناء تاما مع تشعب جهوده في جميع نواحي الوطنية على ترامي أطرافها ونفوذ إشعاعها جيلاً بعد جيل أقول إن هذا المعنى المتجلي في ذلك الرجل أو ذلك المثل الأعلى الممثل في رحيل دليل على أنه لم يعش عيشة الرجال المحدودة بأشخاصهم وأعمارهم.

سادتي: ترون اليوم بينكم هذا الرهط الكريم من الشباب الذي تنبأ به مصطفى كامل وعلم له، يكد ويتعب ليضع يده على كنوز الفقيد في جهاده المدخر لأمته وينفقون من وقتهم منبئين في نواحي البلاد في زمن عز فيه الميل إلى البحث، ألا إن المرء إذا عظمت قوة روحه فترامت نواحيها وانبعثت أضواؤها في المدى، تناولت جميع الأرجاء وامتدت في الزمان فشملت آثارها ومراميها مستقبل الأيام.

إن رجلا كهذا ليس برجل عادي ولكنه تيار من تيارات التاريخ، وقوة من قوى البشرية الخالدة. هذا هو مصطفى كامل الذي نحتفل اليوم بذكراه.

# ضريح مصطفى وفريد

أقيم ضريح مصطفى كامل القديم في المدفن الذي شيده الزعيم لوالدته بشارع المغافر بمدافن الإمام الشافعي، وقد شيعها إلى مرقدها الأخير سنة ١٩٠٧، وفدن على جوارها سنة ١٩٠٨، ومن يومئذ لم تعمل يد في إصلاح هذا المدفن أو تجديده، حتى أخذ التصدع يظهر في سقفه وجدرانه سنة ١٩٣٩. وصار يخشى على الضريح الطاهر أن يستهدف للأمطار والأعراض الجوية في شتاء ذلك العام، ففكرت مع لفيف من إخواني في تدارك هذا التصدع، وألّفنا في أواخر سنة ١٩٣٩ لجنة لإصلاح الضريح، وتم لها جمع مبلغ يسر اكتتب به بعض تلاميذ الفقيد وأنصاره والمعجبين به، فرممنا ضريحه ترميما جزئيا، ولم يعد مع ذلك في حالة تليق بمكانة الزعيم، فاقترحت في مجلس الشيوخ بجلسة ١٠ مايو سنة ١٩٤٤ لمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال اعتماد مبلغ خمسين ألف جنيه لتشييد مدفن جديد يضم رفات الزعيم، وقلتُ في هذا الصدد ما يأتي (نقلا عن مضبطة الجلسة): "أرجو أن تسمحوا لي من وقتكم بخمس دقائق لعرض اقتراحا بمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال العمومية، وأريد أن أشرح هذا الاقتراح أولاً كي أمهد الطريق على عرضه.

وضعت الحكمة سنّة حميدة في السنوات الأخيرة وهي تخليد ذكرى عظماء الرجال، ولذلك أقرت فيما يتعلق بتخليد ذكرى المغفور له سعد زغلول باشا بعدة مشروعات منها تشييد ضريح له وإقامة تمثالين أحدهما بالقاهرة والآخر بالإسكندرية وأنفقت الحكومة على توالي السنين مبالغ كبيرة لتخليد ذكراه وعلى ما أذكر أن الضريح قد تكلف لغاية الآن حوالي ٢٠٠،٠٠٠ ج، وهذا بالطبع تنفيذًا للسنة الحميدة التي اتبعتها الحكومة، وأمس فقط عرضت علينا مشروع قانون بفتح اعتماد إضافي بمبلغ ٢٧٠٠٠ ج في ميزانية هذا العام شراء منزل المغفور له سعد باشا في مصر "بيت الأمة" والمنزل الذي ولد فيه الفقيد بإبيانه وضمهما للمنافع العامة، كل هذا عمل حميد تشكر عليه الحكومة، وهذا ما شجعني على أن أتقدم لحضراتكم باقتراح تخصيص مبلغ ٥٠٠٠٠ ج في ميزانية وزارة الأشغال لتشييد ضريح للمغفور له مصطفى كامل باشا، لأنه ضريحه لا يزال على حالته كما بناه لوالدته سنة ١٩٠٧ إذ توفيت في السنة المذكورة، فبنى هذا الضريح لها، ثم عاجلته المنية في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فدفن إلى جوار والدته في القبر الذي بناه لها، ومن يومئذ لم تفكر حكومة من الحكومات المتعاقبة في أن تشيد الضريح الذي يليق بالزعيم الأول الذي بعث الحركة الوطنية من مرقدها، ولعل القدر قد باعد بين الحكومات المتعاقبة وبين القيام بهذا الواجب، فإتباعا للسنة التي جرت عليها الحكومة في تخليد ذكرى سعد أتقدم باقتراح إضافة مبلغ ٥٠٠٠٠ ج في ميزانية وزارة الأشغال لتقيم ضريحا للمغفور له مصطفى كامل، وذلك أن تقدير عظماء الرجال هو فعلا واجب محتم ومقدس ولكن أجمل من هذا الواجب أن يكون تقدير



obeikandl.com

هؤلاء العظماء عاما وشاملاً، أساسه العدل والإنصاف. فإذا كانت الحكومة قد أدت واجبها نحو سعد زغلول فأرجو أن تؤدي واجبها نحو مصطفى كامل، إن ضريح مصطفى كامل يا حضرات الزملاء الأعزاء قد آل على حالة لا تتفق ومكانة الزعيم الأول للحركة الوطنية ولا تتفق مع حسن تقدير البلاد لعظمائها الراحلين، وأرجو إذا كان من يريد أن يستوثق من هذا الحال أن يتفضل بزيارة هذا الضريح، ولعل الوقت قد آن لكي تعمل الحكومة عملا ولنعمل نحن أيضًا عملاً يمكن أن نسد به هذا النقص الكبير، ولا أيد أن أطيل في التدليل والبيان في هذا المقام، ولكني أستسمح حضراتكم في أن أتلو على مسامعكم كلمتين للمغفور له سعد زغلول في تقدير المغفور له مصطفى كامل.

"رئيس المجلس (على ذكي العرابي باشا) – لا ينازع أحد في ذلك.

" عبد الرحمن الرافعي بك– قال سعد زغلول رحمه الله في خطبته بالسرادق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣:

" لست خالف هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة الملكية محمد علي، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فل غزير فيها وكذلك المرحوم فريد بك"

وقال في خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ إبريل سنة ١٩٢١:

" إني أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال، وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمن طويل خصوصا من يوم أن ظهر مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء أسسوا وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة".

"فواجب تقدير الزعماء يا حضرات الزملاء الأعزاء يقتضينا أن نقدرهم جميعا، وأن يكون تقديرنا مبناه العدل والإنصاف، فإذا كانت قد مضت هذه السنوات الطويلة ولم تفكر حكومة من الحكومات في إصلاح هذا الضريح أو تشييده أو تعميره فأظن أن الوقت الحالي هو أنسب الأوقات لكي نتلافى ما فات الحكومات السابقة. لذلك أتقدم بهذا الاقتراح، وأرجو من حضراتكم الموافقة عليه.

وزير الأشغال العمومية (عثمان محرم باشا) – يسرني أن أقرر لحضرة الشيخ المحترم عبد الرحمن الرافعي بك أنني أول من يحترم ذكرى المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد كانت تجمعني به صلات شخصية وأقرر أن حكومة الوفد تسير على ساسة المغفور له سعد زغلول باشا تعرف فضل مصطفى كامل باشا، وأقول إنه لا داعي لإضافة المبلغ الذي يطلبه حضرة

الشيخ المحترم عبد الرحمن الرافعي بك لتشييد ضريح المغفور له مصطفى كامل باشا إلى ميزانية وزارة الأشغال لأن في الميزانية الحالية مبالغ تسمح بتنفيذ ما يطلبه حضرة الشيخ المحترم، وأعد لحضرته بتنفيذ اقتراحه من ميزانية السنة الحالية فورا (تصفيق عام).

وقد وضعت الحكومة من يومئذ تصميم المدن الجديد، وأقيم في ميدان صلاح الدين بجوار القلعة، وتم تشييده في أواخر سنة ١٩٤٩ (أنظر صورته ص ٣١٩) أما ضريح محمد فريد القديم فهو في مدفن العائلة بجوار مقام السيدة نفيسة رضي الله عنها، وقد أقيم القبر على عجل، وبقي طوال السنين عرضة للعراء والأمطار في حالة لا تتفق ومنزلة الزعيم الشهيد الذي ضحى في سبيل مصر بماله وصحته ونفسه وحياته، وقد اقترحتُ أن ينقل على جوار مصطفى كامل فقرر مجلس الوزراء في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩ نقل رفات المرحوم محمد بك فريد على جوار مصطفى كامل بالمدفن الجديد، وهكذا يتاح للزعيمين العظيمين والصديقين الوفيين أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبر واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفا وأربعين سنة، وأصبح الضريح الجديد "ضريح مصطفى وفريد"[١].

## الاحتفال بنقل رفات مصطفى كامل

## إلى الضريح الجديد

## (١٠ فبراير سنة ١٩٥٣)

وقررت حكومة الثورة (ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢) تقديرًا للزعيم مصطفى كامل الاحتفال بنقل رفاته من مدفنه الأول بحي الإمام الشافعي إلى ضريحه الجديد، وحددت لهذا الاحتفال يوم ١١ فبراير سنة ١٩٥٣.

و١١ فبراير هو يوم ذكرى تشييع جنازة الزعيم لأول مرة سنة ١٩٠٨، ففي مساء ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ نقل رفاته من مدفنه على دار اللواء بشارع الدواوين (مدرسة مصطفى كامل الأميرية الآن) ووضع الجثمان الطاهر في الغرفة التي لقي فيها ربه.

وفي عصر اليوم التالي – ١١ فبراير سنة ١٩٥٣– شيعت الأمة جنازة الزعيم للمرة الثانية من دار اللواء على مدفنه الجديد في احتفال مهيب اشتركت فيه الحكومة والشعب، وكان يوما

---

(١) ضم الضريح رفات المؤلف "عبد الرحمن الرافعي" حيث دفن جثمانه به يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ غداة يوم وفاته.



obeikandl.com

مشهودًا، فقد مضت خمس وأربعون سنة على انتقاله إلى الرفيق الأعلى حتى سنة ١٩٥٣، لقد تعاقبت السنون والأيام على وفاته وزادت مبادئه رسوخًا، وذكراه خلودًا، وكذلك شأن المبادئ الصالحة والأفكار السامية التي تنهض بالأمم والإنسانية تزداد على مر الزمان ذيوعًا وثباتًا واستقرارًا.

## الاحتفال بنقل رفات محمد فريد

## إلى جوار مصطفى كامل

## (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣)

وقررت حكومة الثورة أيضًا الاحتفال يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣ بنقل رفات الزعيم محمد فريد إلى جوار زميله في الجهاد مصطفى كامل: في هذا اليوم احتفلت مصر في موكب رائع بنقل جثمانه من مدفنه الأول بحي السيدة نفيسة إلى جوار الزعيم الأول، لقد فرق الموت بينهما طوال السنين، منذ وفاة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨، وبقي محمد فريد يحمل الراية من بعده ويواصل الجهاد الذي بدأه مصطفى كامل، حتى أضناه الجهاد وانتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٥ نوفمبر ١٩١٩، وظل الزعيمان الوفيان بعد وفاتهما تفصل بين جثمانيهما الأيام والأعوام، حتى اجتمعا في مقام واحد، يضمهما قبر واحد، التقيا بعد طول النوى، فعليهما وعلى الشهداء السلام!

***



obeikandl.com

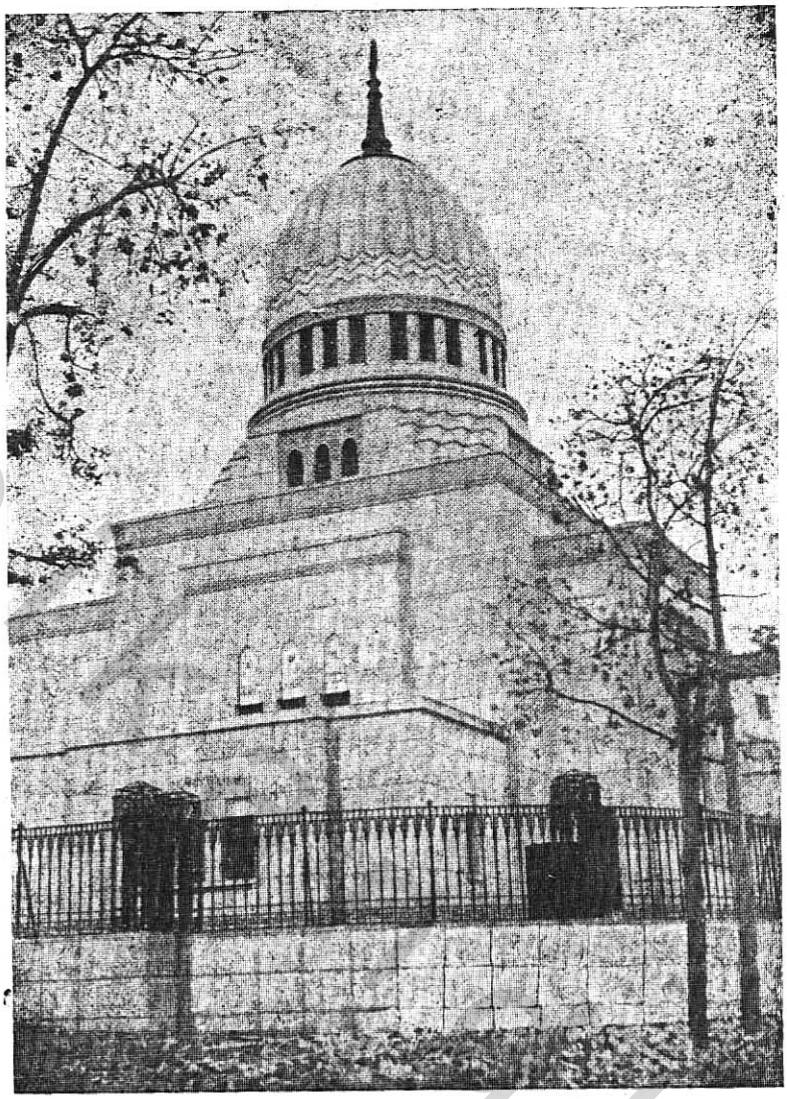

**الضريح الجديد لمصطفى وفريد – بميدان صلاح الدين، بجوار القلعة**

نقل إليه رفات مصطفى كامل في فبراير ١٩٥٣، ونقل إليه رفات محمد فريد في نوفمبر ١٩٥٣ وبجوارهما ضم جثمان المؤلف "عبد الرحمن الرافعي" في ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦.

# الفصل السادس عشر

# الخديو عباس الثاني

obeikandl.com

إن تاريخ مصر السياسي في عهد الخديو عباس حلمي الثاني له ارتباط وثيق بتاريخها الوطني في عهد مصطفى كامل، لذلك كان لزامًا علينا أن نفرد فصلاً للخديو عباس يكون بمثابة صفحة من تاريخ مصر السياسي في ذلك العهد حتى سنة ١٩٠٨، حيث ينتهي هذا الكتاب [١].

## نشأة الخديو عباس الثاني

هو ابن الخديو توفيق باشا البكر، ولد في ١٤ يوليه سنة ١٨٧٤، وكانت ولايته الخديوية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢، وهو اليوم التالي لوفاة توفيق باشا، فلم يكن قد بلغ الثامنة عشر الميلادية، حين ولايته الأريكة الخديوية، وكان قد بلغها بالحساب الهجري.

## ارتقاؤه العرش

وقد بلغه نبأ وفاة والده وهو في (فيينا) عاصمة النمسا حيث كان يتلقى العلم في كلية (الترزيانوم) التي كان يؤمها أبناء الملوك والأمراء، فبادر بالعودة إلى مصر، واتخذت انجلترا من حداثة سنه ذريعة لتسويغ بقاء الاحتلال، كما اتخذت من كل حادثة وكل سبب ذريعة غلى ذلك، فكتبت الديلي تلغراف تقول: " لقد أصبحت سلطتنا أكثر ضرورة في الوقت الذي يجلس فيه على العرش أمير غير مجرب". وقالت البول مولت جازيت: "إن ارتقاء الخديو الشاب عرش مصر يجعل بقاء الاحتلال أكثر ضرورة من أي وقت مضى فلا يجوز منذ الآن الكلام عن الجلاء". وقالت الجلوب:" إن وفاة توفيق قد هدمت آخر حجة للجلاء".

وصل الخديو إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة يوم ١٦ يناير سنة ١٨٩٢، وأخذ يضطلع بمهام الأريكة الخديوية، وكان مصطفى فهمي باشا رئيسًا للوزراء منذ أواخر عهد توفيق، فقد استقالة الوزارة إتباعًا للعرف الجاري عند تغيير ولي الأمر، فأقر الخديو بقاءها.

وبدأ الخديو عباس عهده بالاستمساك بحقوق مصر ومعارضة السيطرة البريطانية.

---

(١) أما الحوادث التي وقعت بعد ذلك فموضوعها في كتاب (محمد فريد) .



obeikandl.com

# الحوادث المهمة في عهده

## (أزمة فرمان سنة ١٨٩٢)

تأخر ورود الفرمان السلطاني المنبئ بإسناد الخديوية المصرية إلى عباس الثاني، وراجت الإشاعات المختلفة عن أسباب تأخيره، ثم تبين أن تركيا رغبت في تعديل الحدود بينها وبين مصر من جهة طور سيناء، ودارت المفاوضات بينهما في هذا الصدد قبل تحير الفرمان، على أن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا، إذ كانت في الأصل تابعة لولاية الحجاز، وإنما أعارتها تركيا لمصر في عهد إسماعيل، ورخصت لها بوضع حاميات من الجند في (الوجه) والمويلح وضبا والعقبة وشبه جزيرة طور سيناء لتأمين المحمل والحجاج بطريق البر، وقد استعادت تركيا الوجه وضبا والمويلح، ثم أرادت استعادة العقبة، فبل الخديو ذلك، وأراد بهذا التساهل أن لا يوجد بينه وبين تركيا خلافًا في بداية عهده، مما قد يستفيد منه الاحتلال، فانفجرت أزمة الفرمان مؤقتًا، جاءت الأنباء من الأستانة بأن السلطان قد أعد الفرمان وعهد بالمشير أحم أيوب باشا أن يحضر به إلى مصر.

وصل المندوب السلطاني إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة يم الاثنين ٤ إبريل سنة ١٨٩٢، أي بعد أكثر من شهرين من ولاية الخديو، ولكن لم يحلّ مجيئه الأزمة، بل تطورت إلى شكل أشد. وتأخرت بسببها تلاوة الفرمان، وذلك أن الحكومة البريطانية علمت بأنه قد وضع في صيغة تدل على رغبة تركيا في استرداد شبه جزيرة سيناء كلها، ولم يكن السفير البريطاني لي الأستانة قد أطلع على صيغة الفرنان، فما علم بها أبرق إلى اللورد سالسبري رئيس الوزارة الإنجليزية بفحواها، وأرسل ÷ذا برقية إلى السير إفلن بارنج (اللورد كرومر) بالمعارضة في تلاوة الفرمان حتى تصدر إرادة سلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى مصر، فوقعت لذلك أزمة خطيرة، وتدخل السير بارنج في الأمر، وبعث إلى تيجران باشا وزير خارجية مصر في ذلك الحين بخطاب بتاريخ ١١ إبريل يبلغه فيه صورة الفرمان وينهي إليه أنه يختلف عن الفرمان الصادر إلى توفيق باشا، إذا كان يتضمن إسناد خديوية مصر إليه طبقًا لحدودها القديمة مع ملحقاتها (وهذه الملحقات تشمل شبه جزيرة سيناء)، أما فرمان الخديو عباس فإنه يعين أملاك مصر طبقًا لحدودها القديمة المذكورة في الفرمان الصادر إلى محمد على باشا والخريطة الملحقة به والأراضي التي ألحقت بها بموجب الفرمان الصادر في ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٨١، أي قبل أن تعهد إلى مصر بإدارة شبه جزيرة سيناء، ولفت اللورد كرومر نظر تيجران باشا إلى هذا التناقض وأنهى إليه أنه مكلف بإبلاغه ذلك تنفيذًا لتعليمات وزارة الخارجية البريطانية، وسأله إذا لم يكن وصل تفسير لذلك من الباب العالي إلى الحكومة المصرية.



obeikandl.com

ولما بلغ تركيا تشدد انجلترا في هذا الصدد صدرت إرادة سلطانية بإسناد إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو، فانفرجت الأمة، وأرسل تيجران باشا في ١٣ إبريل إلى السير بارنج يبلغه أن الحكومة المصرية تلقت من الصدر الأعظم رسالة تلغرافية بتاريخ ٨ إبريل يبلغها فيه الإرادة السلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو كما كانت لأسلافه من قبل، فرد على السير بارنج بأنه قد أحيط علمًا بفحوى الإرادة السلطانية، وأنه بناء على ذلك تستمر شبه جزيرة سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقي العريش إلى رأس خليج العقبة تحت إدارة مصر، على أن تكون طابية العقبة الواقعة شرقي الخط المذكور من ملحقات ولاية الحجاز، وأن حكومة جلالة الملكة قد لغت الباب العالي قبولها ذلك؛ وبناء عليه يبلغه بقبول التحديد المذكور والإضافة اللذين حصلا بمقتضى تلغراف الصدر الأعظم المؤرخ ٧ إبريل الذي تعتبره الحكومة البريطانية ملحقًا وجزءًا من الفرمان، وأنه ليس لديه معارضة في إعلانه رسميًا بإضافة التلغراف المذكور إليه، وعلى ذلك تلى الفرمان مع الإرادة السلطانية المصححة له يوم الخميس ١٤ إبريل بسراي عابدين، وبهذا انتهت أزمة فرمان سنة ١٨٩٢.

## أزمة إقالة الوزارة الفهمية (يناير سنة ١٨٩٣)

كان مصطفى فهمي باشا يتولى رئاسة الوزارة كما أسلفنا حين ولي عباس الثاني الحكم، وهي وزارة موالية وخاضعة للنفوذ الإنجليزي خضوعًا تامًا، فلم يكن مصطفى فهمي يصدر في أي شأن من شئون الحكومة إلا عن إرادة اللورد كرومر، كما أن الموظفين البريطانيين كانوا أصحاب الحول والطول في الوزارات، وقد ظهر ولاء مصطفى فهمي للإنجليز في محاولته إقصاء الخديو الجديد عن كل سلطة، فكأن الخديو الحقيقي هو المعتمد البريطاني.

ساءت هذه السياسة الخديو عباس، ووجد من ميول مصطفى فهمي الإنجليزية ما يجعل تعاونه مستحيلاً، واحتمل بقاءه على رأس الوزارة سنة، ثم لم يطلق عليه صبرًا، واعتزم إقصاءه عن منصبه، فأوفد إليه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ محمود شكري باشا رئيس الديوان التركي، وأبلغه رغبته في أن يستقيل مراعاة لصحته (وقد كان مريضًا حقًا ولكن في دور النقاهة)، فأجاب الرسول أنه سيفكر في الأمر، وأن الأوفق لسموه أن يستشير في ذلك اللورد كرومر [1]، فلم يكن من الخديو إلا أن أرسل إليه على الفور كتابًا بإقالته لاعتلال صحته، وعهد في اليوم نفسه إلى حسين فخري باشا ناظر الحقانية الأسبق . تأليف الوزارة الجديدة، فألفها في اليوم ذاته على النحو الآتي:

---

(١) حديث محمود شكري باشا في المؤيد – عدد ٢ إبريل سنة ١٨٩٣.



obeikandl.com

حسين فخري باشا للرئاسة والداخلية، أحمد مظلوم باشا سر تشريفاتي الخديو للحقانية. بطرس باشا غالي للمالية. وبقي تيجران باشا للخارجية. ومحمد زكي باشا للأشغال والمعارف. ويوسف شهدي باشا للحربية، كما كانوا في الوزارة الفهمية وهي أول وزارة تألفت في عهد الخديو عباس، لأن وزارة مصطفى فهمي باشا كانت مؤلفة في أواخر عهد الخديو توفيق ثم أقرها عباس عند ولايته الحكم.

كان لهذا التبديل دويٌّ كبير في مصر، وفي الدوائر الأجنبية، وبخاصة الإنجليز، لأنه تم من غير استشارة اللورد كرومر واطلاعه، واكتفى الخديو بإبلاغه نبأ تأليف الوزارة بعد أن تم تعيينها فعلاً، وقد قوبل هذا الانقلاب من المصريين بابتهاج كبير، وإذ كان مصطفى فهمي باشا بغيضًا إلى الأمة لممالأته الاحتلال، وأثار ثائرة اللورد كرومر، لأنه كان يعتمد على خضوع مصطفى فهمي وإخلاصه للاحتلال، في حين أنه لم يكن يظن في حسين خري باشا هذه الميول، وقد رأي من ناحية أخرى أنه لم يؤخذ رأيه في هذا التبديل، وأن هذا يعد خروجًا على الحماية المقنعة التي ضربتها انجلترا على مصر، وعلى التقاليد المتبعة في عهد الخديو توفيق فقابل الخديو، واعترض على هذا التبديل، وابرق إلى اللورد روزبري وزير خارجية انجلترا بما وقع، وطلب تعليماته في هذه الصدد، وفي انتظار هذه التعليمات أمر الموظفين البريطانيين في الحكومة بعدم الاعتراف بالوزارة الجديدة، وعدم التعاون معها.

ولما تلقى اللورد كروم تعليمات حكومته توجه يوم ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ إلى سراي عابدين وقابل الخديو وأبلغه صورة برقية وردت إليه من وزير الخارجية بأن الحكومة البريطانية تعارض في تعيين فخري باشا وتطالب بحقها في الرقابة على اختيار الوزراء المصريين طبقًا لتلغراف اللورد درانفيل المؤرخ في ٤ يناير سنة ١٨٨٤، وبأنه في حال امتناع الخديو عن العمل بنصائحكم "فعليه أن يحتمل أخطر العواقب".

فأجاب الخديو بأن يستعمل حقه في اختيار وزراءه، ولا يحق لأحد أن ينازعه في هذا الحق الذي يستعمله لمصلحة البلاد. فأجابه اللورد كرومر متوعدًا وحذره عواقب مقاومة انجلترا وأنه في هذه الحالة يجازف بسلطته وشخصه، وانصرف بعد أن حدد للخديو مدة أربع وعشرين ساعة ليتدبر الأمر.

وقد بأ التناقض واضحًا جليا في موقف الاحتلال بإزاء الخديو، إذ أن انجلترا كانت تسوغ احتلالها بدعوى المحافظة على حقوقه، ثم ها هي تفتات على أساس سلطته، أي على حقه في اختيار وزرائه، وتفرض عليه الوزراء الذين تريدهم، وكان هذا الموقف تحديًا صريحًا لحقوق الخديو واعتداءً صارخًا على استقلال مصر وعلى المعاهدات التي كانت تحدد مركزها الدولي، وبدت خطورة الأزمة حينا استفاضت الأنباء عن مقابلة اللورد كرومر للخديو وعن البرقية التي

أبلغه أياها، فاستدعى الخديو رياض باشا ثم نوبار باشا وقابلهما على انفراد، وكذلك قابل بعض معتمدي الدول الأجنبية، وذهب تيجران باشا وبطرس باشا غالي إلى الوكالة البريطانية وقابلا اللورد كرومر للوصول إلى حل للأزمة.

وقد طلب اللورد كرومر في بداية الأمر إقالة وزارة فخري باشا وإرجاع مصطفى فهمي باشا، فرفض الخديو هذا الشرط، وانتهت الأزمة بحل وسط اتفق عليه الطرفان إذ استقال فخري باشا، وقبل الخديو استقالته، على أن يعهد إلى رياض باشا تأليف الوزارة الجديدة، وأن يقدم الخديو بلاغًا إلى اللورد كرومر وضع هذا صيغته، بيدي فيه رغبته في أن يوجه عنايته لإيجاد اصدق العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية، وأن يتبع في المستقبل نصائحها في المسائل المهمة وقد بقي أمر هذا البلاغ مكتومًا إلى أن انفرجت الأزمة.

## تأليف وزارة رياض باشا

وعلى ذلك تألفت وزارة رياض باشا في ١٩ يناير على النحو الآتي: رياض باشا للرياضة والداخلية. محمد زكي باشا للأشغال والمعارف. يوسف شهدي باشا للحربية. يتجران باشا للخارجية. بطر باشا غالي للمالية. أحمد مظلوم باشا للحقانية.

## شعور الأمة إزاء هذه الأزمة

كان موقف الخديو في الأزمة موقفًا مشرفًا. إذ لم يقبل بقاء وزارة عُرفت بالخضوع والولاء لإرادة الاحتلال وتنفيذ سياسته. فأقالها واستعمل حقه الشرعي في تعيين وزارة يرى فيها الاستقلال عن النفوذ البريطاني، فلا غرو أن أيار موقف حماسة الشعب وتأييده والتفافه حوله، وقد بدا هذا الشعور أثناء اشتداد الأزمة حين ذهب الخديو من سراي القبة إلى سراي عابدين في صبيحة يوم الأربعاء ١٨ يناير سنة ١٨٩٣ فأقبلت وفود الأمة من الأمراء والعلماء والأشراف وأعضاء مجلس شورى القوانين الجمعية العمومية وقضاة محكمة الاستئناف والمحاكم الابتدائية وكبار الموظفين والأعيان والتجار من العاصمة والأقاليم، جاءوا مدفوعين بشعورهم بتأييد الخديو في موقفه، وقد غصت بهم السراي، واستقبلهم الخديو طائفة بعد طائفة، فكان يسمع منه عبارات التأييد ويشكرهم على عواطفهم، ومما قاله لرجال القضاء إنه يدافع عن الحقوق الشرعية للبلاد لا لشخصه وإنه لم يعمل غير الواجب عليه، واستمرت المقابلات منذ الصباح حتى الساعة الثانية بعد الظهر

obeikandl.com

[1]،فكانت ظاهرة رائعة من الأمة، وتلقى الخديو المئات من برقيات التأييد والتهنئة من مختلف أرجاء القطر.

وفي يوم الجمعة ٢٠ يناير – وكانت الأمة قد انتهت بتأليف وزارة رياض باشا– أدى الخديو فريضة الجمعة في مسجد الحسين رضي الله عنه، فاستقبله الشعب بالحماية والتهليل، واجتمعت الألوف في المسجد وعلى جانبي الطريق من السكة الجديدة إلى الموسكي إلى الأزبكية وهتفوا له الهتافات العالية في المسجد وعلى طول الطريق، وألف طلبة المدارس العالية مظاهرة [2] هتفوا فيها له وأيدوه في موقفه، ثم هاجموا إدارة جريدة (المقطم) لنزعتها الاحتلالية وانحيازها إلى اللورد كرومر في الأزمة.

وفي مساء السبت ٢١ يناير حضر الخديو تمثيل رواية (عايدة) في الأوبرا، فكانت أيضًا مظاهرة رائعة له، اشترك فيها الوطنيون والأجانب من النظارة إذ وقف الجميع حين دخل اللوج الخديوي وصدحت الموسيقى بالسلام وهتفوا له هتافًا عاليًا ودوى المكان بالتصفيق المتواصل، فأجابتهم الموسيقى بالسلام الخديو مثنى وثلاث ورباع، وكلما عزفت زاد الهتاف والتصفيق طالبين إعادة السلام الخديوي حتى أشار الخديو إليهم بالجلوس، وظلت وفود الأعيان والمهنئين ترد إلى سراي عابدين لتهنئة الخديو وتأييده [3].

## موقف الدول

ذاعت أنباء الأزمة في أوروبا، ولكن الدول الأوروبية قابلتها بالجمود وعدم الاكتراث، واحتجت تركيا على هذا التدخل، فأجابت الحكومة الإنجليزية بأن اللورد كرومر لا يقصد التعدي على حقوق الخديو وأن إسناد رئاسة الوزارة إلى رياض باشا يعتبر حلاً نهائيًا للازمة، واستفسرت الحكومة الفرنسية من الحكومة الإنجليزية عن موقف اللورد كرومر تجاه التغيير الوزاري، فأجابتها بأنه من الواجب مراعاة رأيها في تعيين رئيس الوزارة. على أن الصحف الفرنسية قد نصار مصر في هذه الأزمة وحملت على الحكومة الإنجليزية.

---

(١) المؤيد عدد ١٨ يناير سنة ١٨٩٣.

(٢) هي المظاهرة التي أسلفنا الكلام عنها بالفصل الثاني ص (٤٧).

(٣) المؤيد عدد ٢١ يناير سنة ١٨٩٣.



obeikandi.com

أما الصحف الإنجليزية فكانت تحمل على الخديو حملات شديد لإقالته وزارة مصطفى فهمي، ووصفت هذا العمل بأنه إهانة لممثل انجلترا في مصر، وقد زادت انجلترا بعد هذه الحادثة عدد جيش الاحتلال في مصر إجابة لطلب اللورد كرومر وتأييدًا لموقفه.

## أزمة الحدود سنة ١٨٩٤

لم تكد تنتهي أزمة إقالة الوزارة الفهمية حتى ظهرت أزمة أخرى أبلغ في الدلالة على الضغط الإنجليزي، ونعني بها أزمة الحدود، وبيانها أن الخديو كان منذ تولى العرش شديد العناية بأمر الجيش، وكان كثيرًا ما يرتدي الشوار العسكري كأحد ضباط الفرق ويمر على وحدات الجيش وقت التعليم وفي المناورات، وعيني بحالة الجنود والضباط ونظامهم وتعليمهم ومعيشتهم ويوجه عنايته إلى تدريب الجنود وتلاميذ المدرسة الحربية، فتعلقت به قلوبهم فنقم الضباط الإنجليز من الخديو، هذه الخطة، وتألفت منهم لجنة برئاسة السردار (اللورد كتشنر) وعرضوا شكواهم على اللورد كرومر المعتمد البريطاني، فأضمروا انتهار أقرب فرص لإذلال الخديو والنيل من مهابته أمام الجيش، لكي تعود لهم السيطرة الكاملة عليه، وقدروا في حادثة الحدود الفرصة المرتقبة لتنفيذ وعيدهم ذلك أن الخديو اعتزم السياحة بطريق النيل في الوجه القبلي في شتاء سنة ١٨٩٣ –١٨٩٤ وبدأ الرحلة يوم ٩ يناير سنة ١٨٩٤، فكان يقابل أينما توجه بحماسة الشعب وابتهاجه، ووصل في سياحته إلى (وادي حلفا) يوم ١٨ يناير ١٨٩٤، وهناك عرض فرقة من الجيش المصري كان يتولى قيادتها ضابط بريطاني، ولاحظ نقصًا في نظام الجنود وتدريبهم، فأبدى ملاحظته في هذا الصدد إلى وكيل وزارة الحربية (محمد ماهر باشا، وكان يرافقه في سياحته) وندد بالجيش ونظامه، وذاعت هذه الملاحظة، فثارت ثائرة اللورد كتشنر وعدها إهانة له، وجعل منها أزمة تتعلق بالكرامة الإنجليزية، فبادر بتقديم استقالته من منصبه، وابلغ الأمر إلى اللورد كرومر، فاستشاط هذا غضبًا من مسلك الخديو، وأرسل إلى حكومته يستطلع رأيها فيما يجب عمله، فكان جوابها أن يطلب من الخديو إصدار أمره بشكر السردار وامتداح الضباط الانجليز، وإبعاد ماهر باشا من منصبه، ومعنى ذلك اعتذار الخديو عن ملاحظاته، وقد اتخذت الصحف البريطانية لهجة التهديد والوعيد حيال هذه الحادثة واعتبرتها أزمة خطيرة لا يحلها إلا الاعتذار، وان رياض باشا رئيسًا للوزارة فبادر إلى نصح الخديو بالاعتذار والإذعان لمطالب الاحتلال وانتهت الحادثة بالتسليم، وأصدر الخديو من مدينة الفيوم أمرًا بمثابة خطاب إلى السردار كتب بالفرنسية ثم عرب ونشر في الجريدة الرسمية هذا نصه"

" مدينة الفيوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٩٤.

" قبل أن أترك الوجه القبلي للعودة إلى مصر أريد أن أكرر م أظهرته من العناية وحسن الالتفات للجيش عند زيارتي الحدود وأؤيد حسن رضائي الذي أبديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه وإني لمسرور من أهن أهنئ الضباط الذي يرأسونه مصريون كانوا أو انجليز، وإني لمرتاح أيضًا بأن أقدر الخدمات التي أدتها الضباط الإنجليز لجيشنا حق قدره وأملنا ايها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر"

**عباس حلمي**

وبعد مدة وجيزة أبعد ماهر باشا عن وكالة الحربية وعين محافظًا للقنال، فتم بذلك إذعان الخديو لمطالب الإنجليز في هذه الأزمة، وأصيب نفوذه بضربة شديدة من جراء تسليمه، وفقد هيبته في نفوس الجيش، وأدرك الضباط والجند أن سلطة أي ضابط بريطاني أكبر من سلطة الخديو، وفكان لهذه الحادثة أثر سيء في حالة الجيش المعنوية، إذ شعر الضباط المصريون أن خضوعه للسيطرة الأجنبية هو السبيل إلى الترقي والاطمئنان على مراكزهم، وتصدعت هيبة الخديو، فلم يعد يرى في الطوابير والمناورات إلا قليلاً.

## استقالة وزارة رياض باشا

## وتأليف وزارة نوبار

اشتد الجفاء بين الخديو ورياض على اثر موقفه من أزمة الحدود، واعتقد أنه لو وقف موقف الحزم والإخلاص له لما نصحه بهذا الاعتذار المهين، وانتهى الأمر باستقالة رياض باشا وتأليف وزارة نوبار باشا في ١٦ يناير ١٨٩٤ على النحو الآتي: نوبار باشا للرياسة والداخلية. مصطفى فهمي للحربية والبحرية. حسين فخري باشا للأشغال والمعارف. بطرس غالي للخارجية. أحمد مظلوم باشا للمالية. إبراهيم فؤاد باشا للحقانية.

كانت هذه الوزارة ذات ميول إنجليزية، فكان أول عمل لها تعيين أول مستشار بريطاني لوزارة الداخلية. إذ أنشئ هذا المنصب بموجب المرسوم الصادر في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤، وأسند إلى السير إلدون جورست (الذي صار سنة ١٩٠٧ قنصل بريطانيا العام في مصر بعد استقالة اللورد كرومر)، وصار المستشار البريطاني صاحب الحول والسلطة في الوزارة، وعين مفتشون إنجليز بوزارة الداخلية تضاءلت بجانبهم سلطة المديرين.

وفي عهد هذه الوزارة صدر المرسوم الخديوي في ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بإنشاء المحكمة المخصوصة لمحاكمة من يتهم بالتعدي على ضباط جيش الاحتلال وجنوده، وهي المحكمة التي كان لها الشأن الكبير في حادثة دنشواي كما تقدم بيانه (ص ٢٠٥).

# وزارة مصطفى فهمي باشا

## الوزارة الطويلة: نوفمبر سنة ١٨٩٥– نوفمبر سنة ١٩٠٨

ثم وقع الجفاء بين الخديو ونوبار على أثر موقف الأخير من مسألة رجوع إسماعيل باشا الخديو الأسبق إلى مصر، فقد ساءت حالته الصحية في أوائل سنة ١٨٩٥ وأرسل إلى حفيده الخديو عباس لكي يأذن له بالعودة إلى مصر مراعاة لصحته وشيخوخته، وكان عباس يميل إلى تحقيق هذه الرغبة، ولكن وزارة نوبار وجدت أن رجوع إسماعيل من منفاه غير مرغوب فيه من جانب الاحتلال، فرفضت الموافقة على عودته بحجة أنها تخلق لمصر عقبات من جانب الدول التي اشتركت في خلعه، فأسرّها عباس في نفسه، وأخذ المرض يلح على إسماعيل حتى توفي يوم ٢ مارس ١٨٩٥، وقد رغب عباس في أن يتخلص من وزارة نوبار في تلك السنة ولكن نوبار كان مؤيدًا من الاحتلال، فلم يفكر في الاستقالة، فأسرها عباس في نفسه مرة أخرى، وأخيرًا توصل إلى تنفيذ أمنيته في إقصاء نوبار، بأن أعرب للورد كرومر عن رغبته في إعادة مصطفى فهمي باشا بولائه للاحتلال إلى رئاسة الوزارة، وكان الخديو قد أخذ من ذلك الحين يجنح لمسالمة الاحتلال ويختم عهد المقاومة والأزمات، فلقيت الفكرة ارتياحًا في نفس الورد كروم الذي كان لا يفتأ يترقب الفرص لعودة مصطفى فهمي إلى رئاسة الوزارة، لأن الإنجليز لا ينسون صنائعهم، فلما أحس نوبار بهذا الموقف قدم استقالته يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥، وألف مصطفى فهمي الوزارة الجديدة في اليوم التالي، واحتفظ ببقية الوزراء الذين كانوا مع نوبار، وأضاف إليهم محمد العباني باشا وزيرًا للحربية، فصارت مؤلفة كما يأتي: مصطفى فهمي باشا للرآسة والداخلية. حسين فخري باشا للأشغال والمعارف. بطرس غالي باشا للخارجية. أحمد مظلوم باشا للمالية. إبراهيم فؤاد باشا للحقانية. محمد العباني باشا للحربية والبحرية. وهي وزارة الاستسلام والولاء المطلق للإنجليز، وقد بقيت في الحكم حتى نوفمبر سنة ١٩٠٨، أي أنها دامت ثلاثة عشر عامًا، كانت خضوعًا وتسليمًا للاحتلال البريطاني، وقد سميناها "الوزارة الطويلة" إذ كان أطول الوزارات عمرًا.

## أهم الحوادث في عهدها

هي حلقات متصلة مترابطة من التسليم في حقوق البلاد ومرافقها.

ففي سنة ١٨٩٧ طلب اللورد كرومر تعيين إنجليزي نائبًا عموميًا بدلاً من حمد الله بك أمين، فأذعن مجلس الوزراء للأمر، وعين المستر كوربت في هذا النصب الخطير وصارت سلطة النيابة وهيأتها تحت تصرف النائب العمومي الإنجليزي كما كانت وزارة الحقانية تحت سيطرة المستر سكوت المستشار القضائي البريطاني.

## إنشاء البنك الأهلي

وفي سنة ١٨٩٨ صد المرسوم بتأسيس البنك الأهلي وأعطته الحكومة امتياز إصدار أوراق النقد المصري، فصار بمثابة بنك الحكومة، وهو بنك أهلي شكلا وأجنبي فعلا، ومؤسسوه وحملة أسهمه الأولى هم السير ارنست كاسل المالي الإنجليزي الشهير والمسيو سلفاجو وشركاؤه والخواجة روفائيل سوارس وإخوته.

## بيع البواخر الخديوية

وفي تلك السنة ذاتها (سنة ١٨٩٨) عقدت الحكومة صفقة كانت وبالا وخسرانا على مصر، ونعني بها بيع البواخر الخديوية بأبخس الأثمان إلى شركة (ألن وألدرسن) الإنجليزية.

وبيان ذلك أنه كان للحكومة بواخر تعرف ببواخر البوستة الخديوية، عددها أحدى عشر باخرة كبيرة، منها ثلاث بواخر اشترتها الحكومة حديثًا من مصانع إنجلترا وهذه البواخر هي: الشرقية. الفيوم. المحلة. الحرمانية. شبين. توفيق رباني. البرنس عباس. القاهرة. مصر. النجيلة، وهذه البواخر كانت قوام الأسطول التجاري لمصر في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، والبقية الباقية للبحرية المصرية، وكانت تنقل المسافرين والمتاجرين بين مصر وثغور هذين البحرين، حاملة العلم المصري، مؤدية مهمتها في بعث النشاط الاقتصادي التجاري وبسط نفوذ مصر التجاري والبحري في هذين البحرين، ويتبع هذه البواخر حوض الإسكندرية الكبير، وحوض الإسكندرية الصغير، وحوض السويس وهذه الأحواض معدة لإصلاح البواخر، ويتبعها أيضًا مستودعات المصلحة ومخازنها ومعاملها ومحلات الإدارة والزوارق البخارية واللنشات، وقد قدرت قيمة البواخر وهذه الملحقات جميعها بثلاثة ملايين جنيه، فباعت الحكومة جميع هذه المنشآت إلى شركة (ألن والدرسن) بثمن بخس ١٥٠٠٠٠ جنيه، فكانت صفقة خاسرة من جميع الوجود لأنها أضاعت على البلاد ثروة قومية ضخمة ليس من السهل أن تستردها، وقضت على



obeikandl.com

أسطولها التجاري الذي بذلت هذه الملايين في سبيل إنشائه وتكوينه، وانطوت بذلك صفحة البحرية المصرية إلى وقت طويل، وقد تم البيع دون مزايدة أو إشهار، بل حصلت المخابرة بشأنه في الخفاء بين السير إلوين بالمر المستشار المالي البريطاني للحكومة المصرية وشركة (ألن وألدرسن) الإنجليزية، وأقر مجلس الوزراء هذه الصفقة الخاسرة، دون بحث أو تحقيق، وأكتفى بالبيانات التي أفضى بها المستشار المالي، ووقع على العقد أحمد مظلوم باشا وزير المالية، ومما يجدر ملاحظته لتقدير مبلغ الغبن الذي أصاب الحكومة من هذه الصفقة أن ثلاث بواخر من الإحدى عشر باخرة المبيعة اشترتها الحكومة من مصانع إنجلترا بـ ٢٠٠٠٠٠ جنيه، أي أن ثمن الصفة كله أقل من ثمن هذه البواخر الثلاث، وكانت علة الحكومة الظاهرة في بيع هذه البواخر والمنشآت أن مصروفاتها تزيد على إيراداتها وفضلا عن أن هذا ليس مسوغا لإضاعة ثروة البلاد القومية، فقد ثبت من مراجعة حسابات المصلحة أن صافي إيرادها السنوي بعد جميع المصروفات هو ٢٢٠٠٠ ج، فإذا لوحظ أن الحكومة تعهدت بأن تعطي الشركة سنويا ستة آلاف جنيه في السنة فيكون صافي ربح البواخر ٢٨٠٠٠ جنيه سنوياً، ويكون البيع قد وقع بقيمة الربح مدة خمس سنوات تقريبا، وهذا أفظع مظهر لغبن الفاحش.

كان في بيع هذه البواخر القضاء على الأسطول التجاري لمصر، بعد القضاء على أسطولها الحربي، وظهر الفرق جليًا بين حالتها في عهد الاحتلال وحالتها في عهد محمد علي حين زارها الكاتب الإيطالي (بنديتي) سنة ١٨٤٠، فراعه منظر السفن الحربية مصفوفة على أتم نظام في ميناء الإسكندرية، حيث قال في وصفها:

"لما دخلنا الميناء الكبير مررنا بين قوات بحرية حربية تأخذ باللب وتذهب العقل، وكان ضمن هذه القوات الأسطول العثماني الذي استولت عليه مصر، وفي يقيننا أننا لم نر ولا نظن أننا نرى في المستقبل عددًا من السفن الحربية يوازي ما شهدناه على اختلاف الأنواع والأحجام، ومنظما بمثل ذلك التنظيم البديع، ومما زاد في رواء المنظر وبهجته أن يوم وصولنا إلى ثغر الإسكندرية كان يوافق عيدًا من الأعياد الإسلامية، فألفينا تلك السفن كلها التي لا تقع تحت حصر رافعة أعلامها بشكل بديع ومنظر أنيق تطلق مدافعها في الفضاء ساعة الغروب، فكأنها تودع الشمس وتحييها، فيجاوبها صدى الأفق بلسانها، وصفوة القول إن المنظر كان من المناظر التي لا مثيل لعظمتها".

## بيع أملاك الدائرة السنية

باعت الحكومة في هذه السنة تفاتيش الدائرة السنية، وكانت أملاكها الزراعية تبلغ حو ثلثمائة ألف فدان، يتبعها تسع معامل كبيرة لعصير القصب وصناعة السكر، باعتها على شركة

سوارس مقابل ثمن قدره ستة ملايين وأربعمائة ألف جنيه، وهو قيمة الدين الذي كان على الدائرة في ذلك الحين، وكانت صفقة خاصرة لما فيها من الغبن الفاحش على الحكومة والربح الهائل للماليين الأجانب.

## الشروع في بيع سكك حديد السودان

والظاهر أن سنة ١٨٩٨ كانت بمثابة سنة التصفية، فضلا عن إنشاء البنك الأهلي وبيع البواخر الخديوية والدائرة السنية، شرع المستشار المالي البريطاني في بيع سكك حديد الحكومة في السودان إلى شركة إنجليزية، بحدة حاجة الحكومة إلى المال لتدبير نفقات الحملة على السودان، فاعترض الخديو على هذا البيع، ولما رأى إصرار اللورد كرومر على عقد الصفقة استنجد بتركيا بحجة أن هذه السكك الحديدية هي من أملاك مصر التي نص فرمان توليته على عدم جواز التصرف فيها أو التنازل عنها، وأبرق إلى سلطان تركيا بعض عليه الأمر ويطلب منه النجدة فجاءه الرد بشكره وإقراره على موقفه باعتبار أن السكك الحديدية أنشئت للجيش وأن بيعها مخالف للسيادة التركية، فتراجع اللورد كرومر وتقرر عدم البيع.

## حوادث السودان

وفي هد وزارة مصطفى فهمي حصلت التجريدة على السودان لاستعادته، وتم استرداده، ورفعت الراية البريطانية عليه، ثم أبرمت اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، مما نوجزه فيما يلي:

## حملة دنقلة سنة ١٨٩٦

بقيت الحكومة المصرية ملتزمة موقف الجمود حيال السودان، حتى تراءى للحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ استرداده بالاشتراك مع مصر، فقررت الحملة على دنقلة، وأوعزت على الحكومة المصرية تجريدها بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصري، ولم تكن الحكومة المصرية إلا منفذة لإرادة الحكومة البريطانية، وقد بلغ بها الخضوع والاستسلام أن رئيس الوزارة لم يعلم شيئًا عن أمر هذه الحملة إلا في اليوم الذي ذهب في مسائه على الخديو وأخبره بأن اللورد كرومر أفضى إليه بأن الحكومة الإنجليزية قررت إرسال حملة على السودان، فلم يكن من الحكومة المصرية إلا أن قررت في اليوم التالي تجريد هذه الحملة.

أقرت الحكومة المصرية في ١٢ مارس ١٨٩٦ الحملة على دنقلة، وكانت حملة جديدة منظمة، غذ حشدت على الحدود جيشًا مؤلفًا من ١٦٦٨٠ مقاتل منهم سبعمائة ضابط، وهو مجموع الجيش المصري إذ ذاك، وأمدته بكل وسائل الزحف والتموين والنقل، ولكنها حصرت

الأعمال الرئيسية في القواد والضباط الإنجليز فكان منهم قائد عموم الحملة (اللورد كتشنر [1])، ورئيس أركان الحرب، ومدير قلم المخابرات، وحكيمباشي التجريدة، والحكيمباشي البيطري، ومدير المهمات ومدير حملة النقل، ومدير سكة الحديد، وأركان حرب التلغراف، وقواد الفرسان والطوبجية والهجانة والمشاة، وقواد اللواءات جميعًا.

وكان إسناد القيادة العليا والأعمال الرئيسية على النحو المتقدم إلى الإنجليز من الأسباب التي أفقدت الحملة حماسة الشعب، إذ رأوا فيها مظهرا من مظاهر السيطرة البريطانية، فقوبلت الحملة بالفتور، وعدوها حلقة من سلسلة التدابير الإنجليزية، بدأت بالاحتلال العسكري سنة ١٨٨٢، ثم إلغاء الجيش المصري سنة ١٨٨٣، وتغلغل الإنجليز في شئون الحكومة، ثم إجبارها على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤، وترك الثورة تستفحل في نواحيه، ثم اعتزام فتحه سنة ١٨٩٦ لحساب إنجلترا بالاشتراك مع مصر، وكان معروفا أن إنجلترا لم توعز على الحكومة المصرية بتجريد الحملة على السودان في تلك السنة الا لتقاوم مشروع الفرنسيين في الوصول على أعالي النيل.

وقد أبدى الجيش المصري في وقائع استعادة السودان من الشجاعة والكفاية والصبر واحتمال المشاق ما جعل تاريخ هذه الوقائع صفحة مشرفة لمصر، وإن كانت ثمرتها قد أستأثر بها الاحتلال.

وأول عمل منهك قدام به الجنود هو مد السكك الحديدية في صحراء النوبة (أنظر الخريطة ص ١٣١) ليتسنى للجيش أن يزحف ويحتفظ باتصاله بقواعده العسكرية، وقد عاني الجنود المصريون من ضروب المشاق والأهوال في اشتغالها بإنشاء السكة الحديدية في تلك الصحراء المقفرة، إذ كانوا يعملون أيام القيظ الشديد، وكثرا ما كان يعوزهم الماء في شدة الحر، فسقط منهم العشرات موتى من وطأة الحر وشدة ما عانوه من التعب والإعياء في الشمس المحرقة.

---

(١) كان وقتئذ السر هربرت كتشنر: ونال لقب (لورد) بعد فتح الخرطوم سنة ١٨٩٨ وسمي لورد كتشنر أوف خرطوم.



obeikandl.com

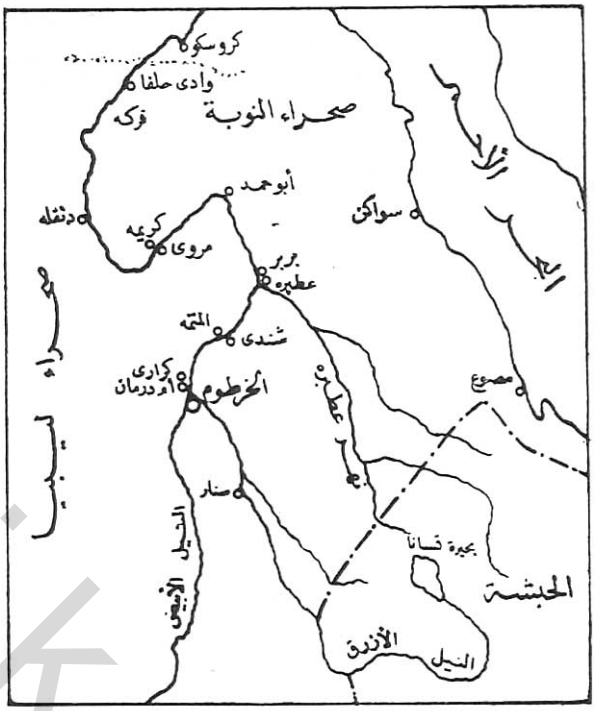


**خريطة استرجاع السودان**

**(١٨٩٦-١٩٨٩)**

## واقعة فركه

## (٧ يونيه سنة ١٨٩٦)

كان أول عمل تمهيد للحملة مد السكة الحديدية على آبار (امبقول) بصحراء النوبة، وقد كانت شراذم الدراويش تصل إلى تلك الآبار وتحاول عرقلة العمل في مد السكة الحديدة. فاعزم السردار إقصاءهم عن (فركه) [1]، فزحف الجيش من (عكاشة) في ٦ يونيه وهاجم معسكر الدراويش في (فركه) فجر اليوم التالي (٧ يونيه)، ودار قتال شديد انتهى باستيلاء الجيش على المعسكر وفر الدراويش جنوبًا.

---

(١) بين وادي حلفا ودنقلة.



obeikandl.com

وقد لاقى الجيش المصري في هذه الحملة عناء كبيرًا من شدة الحر وهبوب الأعاصير في الصحراء، وقطع المراحل الشاسعة، ثم ظهور الكوليرا والحمى التيفودية في الجيش.

## واقعتا الحفير ودنقله

## (سبتمبر سنة ١٨٩٦)

وزحف الجيش برًا وبطريق النيل حتى بلغ (الحفير) حيث كان الدراويش ممتنعين، فأجلاهم عنها، وعبر النيل فجر يوم ٢٠ سبتمبر. واحتل دنقله عاصمة المديرية يوم ٢٣ سبتمبر، وتقدم الجيش فاحتل (الدبة) ثم (مروي) على النيل، ودانت مديرية دنقلة كهلا للجيش المصري، وكان الأهلون يستقبلونه أينما حل بالترحيب والتهليل، إذ رأوا من مظالم التعايشي وفساد حكومته ما جعلهم يتوقون إلى رجوع الحكم المصري.

## استرجاع (أبي حمد) و (بربر)

## (١٨٩٧-١٨٩٨)

استقرت الحملة في دنقله حتى تمد السكة الحديدية ويتم تنظيم الحكم في مديرية دنقلة، وقد عمل الجند في الخط الحديدي إلى (الكريمة) بحري دنقلة ليتفادى الجيش شلالات (المحس) و(سكوت)، ثم مد خطا حديديًا آخر من حلفا إلى أبي حمد رأسًا مخرقا صحراء النوبة، وفي غضون ذلك استأنف الزحف، فالتقى بالدراويش في (المتمة) يوم أول يونيه سنة ١٨٩٧، إذ نسبت المعركة بينهما وانتهت بهزيمة الدراويش، وهزم الدراويش أيضًا في واقعة (أبي حمد) واحتل المصريون البلدة يوم ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧، واسترجع الجيش المصري (بربر) في ٦ سبتمبر ثم (شندي) في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨.

## واقعة عطبره

## (إبريل سنة ١٨٩٨)

وواصل الجيش المصري الزحف فالتقى بجموع الدراويش في (عطبره) قريبًا من ملتقى نهر عطبره بالنيل يوم ٨ إبريل سنة ١٨٩٨، فهزمهم شر هزيمة واسر قائدهم الأمير محمود، وقُتل في هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف قتيل واسر منهم ألفان، وكانت هذه المعركة إيذانا بسقوط دولة الدراويش.



obeikandl.com

# واقعة أم درمان واسترجاع الخرطوم

## (١-٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

ثم شرع الجيش المصري بعد واقعة عطبرة يستعد للزحف على الخرطوم، فزاد السردار عمال السكة الحديدية، ومدت أبي حمد إلى عطبرة، وجاءه مدد من الجند زاد به عدد الجيش فبلغ نحو ٢٥ ألف مقابل ضم إليه نحو ألفي مقاتل من العربان الموالين للحكومة، وبدأ الزحف في أغسطس سنة ١٨٩٨، وما أن علم التعايشي (خليفة المهدي) بهذا الزحف حتى أخذ يستعد للقتال وحشد الجموع والمقاتلة في أم درمان وأقام والطوابي للدفاع عنها فضلا عن الطوابي القديمة، وكان عنده من المدافع التي غنمها الثوار من الجيش المصري في وقائع الثورة ٦٣ مدفعًا وأمر بصنع الألغام لمقاومة وابورات الجيش في النيل.

وفي فجر أو سبتمبر سنة ١٨٩٨، زحف الجيش المصري تصحبه البواخر النيلية على (أم درمان)، فتجاوز جبل (كرري) ظهر ذلك اليوم ووقف بمكان يدعي (العجيجة) على بعد نحو ثمانية أميال من أم درمان، ثم تقدم البواخر والعربان الموالية للحكومة واستولى على بعض الطوابي الأمامية للخرطوم. وسارت البواخر حتى وصلت الخرطوم، فاستولت عليها عصر ذلك اليوم، وكان التعايشي ممتنعًا في (أم درمان)، فأخذت بطاريات المدافع ترميها بالقنابل، وخرج التعايشي بجميع جيوشه من أم درمان لملاقاة المصريين غربي المدينة، وكان معه من المقاتلة ٥١٧٨٩، منهم ٨٦ أميرًا (قائدًا) و ٥٤٩٥ فارسًا و ١٤٣٠٠ راجلاً مسلحين ببنادق الرمنتون التي غنموها في المعارك السابقة، والباقون مسلحون بالسيوف والحراب، زحف بهذه الجموع لملاقاة الجيش المصري يوم الجمعة ٢ سبتمبر، فوقعت المعكرة المعروفة بواقعة (أم درمان)، إذ هجمت جموع التعايشي في هيئة هلال على معسكر الجيش المصري على شاطئ النيل، فكانت المدافع تحصدهم حصدًا، وهم لا يهابون الموت، وانتهت الواقعة بهزيمة التعايشي، فتقدم الجيش المصري واحتل أم درمان ظهر يوم ٢ سبتمبر وبلغت خسائر الدراويش في هذه الواقعة عشرة آلاف قتيل، والجرحى والأسرى مثل هذه العدد، أما خسائر الجيش المصري بلغت ٤٩٠ قتيلاً وجريحا.

وقد فر التعايشي جنوبا بعد الواقعة واستقر في جبل أبي قدير، فسارت إليه حملة بقيادة السير ونجت باشا وكيل السردار انتهت بقتله بواقعة (جديد) في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩، وبموته سلّم البقية من أبباعه، وتقلص ظل الفتنة المهدوية من السودان.

## رفع الراية البريطانية على السودان

وفي يوم الأحد ٤ سبتمبر، بعد واقعة أم درمان بيومين، عبر السردار النيل على الخرطوم، ورفع الرايتين المصرية والإنجليزية على أطلال سراي الحاكم العام، فقوبل رفع الراية الإنجليزية على الخرطوم بالدهشة والسخط في مصر ومن الضباط المصريين في السودان، إذ كان المفهوم أن السودان أرض مصرية وأن استرداده كان لحساب مصر، وبجنودها وأموالها وجهودها، ولكن ولاء وزارة مصطفى فهمى باشا للاحتلال واستسلامها للغاصب جعل الانجليز يمعنون في الاعتداء على حقوق مصر، فإن رفع الراية الإنجليزية على الخرطوم كان إيذانا بوضع السودان تحت الحماية البريطانية، ولم تحرك الوزارة ساكنًا أمام هذا الحادث الجلل، بل مر كأنه حادث عادي!

## اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩

وأعقب رفع الراية البريطانية على الخرطوم توقيع اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، وقد سبق الكلام عنها في الفصل الثامن (ص ١٤٠) وتنفيذًا للاتفاقية عين اللورد كتشنر حاكمًا عامًا للسودان، مع بقائه سردارًا للجيش المصري، ثم تخلى عن منصبه سنة ١٨٩٩ حين اختارته الحكومة لقيادة الجيش البريطاني في حرب البوير، فصدر الأمر العالي بتعيين السير ريجنلد ونجت باشا سردارًا للجيش المصري وحاكمًا عامًا للسودان.

## تعديل الحدود بين مصر والسودان

وتنفيذاً لاتفاقية السودان أصدرت الحكومة المصرية قرارًا في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ بتوقيع وزير الداخلية (مصطفى فهمي) جعل نهاية الحدود بين مصر والسودان خطا يمتد غربي النيل على مسافة ٢٠٠ متر شمالي البربة الكائنة بناحية (فرص) وشرقي النيل إلى البربة الكائنة بناحية (ادندان)، ووضعت هناك علامتان مكتوب على وجهة كل منهما الشمالية (مصر) والجنوبية (السودان).

## تمرد في الجيش المصري

في يناير سنة ١٩٠٠ حصل تمرد في فرقتين بالجيش المصري في السودان على اثر صدور أمر نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته، فأبت الفرقتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة في الجيش وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا إلى مجلس تحقيق لمحاكمتهم وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من



obeikandl.com

الضباط من خدمة الجيش، وهم اليوزباشي محمود أفندي مختار. واليوزباشي حسن أفندي لبيب. والملازمون الأول مصطفى لطفى. وصالح زكي. محمد أفندي توفيق يوسف. والملازمان الثانيان عبد الحميد شكري. وإدريس أفندي عبد الله وإحالة اليوزباشي محمود أفندي حلمي إلى المعاش. والملازم الثاني أحمد أفندي شاكر (بك) إلى الاستيداع. وتوبيخ الملازمين الثانيين عثمان أفندي عارف (بك) ومصطفى أفندي محمود الشامي [1].

وقد أستحضرهم الخديو وعنفهم على ما وقع منهم، وأبدى تأييده للسردار ونجت باشا.

## زيارة الخديو للسودان

وفي أواخر سنة ١٩٠١ زار الخديو السودان، فوصل الخرطوم في ٣ ديسمبر واستقبل استقبالا رسميا حافلا، وأقيمت له حفلة ترحيب أمام سراي الحاكم العام حضرها كبار الضباط والموظفين ونخبة علماء البلاد وأعيانها، وألقى السير رينلد ونجت باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان خطبة ترحيب بمقدم الخديو، فرد عليه بالخطبة الآتية:

" إني أشكر الخطاب الذي حييتموني به وأؤكد لكم بأني أعد من أعظم مسراتي رؤيتي إياكم في هذه البلاد الشاسعة التي قربتها من السكة الحديد العجيبة التي ملأتني ارتياحا وابتهاجا.

"الآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التي لاقاها من كانت لهم يد في الحملات التي كانت نتيجتها محو سلطة عبد الله التعايشي وإعادة العدل والراحة والسكون في جميع أنحاء السودان.

"الَعلمان الإنجليزي والمصري اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما إشارة إلى الحكومة المشتركة التي أخذت على عاتقها حماية الأهالي من الوقوع في شرك أهل الظلم والفساد، وابتداء عصر هدوء وسعادة في هذه الديار، ولقد سرني أيضًا ما أشاهده من تقدم مدينة الخرطوم في العمران، واعتقدوا أني سأحفظ لكم أحسن ذكرى لاحتفائكم بي في هذه الزيارة الأولى، وإني ليشملني السرور كلما سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم في الرفاهية التي أرى شواهدها بدت في كل الأرجاء، هذا وإني أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النياشين على بعض كبار علماء الدين وسأنعم بها فيما بعد على الضباط والموظفين والأهالي الذي يعرض لي عنهم سعادة السردار والحاكم العام بناء على التقارير السنوية التي ترد له من المديريات، ثم اكرر شكري لاحتفائكم بي احتفاء صادرًا عن حسن نية وخلوص طوية".

---

(١) تلقينا هذا البيان من المرحوم الأميرالاي محمود بك حلمي إسماعيل. فله مني جزيل الشكر.



obeikandl.com

وتعد الخطبة في مجموعها إقرارًا لاتفاقية السودان ولنظام الحكم المشترك الذي قضت به، وصعد الخديو في النيل الأبيض ثم النيل الأزرق، وعاد إلى الخرطوم وبرحها إلى مصر في يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٠١.

## افتتاح سكة حديد بور سودان

## (يناير ١٩٠٦)

بور سودان هو ثغر قائم على شاطئ البحر الأحمر على مقربة من سواكن، وقد عمل الإنجليز على إنشائه لكي يكون ميناء السودان، ويعرف قبلا باسم (الشيخ برغوث) وكان مرفأ صغيرًا لا يصلح لإيواء سفن الملاحة، ثم زاره المستر ويليم جارستن مستشار وزارة الأشغال واقترح جعله ثغر السودان بدلاً من سواكن، فأقرت الحكومة الإنجليزية رأية، وأخذت حكومة السودان، (بأموال مصر) تصلحه، وشيدت فيه المباني والمنشآت، وأسمته (بوسودان) واحتفلت يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٦ بافتتاح السكة الحديدية التي تصله بالنيل، وكان الاحتفال برئاسة اللورد كرومر معتمد انجلترا في مصر، ولم يحضره أحد عن الحكومة المصرية، وقد ناب اللورد كرومر عن الخديو في هذا الاحتفال، فكانت الحفلة انجليزية محضة تجلت فيها لسيطرة الإنجليزية في السودان، واستبعدت فيها مصر وحكومتها بشكل مهين.

***

obeikandl.com

# الفصل السابع عشر

# مصطفى كامل و الخديو عباس الثاني

obeikandl.com

بدأت نشأة مصطفى كامل الوطنية عام ١٨٩٠ كما أسلفنا، وتقع هذه السنة في أواخر عهد الخديو توفيق. قبل وفاته بعامين، فتاريخ هذه النشأة يدل على أنها غرس إلهام الفقيد وعبقريته، إذ لم يكن في ذلك الحين عوامل أخرى تساعد على ظهورها، ثم تلوى عباس الثاني مسند الخديوية في يناير سنة ١٨٩٢ وهو في الثامنة عشر من عمره، وقلبه مملوء آمالا كبارًا في أن تسترد مصر استقلالها في عهده، وساءه أن رأى الإنجليزي قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها، فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المروع، ورسم لنفسه في أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطاني، وفي الحق أنها سياسة قومية ممدوحة تدل على ميول وطنية طبيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتًا ما يغامر بعرشه.

وجد الخديو عباس في مصطفى كامل الزعيم الوطني الشاب الذي استطاع على حداثة سنه أن يحمل علم الجهاد، فأعجب بهذه الشخصية الفذة، إذ وافقت ميوله وآماله في بداية حكمه، فأمدها بالمال والتأييد وقتًا ما، ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بين مصطفى كامل والخديو عباس، وفي السنوات الأولى من حكمه ومن واجب المؤرخ المنصف أن يذكر هذه الحقيقة، ويعدها مأثرة لعباس الثاني، فإنه قام من هذه الناحية بقسط محمود في تأكيد الحركة الوطنية، والملوك والأمراء في كثر من المواطن لهم فضل على النهضات القومية في مختلف نواحيها الوطنية والسياسية والاقتصادية، أو العلمية والاجتماعية، أو الأدبية والفنية.

ساهم إذن الخديو في الحركة الوطنية وقتا ما بماله ونفوذه الأدبي، على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك، ثم التقاطع، بسبب عدم ثبات الخديو على خطة واحدة، واستماعه إلى الوشايات والدسائس، وكانت ميزة الفقيد أنه احتفظ باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو، ورأي في استقلال الحركة الوطنية عنه ما يزيدها قوة وروعة كتب في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٨٩٨ يقول:

"باريس في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨.

"أخي الأمجد الفريد أعزه الله

"أقبلك ألف قبلة، وأهديك أطيب تحية، وصلني بالأمس خطابك الكريم كما وصلني يوم الجمعة الماضية ما طلبته منك، فلك الشكر مزدوجًا، شرّف العزيز وسافر، وتشرفت بمقابلته مرات– هذا الخبر لك وحدك– وعلمت منه أمورًا جمة سرتني للغاية، وشرحت صدري، وحققت لي أن الملل ملء فؤاده، وأن ليس لليأس عليه سلطان، وسأقابله مرة أخرى في الشهر الآتي، وقد

قابل هنا وهناك كل ذي شان وكل عظيم، واستمال من لا يستمال، فله من الود والإخلاص والحب الحقيقي، وإنه لجدير بأن نتفاني في محبته، ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئًا، ولو أن سفري لألمانيا سيكلفني كثيران وذلك لأني لا أود أن أجعله يرتاب في إخلاص الخاص له، وسأبذل جهدي بعد عودتي للوطن المحبوب في أن أكون مستقلا غاية الاستقلال لنزداد عنده مكانة ونفوذا".

وهذا الخطاب (الذي نشرنا صورته بالزنكجراف ص ٣٤٤) يلقي شيئا من الضوء على علاقة مصطفى كامل بالخديو، ويدل على إخلاص الفقيد وإبائه وعلو نفسه، وليس يخفى أن الخديو قد فترت صلته بالحركة الوطني، وتزعزعت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة، وضعف أمله في الجلاء، فأخذ في التحبب إلى الاحتلال والنزول على إرادته، وبعدت الشقة تبعًا لذلك بينه وبين الفقيد، على أن مصطفى كامل كان يرى بثاقب نظره ألا يقع الانقسام بين الأمة والخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام، كما استفاد من الخلاف الذي شجر بين توفيق والعرابيين، لذلك كان يعمل دائما على إيجاد جو من التفاهم بين الخديو والأمة، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش، على الرغم من اختلاف وجهتي نظرهما.

oberkandl.com

## (كتاب الفقيد إلى فريد بك في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨)

obeikandl.com

# قطع علاقته بالخديو خطاب ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤

ثم جاء الاتفاق الودي بين انجلترا وفرنسا في ابريل سنة ١٩٠٤، وظهر انحياز الخديو بشكل واضح إلى الاحتلال فرأي أن يقطع علاقته به وأعلن في اللواء [١] أنه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد أن عليه شيئًا من المسئولية في جهاد السياسي. قال في هذا الصدد: "إن المخلص في عمله يجب أن يؤدي الواجب عليه ولو ضحى في سبيله مصلحته الذاتية وأعز ما تميل إليه نفسًا" وقال:

"وإني لا أشك في أن كل قارئ بل كل مصري عرف خطتي وخبر مبادئ يدرك حقيقة مسعاي ومقصدي، ويعلم أني لم أطلب بذلك غلا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذي لا تتغلب عليه الأيام، والعقيدة الراسخة التي قد تتحول الجبال وهي لا تتحول".

وقال في حديث له في جريدة (البول مول جازيت) الإنجليزية في ديسمبر سنة ١٩٠٦: "لما رأيت رغبة سموه في توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته، وجدت من واجباتي أن أكون بعيدًا عن سموه" [٢].

وقد أرسل عقب عودته من أوروبا سنة ١٩٠٤ الكتاب الآتي إلى الخديو، يصاحبه فيه بموقفه حياله. قال:

" موالاي

" تشرفت في ديفون بالمثول بين يدي سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضي (سنة ١٩٠٤) ورفعت إلى مقامكم السامي أن الحالة السياسية الحاضرة تقضي علىّ بأن أكون بعيدًا عن فخامتكم، وأن أتحمل وحدي مسئولية الخطة التي أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين، منعا لتدير خاطركم الشريف، ودفعًا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع.

"وقد رأيت يا مولاي بعد التفكير أنه صار من المحتم علىّ القيام بهذا الواجب وأنه أول عمل يلزمني تأديته عقب عودتي إلى الوطن العزيز، لأن الإنجليز أظهروا في خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالي ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم في الصباح والمساء بجانب سموكم داعيًا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود.

---

(١) عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٤،

(٢) اللواء عدد ٢٦ ديسمبر ١٩٠٦.



obeikandl.com

"وإني بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التي تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمحني إياها، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودي الذي نالته مدام جولييت آدم من لدنكم، وتصريحهم بأن انجلترا لا تسمح لجنابكم العالي بإكرام من يعاديها، وإدعائهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موز به من سموكم، اعد نفسي مقصرًا تقصيرًا حقيقيًا في تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتي يسموكم على حاله وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة.

"وإني أرجو أن يعتقد مولاي، حفظه الله، أني لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين، ويدخلون اسمكم الكريم في كل حادث، غير حاسبين للرأي العام حسابا، وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد، وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطا بالاحترام التام والإجلال العام، ليقاوم القوتين المحاربتين له إلا وهما الاحتلال والزمان.

"وإنه ليحلو لي أن ابقي إلى آخر لحظة من حياتي خادمًا لتلك المبادئ الوطنية العالية التي كنت سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها، وأن تزداد كل يوم اتساعا الهوة التي بيني وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء.

"وإني أتشرف يا مولاي بأن أرفع إلى سدتكم العلية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامي رعايتكم، وأقدم إلى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والإعظام".

وهذا الكتاب يدل على إخلاص الفقيد في جهاده، وهو لعمري صفحة مشرفة من الشجاعة الأدبية، لأن مجاهرة الخديو وهو وقتئذ رئيس البلاد الشرعي بقطع علاقته به، ومقاومة الاحتلال وهو في أوج سلطانه، كل أولئك عمل يقتضى حظا كبيرًا من الجرأة والاستقلال، ولا يقدم عليه غلا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية، على كل اعتبار للمصلحة الشخصية.

وفي الحق إنه لم يكن ممكنا أن يستمر مصطفى كامل على اتصاله بالخديو، لأن عباس الثاني قد عرف عنه عدم الاستقرار في الميول والخطط والآراء، وقد تغيرت نفسيته كثيرًا من يوم أن تراجعت فرنسا في حادثة فاشودة وبخاصة حين عقدت وانجلترا ذلك الاتفاق الودي الذي تعهدت فيه بأن لا تضع العقبات أمام انجلترا في مصر، فهذه الصدمات السياسية التي لم تنل من مصطفى كامل قد كان لها تأثيرا عكسي في نفس الخديو، وألقت اليأس في قلبه من نجاح سياسة مقاومة الاحتلال، فانصرف إلى حياة المال والمتاع، والمال كثيرًا ما يفسد النفوس ويغير من الطباع.

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديو في استهجانه إحالة حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي إلى المعاش، إذ أظهر أسفه على حرمان هذا المنصب السامي من رجل اشتهر بالنزاهة والكفاية، وقد كان إحالته إلى المعاش بأمر الخديو بسبب موقفه الشريف في الحادثة المعرفة بحادثة مشتهر وخلاصتها أن احد الماليين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديو (هو المسيو زرفوداكي) عرض على ديوان الأوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشتهر التابع للأوقاف والذي كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه، وعرضت صفقة البدل على مجلس الأوقاف الأعلى، وكان حسن باشا عاصم من أعضائه، فرفض إقرار الصفقة برغم أنها كانت تهم الخديو، فكان موقفه وهو رئيس الديوان دليلا على استقلاله ونزاهته [1]، وكان انتقاد الفقيد إحالته إلى المعاش تحديا للخديو معالنة له بالعداء.

وانتقد أيضًا وقوفه تحت العلم البريطاني في حفلة استعراض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين في نوفمبر سنة ١٩٠٤، ولم يكن يحضرها من قبل، حتى اضطرت المعية إلى إصدار بلاغ رسمي تنسب فيه حضروا الخديو هذه الحفلة إلى المصادفة (أنظر ص ١٨٩)، وانتقد انصرافه إلى مصالحه الخاصة في مقالة له بعدد ١٠ إبريل سنة ١٩٠٤ من اللواء لمناسبة اعتراضه على طلب المجلس النيابي من الإنجليز ووجوب طلبه من الخديو، إذ قال:

"إن سمو الأمير هو المطالب وحده بإعطاء مصر مجلسًا نيابيًا، وبرفع صوته في هذا الشأن، والجهاد في سبيله حتى تناله الأمة، أما الذين يعلنون بأعماله وأقوالهم أن سمو الأمير أصبح عديم الحول والقوة وأن لا ملجأ للمصريين إلا انجلترا والإنجليز وأنه يجب عليهم ألا ينتظروا من أميرهم شيئًا، ويشيرون على سموه بإهمال أمته وصرف أوقاته وكل مجهوداته لمصالحه الخاصة دون المصالح العامة، فهم ألد أعداء البلاد، وهم الذين يمكنون المحتل فعلاً ويهددون عرش الخديو حقيقة".

ومن يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤، وهي آخر مقابلة له بالخديو، انقطعت علاقته به، وان انقطاعه عنه مما زاده منزلة ورفعة، إذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو أكثر من ذي قبل، ولما أصدر الفقيد جريدتي ليتندار اجبسيان الفرنسية وذي اجبشيان استاندرد الإنجليزية في أوائل سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الإنجليزية من ظهورهما واتهمت الخديو بالمساهمة في رأس مالها فنشر الفقيد ردًا على هذه المفتريات أسماء المساهمين في رأس مال الجريدتين ومقدار

---

(١) اللواء عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤.



obeikandl.com

ما اكتتبوا بـه، فكان هذا الإعلان قاطعًا في إثبات أن لا علاقة للخديو بظهور الجريدتين، ولا صلة له بهما.

ولما استقال اللورد كرومر في إبريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير إلدون جورست اشتد انحياز الخديو عباس إلى السياسة البريطانية، وظهر هذا التحول في حديثه مع المستر ديسي الذي نشرته جريدة الديلي تلغراف في مايو سنة ١٩٠٧، إذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال، وذكر اللورد كرومر بالخير، وصرح بأن المعتمد البريطاني لا يستطيع حكم مصر وحده، وأنه مستعد للتعاون معه، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال، وأن الاحتلال البريطاني أفضل من أي احتلال آخر.

ومعنى هذا الحديث في مجموعه أن الخديو يصرح بأنه يرغب مشاركة المعتمد البريطاني في حكم البلاد حكمًا مطلقًا، فلم يحجم الفقيد عن انتقاد هذا الحديث انتقادًا حازمًا، برغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة، قال في هذا الصدد:

" مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالي لا تقيدنا بأي حال من الأحوال، لأن مركز سموه غير مركزنا، على أن كل مصري صادق الوطنية لا يقبل مطلقًا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد المعتمد البريطاني، أو بيد الاثنين معًا، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية [١]".

وقال في موطن آخر:

"قد قلنا مرارًا إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال فهو إن قال كلمة في صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه، واستمال أمته إليه، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه، ونفر أمته منه، ولكنه في الحالتين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود، ومثل هذه النهضة لا يضرها إنسان مهما كان قويًا عظيمًا [٢]".

وقال: "إن مصلحة الشعب المصري تقضي بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالي، حتى يعلم العال مكله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعاً لعواطفهم وشعورهم، إصلاح

---

(١) اللواء ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧.

(٢) اللواء ٢٧ مايو سنة ١٩٠٧.



obeikandi.com

حالة بلادهم وترقية شؤونهم ومنحهم الدستور، وأن هذه المطالب ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير".

وقال في مقال آخر:

" لقد اتهموا الحزب الوطني تارة أنه موحي إليه من الدولة العلية، وطورا من ألمانيا، وتارة أخرى من سمو الخديو، وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل، وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها، فحان الأوان أن نهنئ أنفسنا".

وكتب من (نيو هوزن) في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ إلى المغفور له محمد بك فريد (نشرناه بالزنكجوغراف في الصفحة التالية) بدل على مبلغ استيائه من خطة الخديو، وتحبيذه الابتعاد عنه، قال:

**(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧)**

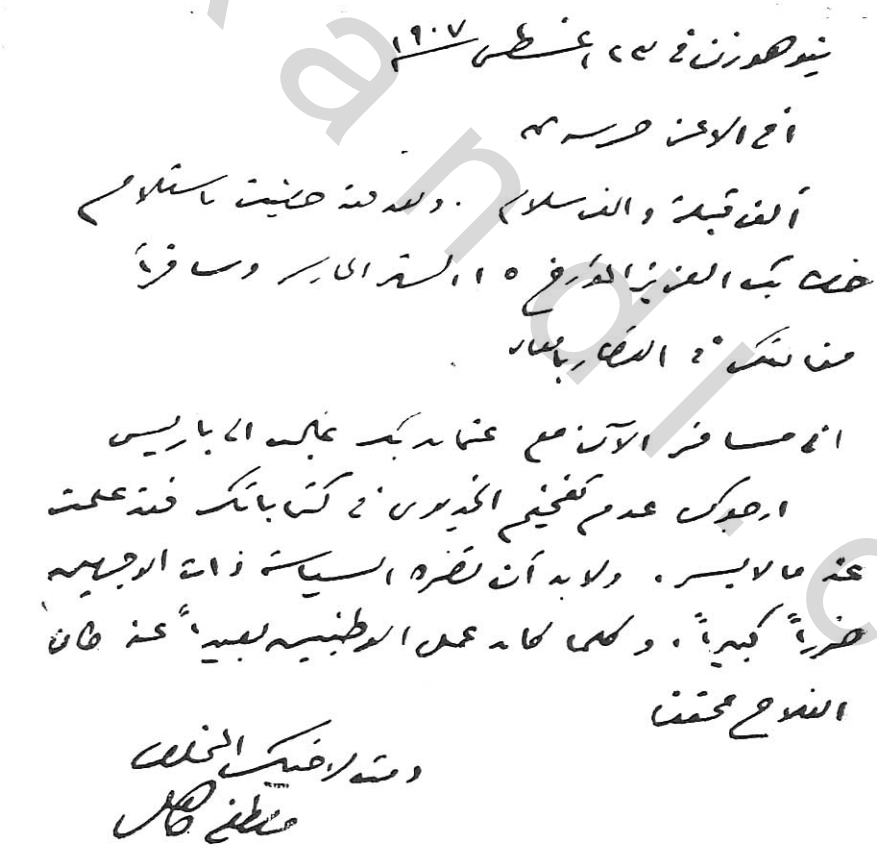

"أخى الأعز حرسه الله.

"ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد خطيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجاري، وسأقرأ مقالتك في القطار بإمعان لأني مسافر الآن إلى باريس.

"أرجوك عدم تفخيم الخديو في كتاباتك، فقد علمت عنه ما لا يسر، ولابد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضررًا كبيرًا، وكلما كان عمل الوطنيين بعيدًا عنه كان الفلاح محققًا".

فهذه الأقوال التي كتبها في الصحف أو رسائله الخاصة تدل على عقيدة راسخة في الواجب الوطني الذي اضطلع به، وترسم لنا صورة رائعة لتلك النفس الكبيرة التي سمت بالحركة الوطنية، وجعلتها قوية بذاتها مستقبلة بمبادئها محتفظة بكرامتها، قوامها الإخلاص لمصر والنهوض بها إلى الاستقلال والحرية.

## في مذكرات الخديو عباس الثاني

## عن مصطفى كامل

توفى الخديو عباس الثاني سنة ١٩٤٤ بجنيف، وقد دون مذكرات مطولة قبل وفاته عن حياته وسني حكمه، نشرت صحيفة المصري فصولاً منها سنة ١٩٥١، وقد تناول فيها الحديث عن مصطفى كامل وعلاقته به، وأثره في بعث الحركة الوطنية، ويطيب لي أن أورد هنا ما دوّنه عن الفقيد في هذه المذكرات الهامة.

قال تحت عنوان "مصطفى كامل":

" كان مصطفى كامل هو الذي بدا نشر الفكرة الوطنية في شباب مصر، وهو الذي هز الروح المصرية فأيقظها من غفوتها.

"كان محي الوطنية المصرية، ورسول تلك الفكرة التي كانت قد خنقت في مهدها، ولكنها ظلت تسعى إلى الأمام، وقد كسب لعقيدته ولحزبه أغلبية الموظفين، وأعيانًا ومثقفين، وإجماع الطلبة والعمال. كان فتى خلع عليه الشباب كل نعمة، بما فيها نعمة الوهم المقدس، وان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المادية، وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذي لم تكن هالات المجد ترفع فيه إلا على القبور، ولا يعرف شيئًا عن الوضاعة والمساومات السياسية.

"كان بسيطًا ومستقيمًا، وتحت مظهره اللطيف كانت تختبئ روح متفتحة لكل الأحاسيس، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان، وزانه الله بالحجج، وكانت بلاغته واضحة وحارة، وكان أسلوبه الرشيق، العامر بالصور، ينتقل من البساطة الإنجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع



obeikandi.com

العظيم، وقد أوتي موهبة الإقناع وسحر الإشعاع الذي يؤتاه الحواريون والأنبياء وكان الحب الذي يكنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله.

"وليس من شأني أن أسجل حياة ذلك الحواري الرفيع الذي كانت براءته الطاهرة- بقدر ثقافته وجدارته- قد فتنت به الجماهير، ولكني لا يسعني أن أرد نفسي عن توجيه تحية الإجلال إلى ذكرى وطني أدين له بساعات فائقة الجمال، ومن المؤكد أنه كان في بعض الأحيان يضايقني، فإننا على اتفاقنا الدائم في الهدف، لم نكن دائمًا متفقين على الوسائل.

"وكان شباب الزعيم الوطني يسمح له بأن يسترد خطاه ويتطور في لطف حول الأخطاء التي يحفل بها الشباب، وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة صحية الزهو الذي يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ويحسون أنها معلقة بأفكارهم، وقد كان مصطفى كامل، فيما عدا موهبته الفذة كخطيب وكاتب، وطموحه المشروع، على خصال وطيدة كانت تكفل التقدير حيثما ذهب، كانت له موهبة الملاحظة التي نماها اختلاطه برجال السياسة في مصر وفي الخارج، وكان يفهم، وقد درس وعاش في أوربا، إن بلدًا طامحًا إلى الازدهار يجب أن يسهر بعناية على علاقاته مع البلاد الأجنبية، ولم يهمل مطلقًا ذلك الرأي، فكان صوته بذلك يذهب بعيدًا، وكان يسمع فيما وراء النيل، وكان قد عرف كيفي يهيئ لنفسه في أوربا، وفي فرنسا خاصة، صداقات فعلية، وفي أخريات حياته كان صوته قد بدأ يسمع في انجلترا.

"كان نافعًا لوطنه، وكنت أقدره حتى عندما كان يستحيل على أن أتبعه، عن مهمة الحكم ليست دائمًا بالسهلة، ففي الوقت الذي يشاء فيه الحاكم أن يطيع صوت قلبه، يجد نفسه مضطرًا إلى الإذعان لحق الدولة، ولقد كان مصطفى كامل حريصا وكنت أمنحه تأييدي المطلق، كان يقول بدلاً مني ما يجب قوله، وما لم يكن في الوسع قوله باسمي.

"وإذا كان قد حدث في بعض الأحيان أن اتجاها غير صائب قد عكر صفو عطفي الذي كان في أغلب الأحيان يذهب إلى حد التعاون معه، فإن سواء التفاهم كان دائمًا يزول سريعًا، إذ يطرد سحائبه الولاء المتصاعد من قوله ومن عمله، إن فضل مصطفى كامل العظيم هو أنه قد حدد المثل الأعلى للأمة، وشجع الجماهير إلى السعي إلى هذا المثل الأعلى، ولكن وطنيته كانت تبلغ أحيانًا حد التصلب، وأكبر ما كنت آخذه عليه أنه ظل مبتعدًا بنفسه وبإرادته عن جميع أولئك الذين كانوا يكافحون حول الراية نفسها ولنفس القضية، وكنت قد حلمت بتقرب بين الشيخ على يوسف ومصطفى كامل، ولكني لم أستطيع مطلقًا أن أحقق هذا الأمل إذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء، المبالغ فيها، ولقد كان يسعهما أن يتفاهما دون أن يتحابا، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفي لكي يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير.

"لقد كان مع مصطفى كامل الشباب، والطلبة، والمستقبل، على حين كان الشيخ على يوسف يتمتع بالنفوذ على أصحاب المراكز الاجتماعية الهامة، لو أنهما تضامنا! أي شيء كنا نعجز عن تحقيقه، لو أننا وضعنا حماسة أحدهما في خدمة تجربة الآخر!

" وإذا كان مصطفى كامل قد تجلى في أغلب الأحيان في وصرة الحواريّ، فليس فقي هذه الدنيا، مع الأسف، سياسة بلا أخطاء، وما كان مصطفى كامل إلا بشرًا، ومع ذلك فلقد ترك عند موته نموذج حياة كرسها صاحبها كلها لتحرير مصر، وإن جدارة زميله على يوسف – لو أنه كان قد عرفه– ما كانت لتقلل من شأنه، وما يجدر أن يتشاجر الناس على المجد، عندما يخشى أن يكون الوطن نفسه فدية المعركة.

"وكان هذا المتضرم هوى ببلاده، الذي قدر له أن يموت في زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح ماسته بقليل من التجربة، قد حصل على معظم ما تمنى من رضاء ذلك النجاح الطيب لرسالته الوطنية، وما من ريب في أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه، ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشيخ على يوسف الشرقية، لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين.

"كان مصطفى كامل، كلما وسمه العمر بطابعه، يغدو أكثر قلقًا وأكثر إحساسًا بشخصيته، وكانت مبادئه السياسية– بعد أن عانت بضعة تعديلات– قد غدت مصرية دقيقة في مصريتها، وإذا كان قد تكلم أحيانا عن تركيا أو وجه إلى أوروبا نداءاته المجلجلة فما كان ذلك إلا ليخفي ثورة لو أن تلاميذه لمحوا منها شيئًا لكان في ذلك ما افقده سلطته.

"ولعل التعهدات المتتابعة التي طبعت نشاطه كانت قد نسقت، ولم يكن يريد أن يقطع صلته بالماضي دون فترة انتقال، وكان يخشى أن يعرض النتائج التي حل عليها للخطر، إذ هو بدا في صورة المجدد المبالغ في تجديده.

"وأيا ما كان الأمر، فإن أساس تعليمه لم يكن في الحقيقة عصريا مفرطا في عصريته، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقي مما يعتقد أكثر الناس.

"كان قد جرد وطنيته من كل رداء ديني، ولكنه ظل متدينا ومتعلقًا بروح القرآن، أما أعلى يوسف، فغنه برغم ثقافته الدينية البحت، قد عرف كيفي تخلص من الطابع الإسلامي، الذي بقي عند مصطفى كامل، ومع أنه تربى في أوربا، فلقد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة، ولكنه لا يعتبرها غاية في حد ذاتها.

"ومات الزعيم الشاب للاستقلال المصري دون أن يحقق خطته، وربما دون أن يكون قد حدد خطوطها الأخيرة، لقد كان على الخص محي الروح الوطنية.



obeikandl.com

"وكانت جنازته رائعة، ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه، وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذي حمل زعيمهم إلى مثواه، أولئك الأنصار الذين غدوا، وقد مات الزعيم الخلفاء على تراثه الوطني.

"كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبا، وقد صار هذا الشعب وراث مثله الأعلى"

وقال الخديو عباس في موضع آخر:

"لقد قيل، في أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة، أني كنت خصمه، وقيل أيضًا أنه كان صنيعتي، وليس هناك ما هو اشد بعدًا عن الحقيقة من هذا الذي قيل، إن مصطفى كامل لا ينتمي إلا إلى نفسه، ولقد كان رجلا من الصفوة، عاش بإيمانه، ومات بإيمانه، أما أنا، عباس حلمي، فإني ما كنت أبدا خصمه، وما كنت أبدًا وحيه، ولم يكن صنيعتي، بل رائدًا وجنديا يحارب تحت راية مثله الأعلى الذي كان العجائز يرونه زندقة وإلحادا ويتبعه الشباب في حماس فائر، وإن قلمه البليغ، و (لواءه) المناضلين قد صارا إحدى مفاخر عهدي.

"ومع أن كل شروع في عمل بالمعنى الذي حلم به مصطفى كامل كان يعترضه دائمًا وجود الوكلاء البريطانيين وأرادتهم، فإن عهد حكمي كله قد تأثر بمجهوده الوطني، وأذكر على سبيل المثال إنشاء الجامعة المصرية الجديدة التي وضعتها تحت رياسة عمي الأمير أحمد فؤاد، لمنحها استقلالا حقيقيًا، فهي الدليل الذي لا ينقض على ذلك، لأنها كانت من وحيه، فإن أول من فكر في الجامعة هو مصطفى كامل".

وقال في موضع آخر:

" عن الروح الوطنية قد تحددت بوجه خاص في عهدي، وقد ظفرت تلك الروح في إخلاص أكثر زعمائه جلدًا وبلاغة – مصطفى كامل– وفي موهبته بما آتاه برنامجًا محددًا.

"يومذاك كنت أمسك بيدي محركات عنصري الوطني المتفرقين المتنافرين الحزب المحافظ، حزب أعيان البلاد الذي يأتمر بأمر الشيخ على يوسف، وحزب الشباب المتطرف بزعامة مصطفى كامل، وكان معنى الوطن عند كل هاتين الجماعتين مختلفًا عن الآخر، فهما لا تستطيعان تحقيقه في صورة موحدة، ولا في لحظة واحدة.

"وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين، وصار لزامًا علىّ أن أسعى عند كل منهما سعيًا خاصًا به، وكان هذا ما جعل البعض يقول: إني كنت أقوم بلعبة مزدوجة.

"ولكني على العكس من ذلك، كنت أبغي أن أتجنب– ما وسعني ذلك– ترك هاتين القوتين المتنافستين إحداهما إزاء الأخرى، وأن أحد من الانشقاقات في كل منهما، مستدركًا ما عساه أن يحدث من اختلال.

"وكنت أحرص قبل كل شيء على ألا تبدر مني بادرة تفضيل قد تثير غيرة تجعل أحد الحزبيين ينهض لعداء الآخرون وكان تفضيلي مع المعتدلين ولكني كنت أفهم المتطرفين، ولم استخدم لنفسي لا هؤلاء، ولا هؤلاء، ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال.

"وقد كان موقفي سببًا في أن يقال غني لم أكن مخلصاً لا للوطنيين ولا للإنجليز، ولكن تقلباتي الظاهرية لم يكن لها غير دافع واحد وهو دافع شخصي على كل حال، لم أكن رفيقًا بالحزب الوطني عندما كان يندفع إلى شيء من العدوان، ولكني لم أكن رفيقًا أبدًا ببريطانيا العظمى التي كانت تنشب مخالبها باطراد كلل يوم في الأرض المصرية، وهذا الدافع الوحيد كان حبي لبلادي".

"لست أبغي أن انشر هنا من جديد فصول تلك المأساة، فإن من المعروف أن الضباط الإنجليز المشتركين في المناورات كانوا ينتهزون فرصة أوقات فراغهم كي يخرجوا للصيد، فيقتلوا في القرى الحمام الأليف، ويحملوه ملء الحقائب، وأن الأهالي قد قاموا، وتبادل الفريقان الضربات فلاذ أحد الضباط بالفرار خلال المروعات، ومات متأثرًا بضربة الشمس، وعاد بعض الجنود إلى القرية ليقتلوا المزارعين الوادعين، قبل أن يحملوا النبأ إلى رئيسهم.

"ولم يكن في الأمر، إلى ذلك الحد، غير حادث يؤسف له حقًا، ولكنه ما كان لينتهي بتلك المذبحة الفظيعة التي تلت المحاكمة التي أقيمت بها المحكمة الخاصة لو أنه عولج في اتزان، ولم تخن الجميع أعصابهم، وكان كبار الموظفين الانجليز في إجازة كما كان الجنرال قائد القوات غائبًا، وأكبر الظن أن ذلك الذي كان يقوم مقامه كان متحمسًا ومتطرفًا، فقد أضفى على الحاث ثوب المأساة، كما أن ممثل اللورد كرومر لم يحسن فهم المسئوليات التي أخذها على عاتقه.

"إني ليستثير ألمي أن أفصل القول في هذا الحادث الذي حمل إليّ البرق نبأه أثناء استشفائي في فيينا، فلقد هز نفس أعنف هزة، سواء من جهة الوقائع التي رفعت إليّ، أو من جهة موقف الحكومة المصرية.

"لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم في الكفة الأخرى بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم.

"وليس مما يغتفر للانجليز، بلا ريب، أنهم شكلوا محكمة استثنائية، كي يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرما إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم ولكن جرمهم في ذل لا يقاس بجر أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الاشتراك في تلك المحكمة، وأباحوا للدول المحتلة تلك الترضيات التي ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة.

"إن الوزراء المصريين لم تبدو منهم بادرة للتخلص من ذلك الرف المحزن، شرف محاكم مواطنيهم، ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة.

" لقد ضحوا للأجنبي، دون احتجاج، ودون تردد، بأولئك التعساء الذي عهدوا إليهم بمصيرهم، والذين كان عليهم أن يستمعوا غليهم قبل الحكم عليهم، ولم يشر أحد إلى الظروف المخففة لعلم كان أكثر الجرائم استحقاقا للعفو، وكان فوق ذلك، قد تم من قبل الانتقام له.

"ولا يفوتني أن أسجل أن المقال الذي نشره مصطفى كامل في جريدة "الفيجارو" الباريسية في ١١ يوليه سنة ١٩٠٦ قد أحتث دويًا عظيمًا، وأثار ضمير العالم.

" لقد كان ألمي لذلك الأمر كبيرًا وفادحًا، وكم عكر صفوي ليال طويلة، ولم يكن الاندفاع الانجليزي وضعف الحكومة المصرية قد سمحا لي بفرصة التدخل إلى وقت القضية.

"ولقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا حادث دنشواي الذين لم يشنقوا، ولكن اللورد كرومر أبى قائلاً إن في ذلك مساسًا بشرف الجيش البريطاني، وكان علىّ أن أنتظر السر إلدون غورست كي أصلح من اثر ذلك الشر.

"وكانت لندن، بعد حادث دنشواي المحزن، قد انتهى بها الرأي إلى استدعاء اللورد كرومر.

" كان الإنجليز قد أدركوا آخر الأمر، كلما جرت الأحداث، ولما أثارته الدعاية الوطنية عند الشعب من حركة لا تقاوم، أن يوما سيأتي فيغدو جيشهم الذي يحتل مصر غير كاف للمحافظة على الأمن في البلاد، أو لحماية نفسه من هجوم خارجي.

"فلنطو هذه الصفحة، ويكفي أن الصحافة الإنجليزية والتاريخ قد فضحا منذ ذلك الحين – سفاحي دنشواي، أولئك الذين سلموا المتهمين المساكين للجلادين، خارج القانون، وخارج الإنصاف والعدالة، ولشتى صنوف التنكيل".

وهذا الذي كتبه الخديو عباس الثاني في مذكراته عن مصطفى كامل لصفحة فخار للزعيم العظيم.

# الفصل الثامن عشر

# مصطفى كامل وتركيا

obeikandl.com

أساء بعض الكتاب تصوير خطة مصطفى كامل نحو تركيا، فزعموا أنه كان من أنصار السيادة العثمانية، لذلك نرى لزاما علينا أن نضع الأمور في نصابها ونبين حقيقة خطته في هذه المسالة المهمة.

إن مركز مصر الشرعي لغاية الحرب العالمية الأولى كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠، والتي تعتبر صكًا دوليًا التزمت الدول باحترامه، وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول، وضمان عرش مصر في أسرة محمد على، وبقاء السيادة العثمانية عليها، وفي سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطاني، فعصف بالاستقلال المعترف به لمصر في تلك المعاهدة، ونزل بها إلى مرتبة المستعمرات التي للحاكم العام البريطاني فيها مطلق التصرف في شئونها، فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية كان واجبًا عليه أن يحصر جهاده ضد الاحتلال البريطاني، لأنه رأي بحق أن الجلاء هو الرمز الحقيقي للاستقلال، أما السيادة العثمانية فإن التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال، وبخاصة لأن هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء، إذ لم يكن بقي من مظاهرها سوى الجزية التي كانت مرهونة للبيوت المالية الأجنبية من دائني تركيا وتحولت إلى هذه البيوت لغاية سنة ١٩٥٥.

من أجل ذلك لم يجد مصطفى كامل من الحكمة أن ينادي في وقت واحد بجلاء الاحتلال البريطاني وبإلغاء السيادة العثمانية معا، لأن معاداة تركيا في ذلك الوقت من أجل مسألة شكلية ستحل من نفسها، كانت تؤدي حتما إلى انضمام تركيا إلى جانب انجلترا، وتنازلها لها عن سيادتها، وهذا ما كانت تبتغيه انجلترا، فإنها ما فتئت تسعى لدى تركيا لتتفق وإياها على أن تتنازل عن سيادتها على مصر، فلا تبقي أمام انجلترا عقبة دولية تمنعها من إعلان حمايتها عليها، ولقد سعي اللورد دفرين المندوب السامي البريطاني الذي أوفدته انجلترا إلى مصر عقب الاحتلال مباشرة في أن تشتري الحكومة البريطانية من تركيا الجزية التي كانت تدفعه إليها مصر، لتحل انجلترا محلها في سيادتها القديمة، فاعترضه إليها شريف باشا الوزير الكبير، كما رفضت تركيا هذا الحل، وفي الواقع إن سيادة تركيا الاسمية هي التي حالت دون إعلان انجلترا حمايتها على مصر من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٤، ولذلك لم تعلن انجلترا هذه الحماية إلا في ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا في الحرب العالمية الأولى وسقوط السيادة العثمانية على مصر، ويبدو هذا المعنى جليًا في تبليغ الحكومة البريطانية إلى المغفور له السلطان حسين كامل في ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤، على أثر إعلان الحماية، فإنها قد صارحته بأن حقوق السيادة العثمانية قد آلت إليها بعد سقوطها، قالت في هذا الصدد ما يأتي:

"وبذلك تكون الحقوق التي كانت لسلطان تركيا وللخديو السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى جلالة ملك بريطانيا العظمى، ولما كان قد سبق لحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته في بلاد مصر أنها أخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر المصري في الحرب الحاضرة، فقد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التي كانت تدعيها الحكومة العثمانية فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصري جميع الحقوق التي آلت إليها بالصفة المذكورة"(١).

ومدلول هذا التبليغ أن زوال السيادة العثمانية، والاحتلال البريطاني قائم، معناه أيلولة هذه السيادة إلى الدولة المحتلة ومن ثم ازدياد مالها من القوة والسلطان في مصر.

فهذه النتيجة التي وقعت سنة ١٩١٤، هي التي كان يتفاداها مصطفى كامل منذ قام يجاهد في سبيل الاستقلال، كان يتجنب اتفاق تركيا وانجلترا على تنازل الأولى للثانية عن سيادتها، لأن هذا الاتفاق كان ولا ريب يجعل له من النتائج أسوأ مما كان للاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤، ولو هو سعى ونجح في إلغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائم، ولكن ذلك ربحًا حقيقيًا لانجلترا، إذ بذلك كان يتسنى لها إعلان حمايتها على مصر، فتزداد حالة البلاد سوءًا، ويصبح مركز الاحتلال أقوى مما كان، ففكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية وقتئذ كانت هي الخطة الحكيمة لمن يريد أن يجاهد الاحتلال، ويعمل للجلاء أي يعمل للاستقلال الحقيقي، لأن التخلص من هذه السيادة كان أمرًا هينًا بعد التخلص من الاحتلال، وقد سقطت هذه السيادة من تلقاء نفسها خلال الحرب العالمية الأولى، أما أنصار الاحتلال الذين كانوا في خاصة أنفسهم لا يريدون الجلاء، فهم الذين استشكلوا على الفقيد أنه أقر السيادة العثمانية، يضاف إلى ذلك أن أقوى حجة لمصطفى كامل على الاحتلال أنه نقضُ لمعاهدة دولية أبرمتها انجلترا والدول جميعا، وهي معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، فكان بذلك يلزم الانجليز الحجة استناداً إلى هذه المعاهدة، ويطالبهم باحترام شروطها وأحكامها، وقد اتخذ منها وسيلة شرعية ودولية لإقامة الحجة على الاحتلال، والمناداة بعدم مشروعيته، وكانت هذه الحجة أقوى الحجج التي أكسبت قضية مصر الأنصار والأعوان في مصر والخارج، فلم يكن منطقيًا ولا معقولاً أن يحاجج الاحتلال بمعاهدة لندن، ويطلب في الوقت نفسه نقضها فيما يتعلق بالسيادة العثمانية، لن انجلترا كان تغبط بهذا الطلب، إذ أنه يفتح لها الباب للتخلص من أحكام هذه المعاهدة جميعها.

---

(١) التبليغ الوارد إلى المغفور له السلطان حسين كامل من قبل الحكومة البريطانية، الوقائع المصرية، عدد ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤.



obeikandl.com

فموقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفًا قوميًا حكيمًا، وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الأجنبية، فلم يكن ينادي بإلغائها، بل كان يقول باحترامها، لكي لا يستعدي الدول والجاليات الأجنبية في الوقت الذي يجاهد فيه الاحتلال وهو بذاته موقف "الوفد المصري" تجاه الامتيازات الأجنبية فيما بعد.

فقد تألف الوفد المصري في نهاية سنة ١٩١٨ بعد إلغاء السيادة العثمانية فعلا، فلم يكن إذًا هناك من معنى للمطالبة بإلغائها، ومع ذلك فقد تماسك الوفد بهذه السيادة للاحتجاج على اتفاقية السودان، إذ اعتبرها باطلة لأن مصر تملك إبرامها بحكم السيادة العثمانية، ثم إنه فيما يتعلق بالامتيازات الأجنبية (وهي أشد وطأة من السيادة العثمانية) قد صرح في مطالبه ومذكرته إلى مؤتمر السلام أن مصر " تعتبر أن واجبها يحتم عليها أن تضمن للأجانب التمتع بامتيازاتهم بكل دقة".

وألعن في مطالبه " أن مصر تعلن أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة، وإذا كان العمل أظهر أين بعضها يدعو إلى تحويل أليق بمقتضيات الأحوال فأنها تعرض ما يعن لها من وجوه العديل ما عين لها من وجود التعديل التي من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها، وتكون فيهما تعرضه من ذلك واسعة الصدر، غاية في الإخلاص والمجاملة وتتعهد بالبحث في وضع طريقة للمراقبة المالية لا تقل في أهميته بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعًا قبل اتفاقية سنة ١٩٠٤، ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومي".

ولم ينتقد أحد على الوفد المصري هذا الموقف الذي اتخذه بإزاء الامتيازات الأجنبية، بل سوغه الجميع بحق، إذ كان المنطق السياسي يقتضي ذلك، وهو ذات المنطق فيما يلومون على مصطفى كامل من عدم الجهر بإلغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائمة، فإنه ما كان ليستطيع الوصول إلى إلغاء السيادة العثمانية وغلى الجلاء في وقت واحد، بل كل ما كان يصل إليه لو جمع بين الأمرين أن يجعل تركيا وانجلترا صفًا واحدًا في مقاومة الأمة المصرية، ولو تحقق الجلاء فإن إلغاء السيادة العثمانية ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية.

فالمنطق في الحالتين واحد، مع هذا الفارق الظاهر بين السيادة العثمانية والامتيازات الأجنبية، فإن الأولى كانت عقبة شكلية، وكانت سائرة إلى الفناء من تلقاء نفسها، بينما الامتيازات الأجنبية تنشئ حكومات أجنبية مستقلة داخل الحكومات الأهلية تغل يدها في التشريع وفرض الضرائب وإدارة الأمن العام؛ وتقضي بذلك على سلطاتها وعلى سيادتها القومية في الداخل والخارج.

يخلص من ذلك أن الدعوة الصادقة إلى الجلاء كانت تقتضي محاسنه تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بإلغاء سيادتها على مصر، وإرجاء هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكئود التي تحول دون استقلالها وهي الاحتلال، كانت محاسنة تركيا هي إذن السياسة القومية الرشيدة لمن يريد مقاومة الاحتلال، وبخاصة لأن تركيا منذ وقع الاحتلال كانت لا تفتأ تطالب انجلترا بالجلاء، وكانت هي الدولة الوحيدة التي انفردت بمطالبة انجلترا باحترام عهودها في المسألة المصرية، وكان لها مندوب في مصر، وهو أحمد مختار باشا الغازي، جاء سنة ١٨٨٥ ليفاوض الإنجليز في جلائهم عن البلاد وقد قدم تقريرًا سنة ١٨٨٦ اقترح فيه تنظيم الجيش المصري والاستغناء عن الضباط الإنجليز والسردار الإنجليزي، وجهر بضرورة استرداد السودان، ولما أخفقت مفاوضاته في الجلاء بقي في مصر، وكان شعاره "أنه احتجاج حي على الاحتلال" فتركيا كانت تؤيد مصر في الجلاء، فكان طبيعيًا أن يعطف عليها المصريون الراغبون حقًا في الجلاء.

والآن نورد هنا ما قاله مصطفى كامل في أحاديثه أو خطبه ومقالاته توضيحًا لخطته نحو تركيا، فلقد عرض لهذه المسألة في حديث له مع مراسل جريدة (نيويورك هرالد) في خريف سنة ١٨٩٦، وهو الحديث الذي اقتطفنا بعض فقراته في الفصل الخامس (ص ٩٦) إذا سأله المكاتب عن علاقات مصر بتركيا وخطتها حيالها، فأجابه المترجم في صراحة وجلاء بما يأتي:

"إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية وهي السياسة التي يجري عليها الوطنيون الصادقون هي سياسة حسن التقرب منها، وتوطيد العلاقات الحسنة معها، والتاريخ يعلمنا ألا نتبع حيالها غير هذه السياسة، لأنه إذا كان الإنجليز قد احتلوا مصر فالسبب في ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كان مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا وقد نجح الإنجليز في التفريق بينهما بإتباع سياسة ذات وجهين، فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له يعمل لإسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر (محمد على) وافهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ويسعى لخلعه عن كرسي الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية كما كانت قبل الأسرة الخديوية، فلما قامت الحركة العرابية رأى الإنجليز من تمام المهارة وتوسيعًا لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له، فسعوا عند السلطان سعي الصديق حتى حملوه على تقليد عرابي الوسام العثماني الأول، وعرابي هو الذي كان يدعي يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان في مصر، وقد أوغر هذا الأمر صدر توفيق باشا، و ألقاء في أحضان الإنجليز، وها هم الإنجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان، ولكن ما نعهد في أميرنا الحالي (عباس الثاني) من

التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائمًا لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية، وهي السياسة التي في إتباعها سلامة الكرسي الخديوي والوطني المصري".

وأبان الفقيد أيضًا هذه الخطة في خطبته التي ألقاها بالإسكندرية في يونيه سنة ١٨٩٧ لمناسبة الحرب اليونانية التركية واقتطفنا بعض محتوياتها (ص ١٠٧) ودافع فيها عن موقف مصر حيال هذه الحرب وما أبدته من العطف على تركيا.

وكتب إلى مدام جولييت آدم من الإسكندرية يلخص آراءه في هذه الخطبة و وقال في كتابه إليها: "إنك تعلمين خطتي نحو تركيا وما أراه واجبًا نحوها، فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز"، وقد أقرته مدام آدم على هذه الخطة بالرغم من أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان.

ووصف شعور المصريين في حديثه بجريدة (برلينر تاجبلاط) في إبريل سنة ١٨٩٧ بقوله: "إنه وإن كان المصري لا يعرف إلا وطنًا واحدًا وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون ديش دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الإنجليز".

وأثيرت المناقشة حول هذه الخطة سنة ١٩٠٦، لمناسبة الخلاف الذي قام بين انجلترا وتركيا في حادثة طابة (أنظر ص ٢٠٣) فقد أيد الفقيد فيها موقف تركيا واتهمه أنصار الاحتلال بأنه يبغي نقل مصر من حكم الاحتلال إلى الحكم العثماني، فرد عليهم في عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦ من اللواء بمقالة قال فيها مخاطبًا إياهم:

"أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد وأنهم إنما يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد، فهي دعوى لا يقبلها ذو لب ولا يسلم بها أحد من العقلاء، فإننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا".

"إلا أن هذا الاعتقاد الذي خدمناه ونخدمه لا يمنعنا من النظر إلى وجهة أخرى للمسألة المصرية، وهي الوجهة الدولية فإن كان إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائمًا (دولية) لأن مركز مصر يقضي على الدول كلها الاهتمام بها، وما على الكتاب الطاعنين علينا إلا أن يراجعوا كتاب المسيو (فريسينيه) السياسي الفرنسي الشهير وغره من أكابر السياسيين ليعرفوا أنهم يطالبون ألمانيا بتغيير خطتها في المسألة المصرية[٢] ويذكرونها بأهمية قنال السويس وما يكون للدول التي تصنع يدها عليه من القوة والنفوذ، ليتذكر هؤلاء

الكتاب بأن أوروبا لم تعمل شيئًا في مصر إلا بالاتفاق مع السلطان، وأنه لو كان عارض في عزل الخديو إسماعيل باشا لبقي أميرًا على مصر إلى آخر لحظة من عمره، رغمًا عن كل الدول المبغضة له، وإن انجلترا تود من صميم فؤادها الاتفاق مع جلالته على مسألة مصر لتقبرها، ولكنها تعلم أن ذلك هو المحال، فاهتمام المصريين بالوجهة الدولة للمسألة المصرية أمر طبيعي وواجب، ولو كانت أرقى الأمم شأنًا وأعلاها مكانًا في موضعنا لفعلت فعلنا واتبعت خطتنا وسلكت مسلكنا، وقال عنها المنصفون إنها مدركة لمعنى الوطنية الحقة".

وكتب في جريدة الطان بالعدد الصادر يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ عقب حادثة دنشواي مقالة جاء فيها إيضاحًا لخطته نحو تركيا ما يأتي:

"إن اتفاقنا مع تركيا كان دائمًا أساسًا من أسس سياستنا، وأن الخلاف الذي كان مستحكما بين قصر يلديز وسراي عابدين إبان الحركة العرابية كان السبب في مصابنا وفي الاحتلال البريطاني، ولما كانت تركيا هي الدولة صاحب السيادة على مصر فإن عملها وشأنها في المسألة المصرية هما بلا نزاع كبيران، وإني أسأل الذي ينكرون هذه الحقيقة أن يفكروا لخطة فيما يؤول إليه حال مصر لو عقدت تركيا في يوم من الأيام اتفاقًا مع انجلترا مشابهًا للاتفاق الودي الفرنسي الإنجليزي؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التي تربط مصر بتركيا، أو ليس هذا بالارتباط في ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق؟ إني أسأل الذين لا يكتفون بانتقاد سياستنا بل يتحاملون علينا أن يجيبونني: لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع الروسيا واتفاقها مع الإنجليز، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا؟.

وقال في خطبة ألقاها يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ لمناسبة عيد تأسيس الدولة العثمانية:

" يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكًا أجنبيًا عنا، فمنحن لا نود غلا أن تكون قوة محالفة للدولة العلية، ننصرها وتنصرنا ونعتز بها وتعتز بنا".

وقال في لواء ٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ردًا على جريدة (لاند بندنس بلج): "إن المحرر أخطأ كثيرًا بقوله إننا نريد حرية مصر لإعادتها إلى حكم الأتراك، فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين [١] وبأن انعطفنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئًا على هذا المبدأ الرئيسي لحياتنا وأفعالنا، ولست أجد لإفحام خصومي إلا طرح هذا السؤال البسيط عليهم: ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة

---

(١) مصطفى كامل صاحب مبدأ مصر للمصريين.

شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الإنجليزية؟ ألا تصير ولاية إنجليزية؟ إذن فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علائقنا مع تركيا حسنة ونسعى لنيل الوسائل التي قد تفيدنا وتنفعنا؟ وإذا كان الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة إتباعها هذه الخطة؟".

وقال في خطبته الكبرى بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧: "فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى صوتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضي بأن من اتفقت مصلحهم يجتمعون ويتناصرون وإذا كنت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييرًا محسوسًا فمن الذي يلوم المصريين على أن يكونوا اقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا".

فهذه الأقوال والبيانات صريحة الدلالة على أن خطة الفقيد نحو تركيا هي الخطة القويمة التي قضت بها الوطنية الحقة واقتضاها الجهاد الصحيح للاستقلال التام. هذا، ولقد زالت السيادة التركية على مصر من تلقاء نفسها بقبول تركيا مبادئ الرئيس ويلسن سنة ١٩١٨ وبادر الحزب الوطني إلى إعلان مبادئه الأساسية وهي:

**أولاً:** استقلال مصر مع سودانها وملحقاتها تاما غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أي قيد يقيد هذا الاستقلال.

**ثانيًا:** إيجاد حكومة دستورية في البلاد بحيث تكون السيادة للأمة وتكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابي تام السلطة.

**ثالثًا:** احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديوان احتراما لا يمس سيادة البلاد.

**رابعًا:** تعهد الشعور الوطني وتنميته والمحافظة على تضامن الأمة واتحاد عناصرها.

**خامسًا:** السعي في تحسين الأحوال الصحية والعمل على ترقية الأحوال الاجتماعية.

**سادسًا:** العمل على نشر التعليم في جميع البلاد على أساس وطني صحيح بحيث ينال الفقراء منه نصيبهم، والحث على تأسيس معاهد العلم وإرسال الرسالات العلمية وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال.

**سابعًا:** ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل مرافق الحياة.

**ثامنًا:** نقد الأعمال الضارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشجيع عليها وإرشاد الحكومة إلى خير الأمة ورغباتها والإصلاحات اللازمة لها.

**تاسعًا:** المحافظة على روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب.

**عاشراً:** إحكام العلاقات الودية وتبادل الثقة بين مصر وجميع الدول الأخرى.

obeikandl.com

# الفصل التاسع عشر

# مجلس شورى القوانين

obeikandl.com

من الواجب أن نقول كلمة عن المجلس الذي كان بمثابة الهيئة التشريعية الممثلة للبلاد في ذلك العهد؛ وهو مجلس شورى القوانين، ويجدر بنا أن نبادر بالقول إن هذا المجلس لم يكون يمثل الأمة تمثيلاً نيابيًا صحيحا، فقد كان مؤلفا من ثلاثين عضوا منهم أربعة عشر عضوا تعينهم الحكومة، وفيهم الرئيس وأحد الوكيلين، وأعضاء منتخبون وعددهم ستة عشر، ومنهم أحد الوكيلين، وكان انتخابهم على ثلاث درجات، إذ كان مجلس المديرية هو الذي يتولى انتخاب عضو مجلس شوري القوانين عن المديرية ذاتها، ولم يكن لهذا المجلس سلطة قطعية فيما يعرض على من الشئون، ولكنه مهما يكن نظامه وسلطانه فإن له صفة رسمية جعلت له شأنا يرتبط بحالة البلاد السياسية، والكلام عنه يكمل تصوير العصر الذي نكتب عنه.

ويمكننا أن نلخص تاريخه في ثلاثة أدوار تعاقبت عليه.

## الدور الأول

هو دور الخضوع والاستسلام، ويبتدي منذ إنشائه سنة ١٨٨٣، ثم يستمر حتى سنة ١٨٩٢، وقد بقي موقفه طول هذه السنوات سلبيا محضًا، ولم تبد منه ظواهر تدل على الحياة والوجود، ولم يكن له أي اثر في تطور الحوادث، بل لم يسمع له صوت ما في الأحداث الجسام التي تعاقبت على البلاد في ذلك الحين.

## الدور الثاني

ثم تغير موقفه منذ سنة ١٨٩٢ بتأثير تطور الأفكار وتنبهها، فأخذت تدبّ فيه بعض ظواهر الحياة، ووقف من الاحتلال غير مرة موقف المعارضة، ففي جلسة ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٢ رفض مناقشة ميزانية سنة ١٨٩٣ التي أعدها السير إلوين بالمر المستشار المالي البريطاني، بحدة أنه لم تعرض عليه قبل الموعد المحدد لصدورها بوقت كاف يسمح بفحصها، ومع أن القرار لم يمنع الحكومة من إصدار الميزانية طبقًا للقانون النظامي القديم، إلا أن فيه معنى الاحتجاج على الحكومة، ولم يكن هذا مألوفا من قبل في هيئة المجلس.

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٣ ظهرت في المجلس حركة استياء من اتصال المعتمد البريطاني ببعض أعضائه، ورفض اعتماد نفقات جيش الاحتلال في ميزانية سنة ١٨٩٤، ومقدارها ٨٥،٠٠٠ جنيه، فكان هذا القرار بمثابة احتجاج على بقاء جيش الاحتلال، وقد ساء هذا القرار الصحف الإنجليزية وصنائع الاحتلال في مصر، فردت الحكومة على ملاحظات المجلس ردا كان بمثابة انتصار لوجهة نظره، إذ أنها أعربت عن مشاركتها إياه في إحساساته الوطنية، وأبانت



obeikandl.com

أن المبلغ الذي كانت تؤديه الخزانة المصرية لجيش الاحتلال على سنة ١٨٨٥ وهو ٢٠٠،٠٠٠ جنيه في السنة خفض بالتدريج إلى ٨٥،٠٠٠ جنيه، وأن الحكومة تؤمل أن هذا المبلغ يخفف تدريجيًا حتى يمحى بالكية اعتمادًا على عهود ووعود دولة بريطانيا العظمي القاضية بالجلاء عن القطر المصري [١].

ودلّ تقرير المجلس عن ميزانية سنة ١٨٩٤ على ظهور روح جديدة من الحياة والشعور بالواجب، إذ تعرض لحالة البلاد الاقتصادية، وألمع على ما يثقل كاهل الأهلين من أعباء الديون، فكان تقريره أبلغ رد على أنصار الاحتلال فيما أدعوه من أن الاحتلال قد جاء للأهلين باليسر والرخاء.

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٤ اعترض على بعض ما قررته الحكومة في ميزانية سنة ١٨٩٥، ورفض اعتماد مصاريف جيش الاحتلال وانتقد سياسة الحكومة في التعليم، وفي ديسمبر من السنة التالية وقف بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال موقفه في السنوات الماضية.

وفي إبريل سنة ١٨٩٦ قرر الاحتجاج على الحكومة لعدم أخذها رأي المجلس أو الجمعية العمومية في تقريرها مبلغ خمسمائة ألف جنيه لإنفاقها على حملة دنقلة التي قررتها في تلك السنة.

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٦ كان موقفه بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال أصرح من موقفه من السنوات الماضية، إذ ورد عنها في تقرير اللجنة المالية الذي اقره عن ميزانية سنة ١٨٩٧ ما يأتي:

"مقدر لمصاريف جيش الاحتلال مبلغ ٨٤٨٢٥ جنيها، واللجنة لا ترتاب مطلقًا في أن الحكومة عظيم الثقة بأمانة جيشها وكفاءته، وباستعداده الذي برهن عليه في كل المواقع التي دعُي إليها، وباستتباب الأمن في داخلية البلاد وأطرافها مما لا يدعو للاستعانة بجيش أجنبي، ولذا فهي ترى عدم المصادقة على المبلغ المقرر لهذه المصاريف" فكان هذا القرار بمثابة احتجاج من الهيئة البرلمانية القائمة في البلاد ضد الاحتلال، واستمر موقفه من مصارف جيش الاحتلال على هذا النحو في السنوات التالية:

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٩ نظر في ميزانية سنة ١٩٠٠ وفيها مبلغ ٤١٧ ألف جنيه نفقات عجز إيرادات السودان عن مصر وفاته، فقرر التصديق على هذه النفقات "باعتبار أن بلاد

---

(١) تقرير الحكومة الذي تلاه رياض باشا في مجلس شورى القوانين بجلسة ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٣.



obeikandl.com

السودان جزء متمم لمصر غير منفصل عنها بحال من الأحوال، فكان هذا القرار بمثابة توكيل لاتصال السودان بمصر وعدم الاعتراف باتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩.

وكان يتولى رياسة المجلس منذ نوفمبر سنة ١٨٩٩ إسماعيل باشا محمد [١]، وهو من خاصة أصدقاء مصطفى كامل وأنصاره، وكانت تربطهما روابط الود الأكيد، يدل على ذلك حضوره حفلة مدرسة مصطفى كامل في فبراير سنة ١٩٠٢ كما تقدم بيانه (ص ١٦٤)، فكانت رئاسته حافزة روح المعارضة في المجلس، وبدت هذه الروح فيما طلبه من الحكومة في ديسمبر سنة ١٩٠٠ لمناسبة عرض مشروع الميزانية، وتتخلص هذه المطالب فيما يأتي:

أولاً: زيادة المبلغ المخصص لوزارة المعارف، وقد لفت المجلس نظر المحكومة إلى ما وصل غليه فساد البرامج وسد أبواب المدارس في وجود المتعلمين والبحث في الأسباب التي دعت لاستعفاء الكثيرين من المدرسين.

ثانيًا: زيادة ما اخصص للمحاكم الشرعية.

ثالثا: طلب المجلس من الحكومة أن تدرج في ميزانية السنة المقبلة إيرادات ومصروفات السودان.

رابعًا: طلب ألا تنقص المصروفات والمرتبات المتعلقة بالكسوة والمحمل إن لم يمكنها زيادتها.

وقد طلب أيضًا من ناحية أخرى مراعاة حرية الحجاج الشخصية في ذهابهم على الأقطار الحجازية وإيابهم منها، وإلغاء احتكار المؤن التي تباع عليهم في المحاجر الصحية.

وفي سنة ١٩٠١ اختلفت الحكومة في أمر الدكريتو الصادر في إبريل سنة ١٩٠١ بربط رسوم على الخيوط والمنسوجات والأقمشة القطنية المصنوعة بالقطر المصري، واحتج على إصدار هذا الدكريتو دون مباحثة الجمعية العمومية وإقرارها، مستندًا في ذلك على المادة ٣٤ من القانون النظامي التي توجب تصديق الجمعية العمومية على كل ضريبة أو أموال أو رسوم على عقارات أو أشخاص، وقد أجابت الحكومة على هذا الاحتجاج بأن المادة المذكورة لا تنطبق على هذه الرسوم، وأنها تنصر ف إلى الضرائب على العقارات فقط، واستشهدت بنصفها الفرنسي، وطلبت في الوقت نفسه أن يستبدل بالمادة ٣٤ من القانون النظامي النص التفسيري الوارد في ردها، ورد المجلس على هذا الجواب ردًا سديدًا ختمه بقوله: " يرى المجلس أنه ليس من

---

(١) بقي يتولي رياسة المجلس إلى أن توفير في ٧ إبريل سنة ١٩٠٢ وخلفه عبد الحميد باشا صادق الذي شغل هذا المنصب حتى استقال في ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩.



obeikandl.com

اختصاصه النظر في هذا المشروع ويتجنب الدخول في موضوع تبديل أو تغيير المادة ٣٤ وكل مادة في القانون النظامي لأن ذلك من حقوق الجمعية العمومية".

وقد اعتبر (اللواء) هذا الموقف حسنة في تاريخ مجلس شورى القوانين.

## الدور الثالث: دور التراجع

ولكن المجلس قد تراجع تحت تأثير حملات اليأس التي كانت تنشرها الصحف الموالية للاحتلال، وإبرام الاتفاق الانجليزي الفرنسي في إبريل سنة ١٩٠٤، فأخذ يجنح للخضوع والاستسلام للاحتلال، وابتغاء الزلفى لديه، فمن ذلك أنه صدق على ميزانية سنة ١٩٠٥ في صيغة شكر للحكومة، فانتقده مصطفى كامل في لواء ١٣، ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤، غذ قال: "إن أعضاء المجلس لم يُسمعوا الأمة والعالم كله ذلك الصوت المحبوب صوت المطالبة بأعز ما تريد البلاد ألا وهو الاستقلال، ثم قال: إنكم يا حضرات الأعضاء طلبتم هذا الطلب الغالي مرتين وحسبتم أن الإشارة تكفي، و:أنكم نسيتم أن الإلحاح في الحق ليس بعيب، وأن الإشارة مع المتعمد النسيان هي دون القليل. فهل فاتكم أن مطالبتكم بالجلاء مما يقوى العقيدة الوطنية في نفوس الخاصة والعامة والناشئة بنوع خاص، وأنكم إذا لم تبلغوا إلا هذه الغاية لكفاكم شرفا وأجرًا". ثم ضرب الأمثال بما كان من المجالس الشورية في البلاد الصغيرة من التمسك بحقوق شعوبها في وجه السلطة الغاشمة.

وانقضت سنة ١٩٠٥ والفتور مخيم على المجلس، وبخاصة إذا كان المقام متعلقًا بأمر تود الحكومة تنفيذه.

ولما وقعت دنشواي في يونيه سنة ١٩٠٦، طالب الفقيد المجلس بأن يرفع صوته بالاحتجاج على الفظائع التي ارتكبتها الحكومة في هذه الحادثة، ولكن ذهب نداؤه عبثًا، فكان هذا الموقف مظهرًا لروح الاستكانة التي شاعت بين جوانب المجلس.

***

# الفصل العشرون

# مصطفى كامل ومعاصروه

obeikandl.com

إن روابط الإنسان بمعاصريه وعلاقته بهم هي قطعة من حياته، وجزء من شخصيته، ولا مراء في أن التحدث عنها يلقى جانبا من الضوء على تاريخه، لذلك رأيتُ أن أخصص هذا الفصل بالكلام عن مصطفى كامل ومعاصريه، سواء كانوا من أصدقائه وأنصاره، أو مخالفيه، أو من تلاميذه وحوارييه.

## أصدقاؤه الأقربون

## محمد فريد

إذا ذكر أصدقاء الفقيد وأنصاره الأقربون كان في طليعتهم المغفور له محمد بك فريد، فهو زميله المخلص، وصديقه الوفي، وعضده الأكبر في بعث الحركة الوطنية، لازمه وأيده في جهاده، وبذل له ما بذل من العون الأدبي والمادي، وأمده بماله، وظل وفيًا له طول حياته، ثم حمل الراية بعد وفاته، فكان خير خلف، لأعظم سلف.

## رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد

تدل رسائل مصطفى كامل إلى فريد بك على ما بينهما من الود الصادق والحب الخالص الثابت على مر السنين، فكلاهما كان يؤثر صاحبه على نفسه، ويضحي بنفسه من أجله، وتلك دلائل الإخلاص الحقيقي، وتطالعنا هذه الرسائل بما كان يعمر قلبيهما الكبيرين من الوطنية الصادقة، والعواطف النبيلة السامية، وهي وإن لم تنشر من قبل، ولم تكن معدة للنشر، كلنها صارت قطعة من تاريخ الزعيمين العظيمين، لذلك رأيتُ أن أنشر بعض نماذج منها مع طبع بعضها بالزنكجراف في أول كتاب عثرت عليه أرسله إليه من فيينا بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦، وهو يدل على الود القديم بينهما، وفيه أفضى إليه بما بذل في ألمانيا والنمسا من الجهود لتعريف الرأي العام الأوروبي بالقضية، وقد أشار إليه المغفور له محمد بك فريد في خطبته في تأبين الفقيد، واقتبس بعض فقرات منه (أنظر ص ٢٨٥).

**محمد فريد**

**رمز الإخلاص والتضحية**

**(١٨٦٧-١٩١٩)**

والكتاب الثاني أرسله إليه من بودابست في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ قال فيه:

"أخي الفريد حفظه الله

" بعد التحية والتسليم، والإعراب عن شوق عظيم، لابد أنك استلمت كل ما أرسلت غليك وطالعت صدى ما علمت، وعلمت بكل ما جرى وكان، ولابد أنك سررت وفرحت، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حبا لمصر التعيسة وإخلاصًا رضيت عن روح لا تقل عنها حبًا للوطن وإخلاصًا، وإخالك تفكر كثيرًا فيّ، وتود لو تكون معي تطوف البلدان مناديا بنصرة المظلوم رافعًا صوتك ضد عدو الوطن الأسيف".

وقد أشار فريد بك إلى هذا الخطاب أيضًا في خطبته سالفة الذكر، واقتبس منه فقرات أخرى (ص ٢٨٦).

وكتب إليه ضمن خطاب له من الأستانة (استانبول) في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ يقول:

"كنت أحس بواجب مراسلتك، ويسهل شوقي غليك قيامي بهذا الواجب نحوك، وأتلذذ حقًا لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز، أي اشرف واجل إحساس عند الإنسان".

وكتب إليه من باريس في ١٩ يوليه ١٨٩٨ كتابا قال فيها (نشرنا صورته ص ٣٧٨).

"أخي الأعز حرسه الله

"بعد تقبيل وجنتيك وإهدائك أعطر السلام، وصلني هذا الصباح كتابك الكريم فتقبلته بالترحاب والتكريم، وكنت في شغف شديد لاستلامه، لغياب أخبارك عني ثلاثة أيام، وليس ذلك بالزمن القليل.

"لقد أدهشني في كتابك شكرك لي على مبادرتي بإجابة طلبك، إن هذا الشكر من غيرك جميل وواجب، ولكنه منك غريب وعجيب، فما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك مالي، ومالي مالك، وحياتي حياتك، وحياتك حياتي، هذا ما أعتقده وما تعتقده أنت. فروحي تناجي روحك بالود والإخلاص في كل لحظة وفي كل آن، دمت لي أخا وفيًا صادقا، ودمت معي خادمين صادقين للوطن المحبوب".

obeikandl.com

وختم الخطاب بقوله:

"أكتب لي باكر من فيشي واطل كتابك، واذهب يوم الخميس على كوك قبل الظهر تجد كمي كتابا أكتبه إليك باكر ليكون فيه وداعك، وبعض أمور أريد منكم عملها في مصر، تقبل ألف قبلة من صديقك الأول وأخيك الثاني".

**مصطفى كامل**

وكتب إليه من باري في ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨ كتابا قال فيها (نشرنا صورته فص ٣٧٩):

أخي الأعز حرسه الله

" أقبل وجنتيك ألفا، وأهديك سلامًا عاطرًا، واسأل لك الصحة الدائمة والسرور الكامل، وأدعو الله أن يسرك بشفاء حرمك المصون وسلامة نجلك الأمين [١]، إنه سميع مجيب"

إلى أن قال:

"أرجوك أن ترسل لي عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير من هذه السنة وهو المشتمل على الخطبة التي ألقيتها على شبيبة المدارس يوم احتفالها بعيد جلوس الخديو لأني في حاجة إلى ترجمتها ووضعها مع المجموعة.

"سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل، ولا تنس العائلة، أرسل سلامي لكل أفرادها، دمت ألف مرة لأخيك المخلص".

**مصطفى كامل**

" قبل لي وجنات الشقيق إبراهيم بك [٢]، وسلم لي على الفاضل حسن أفندي عبد الرازق [٣]، واسأله أن يبلغ سلامي العاطر لوالده العزيز [٤].

---

(١) هو المرحوم عبد الله فريد نجله الأول. وقد توفي وله من العمر سنتان، أما نجله الثاني فهو الشاب النجيب الأستاذ عبد الخالق فريد وكيل النيابة الآن (١٩٥٠) بارك الله فيه وهو الذي تسلمنا منه رسائل مصطفى كامل إلى والده المغفور له محمد بك فريد، كما استودعنا مراسلاته ومذكراته، فله مني جزيل الشكر.

(٢) المرحوم إبراهيم بك فريد.

(٣) المرحوم حسن باشا عبد الرازق، وكان محاميًا بمكتب محمد بك فريد.

(٤) المرحوم حسن باشا عبد الرازق الكبير.



oberkandl.com

"وإذا قابلت شوقي بك [1] قبله مرتين، وقل له أن يرسل لي ما طبع من ديوانه مع صورته، وأعطه عنواني".

وقال في ختام خطابا إليه من باريس في ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٨:

"أقبلك في الختام ألف قبلة، وأرجوك ألا تحرمني من أخبارك، وأن تعرفني عند وصول هذا غليك، دمت لمصر العزيز ة ولخادمها الضعيف أخيك".

**مصطفى كامل**

وقال في خطاب آخر من باريس في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨: [2]

"وغاية رجائي من الله – إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا – أن يحفظ لي ودك الصادق، وحبك الطاهر، تقبل ألف ألف سلام من خير صديق كل ومن أخيك الشاكر العارف للجميل".

**مصطفى كامل**

وقال ضمن خطاب إليه من باريس في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٨:

"لك مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان، فحقًا أنت الأخ الصادق الذي يضحي نفسه في محبة إخوانه، فدم لي يا مثال الوفاء، واعتقد أبد الدهر أن لك فيّ أصدق الناس كافة، وأوفاهم إليك، فحياتي وروحي لك بعد الوطن العزيز".

وختم هذا الخطاب بقوله:

"سلامي العاطر لأخيك العزيز، ودم أنت ألف مرة وألف عام لأخيك المخلص".

**مصطفى كامل**

---

(١) نشرنا صورته ص ١٣٤.

(٢) نشرنا صورته ص ١٣٤.



obeikandl.com

وقال ضمن خطاب له من باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦ [١]:

" أخي العز فريد بك.

"ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد استسلمت خطاباتك، وقرأت اليوم مقالاتك وسررت بها للغاية، وأن ودك الصادق، وإخاءك الطاهر، ووطنيتك العالية، لما يكفيني في الحياة نعمة ونعيمًا وسعادة وسعودًا".

وقال في خطاب من نابولي في ٢٩ يونيه سنة ١٩٠٧:

"إني لو أدرت أن أشكرك على صدق إخائك وتفانيك في خدمة المبدأ الذي وهبنا حياتنا له لما استطعت على ذلك سبيلاً، وحسبي أن أقول إنك خير سلوى لي في هذه الحياة التي كثرت أتعابي وهمومي فيها فكنت الأخ الممتاز والعون في الشدائد".

هذه الرسائل التي تفيض إخلاصًا حنانًا ونورًا، قد كتبها الفقيد على تعاقب السنين، وهي تصور لنا مقدار حبه لفريد بك، ومبلغ ما كان يجمع بينهما من الروابط الأخوية والوطنية التي دامت بين الصديقين طوال سني الجهاد، وجعلت منهما بالبطلين العظيمين اللذين بعثا في نفوس الجيل روح الوطنية والإخلاص.

---

(١) نشرنا صورته بالزنكغراف ص ٢٣٥.



obeikandl.com

## (خطاب الفقيد على فريد بك في ١٩ يوليه سنة ١٨٩٨)

باريس في ١٩ يوليه ١٨٩٨

سلامي الخصوصي الى الدكتور احمد افندي علي
واجوبكم اعطاه عنواني الجديد كما انكم
قطعا ايضا الى محل سعادة حسين باشا محمود والسيد
احمد اسعد علي لانيس بك

اخي الاعز حسين بك

بعد تقبيل وجنتيك واهدائك اعطر السلام وعلى صدر الصباح فنائك
الكريم بحلة الزهاب والتكريم وكنت قد شغفت سنين لاستقبل بها
اخباركم عند عودة ايام وليس ذلك بالامر الثقيل

احمد الله على وجودكم بالصحة والسلامة واشكره على ما اولاني من صفاء سريرة وراحة وكلما
فاني متمتع بالصحة وسيد الرضى مستلم الآنة وتجدني مواظبا على الاستحمام بالماء
البارد حسب ارشادكم كل صباح وقد ورث جسمي البدني وجنة قد نازعا
قامة عليا بنيتي كهيلو ونصف

لقد ادهشني فنائك شكرك لي على مساورة باجابة طلبك اذ صار الشكر شيمة
جميل وواجب وكفى بذلك غريب وعجيب فما بيننا سيدي وصديقي يجعل مالك
مالي وما لي مالك وحياتي حياتك وحياتك حياتي هذا ما اعتقده وما اضمره
انت فروض تاجي سعدك ما بدا ولا يجدس في كل لحظة وكل آن دست
لي اخا وفيا صادقا ودت مني خادميه صادقة للوطن المحبوب

اكتب لي باكر مسرتي وامل فنائك - يوم الخميس اذهب الى كوبه
قبل الظهر بجدس كتابا اكتبه اليك باكر لتكون في وداعك وبعض
اصدقاء اريد منك عناية خصوصية قبل الفراق بينهم سعد بك الدول واحمد بك لطفي
مصطفى كامل

**(خطاب الفقيد على فريد بك في ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨)**

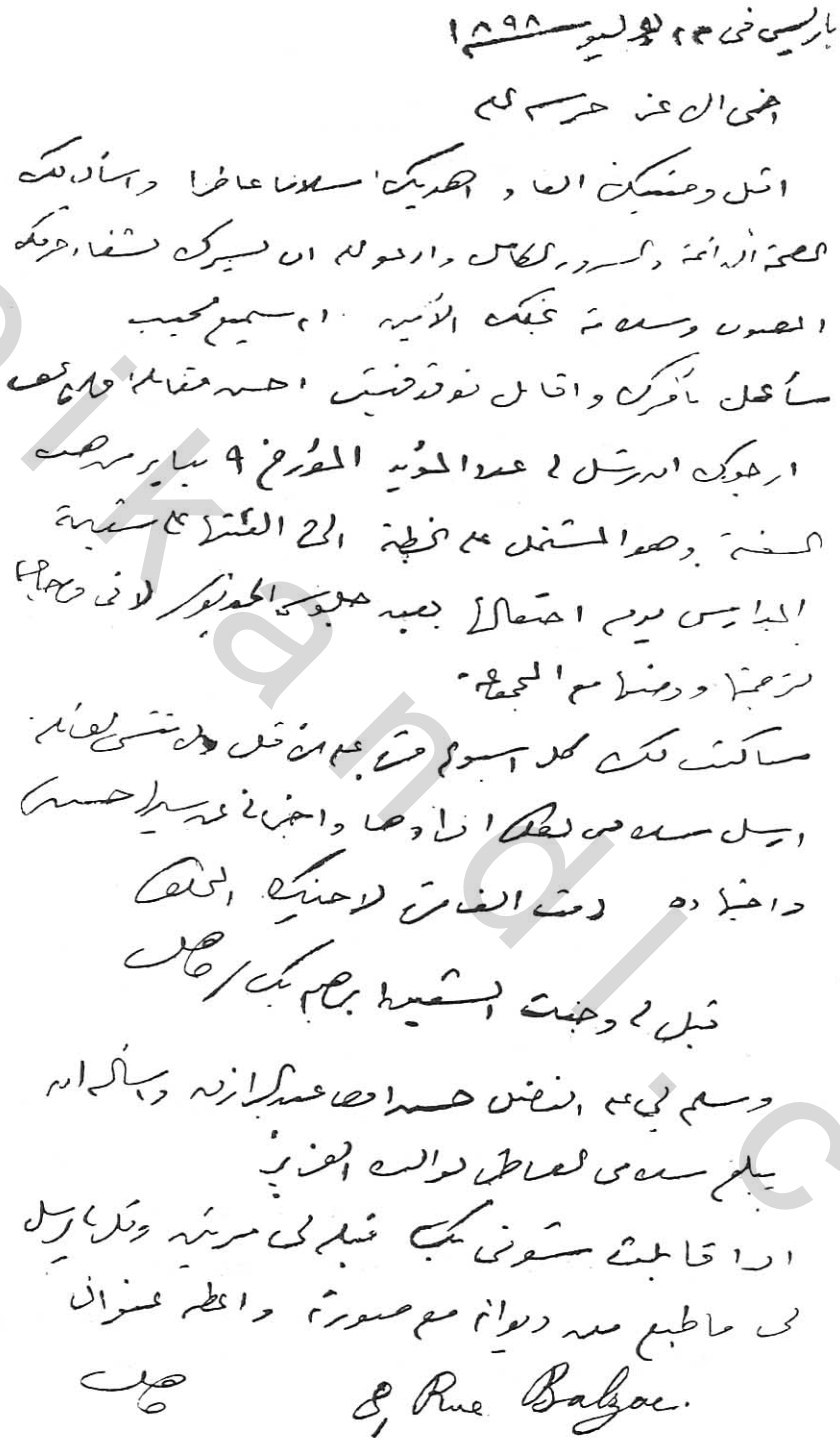

باريس في ٢٢ يوليو سنة ١٨٩٨

أخي العزيز حسن بك

أتمنى وعسى أن أكون أهديك سلاما عاطرا وأسأل لك الصحة الدائمة والسرور الكامل وأرجو له أن يسرك شفاء جرحك العصون وسلامة عينك الأخيرة. أما سميع محبب سأعمل بأمرك وأقابل نوفل فيك أحسن مقابلة ما يمكن أرجوك المرسل لي عدد الجريدة المؤرخ 9 يناير من هذه السنة وهو المشتمل على خطبة الحاج الشيخ شاهين الباريس بدير احتمال بعبد حلوكم الجديد لأني أريد ترجمتها وعرضها على المجمع.

سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل وأنتظر لك أيضا سلامة من لطفك أنا وهما واجبا في عبد الحميد حسن واخيه داود وعبد الغفار لا تنسى أن تهدي إليهم

قبل أن وجنات الشقيقة بحاجبك الجميل

وسلم لي على الفاضل حسن أفندي عبد الرازق وباقي الإخوان

يسلم سلامي لطفاطل والشيخ الغرباني

إذا قابلت مسيو فيك قبل مرسيليا وقل له يرسل لي ما طبع عن ديوانه مع صورته وأعطه عنواني

٩ Rue Balzac.

لطيف باشا سليم

obeikandl.com

من أعلام الحركة الوطنية، وهو نجل المرحوم سليم باشا الحجازي أحد قواد الجيش المصري في عهد محمد علي، تخرج في مدرسة أركان الحرب،وتثقف ثقافة علمية وحربية عالية، ثم تلوى مهمة التدريس في المدارس الحربية، فكان خير معلم وأستاذ، ثم عين مفتشًا بوزارة المعارف، ثم مديرًا للفيوم، فثم رئيسًا فخريا للمحكمة المختلطة، واشتهر بأخلاقه العالية، ووطنيته الصادقة، وشجاعته واستقلاله، كان عالمًا واسع الإطلاع، شغوفا بالعلم والأدب، ترك مكتبة حوت نفائس الكتب قديمها وحديثها، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا بوزارة نوبار باشا على عهد الخديو إسماعيل فير فبراير سنة ١٨٧٩، وكان وقتئذ أستاذًا بالمدرسة الحربية وقد انتهت هذه الثورة بسقوط وزارة نوبار الأولى [١]، وكان من أكبر أنصار الفقيد ومعضديه، عرفه منذ كان طالبًا بمدرسة الحقوق، وكان واسطة التعارف بينهما نجله فؤاد سليم، صديق مصطفى الحميم، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية، فكان يقول عنه لنجله قبل أن يعظم شأنه: "إنه الشعلة الوطنية المنتظرة"، وقد صحت نبوءته، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره، وظل طول حياته معضدًا ومؤيدًا له في جهاده، وقد حزن الفقيد لوفاته حزنًا عميقًا كان له اثر شديد في انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير".

كتب في هذا الصدد إلى مدام جولييت آدم بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول:

"إني مريض جدًا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر، وقد بذلت مجهودًا فوق الطاقة لإلقاء خطبتي في الجمعية العمومية للحزب الوطني"، إلى أن قال: أما صحتي فهي بين اليأس والرجاء، والأطباء مطمئنون الآن، والسبب في انتكاسي بعد خطبتي راجع على مفاجأة المنون صديقًا لي حميمًا كان من اشد وأكبر نصرائي وهو المرحوم لطيف باشا سليم".

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ سنة ١٩٠٧، ولم يبلغ الخامسة والخمسين، وقد نعان مصطفى كامل وهو مريض فقال عنه "آخانا رحمه الله على صغر سننا، فكان أخًا رؤوفًا وصديقًا حميمًا، ومواطنًا محبًا لبلاده حبًا لا قدرة لكاتب أن يصفه"، وقد انتقلت صداقته للفقيد على نجله فؤاد باشا سليم رحمه الله، وفكان حافظًا لوده وعهده على مر السنين.

---

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابنا (عصر إسماعيل) ج٢ ص ٣٠٢ وما بعدها طبعة سابقة.



obeikandl.com

# على بك فخري

من أوائل علماء القانون في النهضة الحديثة، انتظم في سلك المناصب القضائية وتدرج فيها إلى أن عين رئيسًا لنيابة الإسكندرية الأهلية، فكان بحكم منصبه عضوًا بمجلسها البلدي، وظهرت هنالك مواهبه من الذكاء والقريحة الوقادة والاستقلال في الرأي والغيرة على شئون الوطن، وقد برزت شخصيته الساطعة في المجلس البلدي، وكان يساجل الأعضاء الأوروبيين الرأي ويناقشهم مناقشات ظهرت فيها قوة حجته واحتفاظه بكرامته، فمثل العنصر الوطني في المجلس خير تمثيل، ونال احترام زملائه الوطنيين والأجانب؛ وارتقى في المناصب القضائية فعين قاضيًا بالمحاكم المختلطة، ثم مستشارًا بها، وكسب احترام القضاة والمستشارين الأجانب، حتى صاروا يرجعون إلى رأيه في المشكلات القانونية، وكان من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن أكبر نصرائه، توفي في شهر يونيه سنة ١٩٠٦ ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره، وقد نعاه مصطفى كامل في اللواء نعيًا مؤثرًا دل على أنه من أقطاب الحركة الوطنية، سماه (فقيد الوطن والبلاد)، ويعد نعيه صفحة حية من التاريخ الوطني، ومن أبلغ ما كتب المترجم، قال:

**على بك فخري**

" إن الفقيد كان أخًا لنا، نسترشد برأيه، ونعتمد على كفره، ونعتز بوجوده، ونفتخر بعلمه وفضله، وطنيته وحميته، وعواطفه الحية السامية، وإحساساته الراقية فقدنا بموت ذلك الفقيد العظيم واحدًا يفدي بآلاف من الرجال، إذا ذكر العلم كان حامل رايته، وإن ذكر الحق كان أكبر ناصر له، وإن ذكر العدل كان أكبر مشيد لأركانه، وإن ذكرت مكارم الأخلاق كان إنسانها، وإن ذكرت الوطنية كان مثالها، وإن ذكرت البلاد وحقوقها كان أشرف وأصدق خادم لها، فكيف لا يكون مأتمه مأتم القطر وبنيه، والأسف على وفاته في كل قلب والحداد على موته في كل دار؟ ارتبطنا بالفقيد من سنوات طوال برابطة الصداقة والإخاء والاتحاد في الرأي والفكر والشعور، وهي أمتن الروابط وأقواها، فعرفنا فيه مصريًا لا تهزه الحوادث ولا تثبط عزيمته النوائب، ولا تضعف آماله المصائب، يتقد غيره على مصالح وطنه، ويمسي ويصبح وهو مفكر في استقلاله وعزه ونعيمه، إذا تكلم عنه سمعت الوطني الحر الذي امتلأ فؤاده حبًا لبلاده وحنانًا عليها، كان الفقيد البرهان الحي على كفاءة المصري وسمو مداركه واستعداد هذا الشعب الكريم، لأن يخرج النابغين من الرجال، كان رحمه الله على جانب عظيم من الدعة ورقة الأخلاق، مع ما اشتهر به من الاستقلال التام في فكره والمجاهرة برأيه مع كل إنسان وأمام كل إنسان، كنا إذا حادثنا الفقيد شعرنا بارتياح هائل لمحادثته، وأسفف عظيم على حالة هذا الوطن العزيز، نرتاح لكلام نابغة عالي الفكر سامي الشعور، طاهر القلب شريف الميول، ونأسف على حالة الوطن لأن الفقيد مع ما أراد له من الخدمات الجليلة النادرة كان يستطيع خدمته أكثر من ذلك لو كانت مصر مستقلة، وأمرها بيدها، إن الفقيد مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من اكبر قادة الأمم وباعثي روح الحياة والنهوض فيها، ولذلك كان موته مصابًا جسيمًا، مصابًا لنا بالذات نعزي فيه، لأننا فقدنا أخًا حقيقيًا لا يعوض، ومصابًا لكل مصري، لأن الوطن فقد بموته واحدًا يشرفه ويرفع قدره ويسليه بعلم وعمله على همومه ومصائبه الجسام".

## أصدقاؤه وأنصاره

لا سبيل على أن نحصر هنا بقية أصدقاء الفقيد وأنصاره جميعهم، وإنما نذكر على سبيل المثال من وعتهم الذاكرة؛ وهم (عدا من ذكرنا): الأمير محمد إبراهيم (أنظر ص ١٦٦) الأمير حيدر فاضل. فؤاد سليم (باشا). عمر بك سلطن (باشا). على فهمي كامل شقيق الفقيد. إسماعيل بك شيمي. الدكتور محمود بك لبيب محرم. الدكتور صادق رمضان. على بك حسني المصري. عمر بك لطفي. محمود بك سالم. عبد المجيد بك رضوان رئيس نيابة مصر (توفى في يناير سنة ١٩٠٤). الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق). مرقص بك حنا (باشا). رضوان بك شريف. أحمد فائق باشا. حسن باشا حارس. إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين. عبد الحميد صادق باشا رئيس مجلس شورى القوانين. ويوسف صديق

باشا. الفريق حسن باشا رضوان. الدكتور حسن باشا محمود. محمد بك طلعت بك حرب(باشا). عزت بك شكري. أحمد بك الصوفاني. عبد الطيف بك الصوفاني. عبد الحميد بك عمار. عبد الرحيم بك أحمد. أحمد بك يحي (باشا). أمين بلك يحي (باشا). عبد الفتاح بك يحي (باشا. حسين بك القرشوللي. مصطفى بك سري. عثمان بك لبيب. محمود أنيس. مصطفى بك نجيب (مؤلف كتاب حما الإسلام). عبد الخالق بك ثروت (باشا). حسين رشدي باشا. محمد بك سعيد (باشا. حسين بك حسني العمري. عبد الباقي بك العمري. الشيخ عبد العزيز جاويش. الشيخ عبد المجيد اللبان. محمد ماهر باشا. إسماعيل بك صدقي (باشا). سيد باشا شكري. على باشا آصف. الدكتور محمود بك ناشد. الدكتور حسين يسري بك. سيف الله باشا يسري. الدكتور إسماعيل صدق بك. الدكتور محمود عبد الوهاب بك. حسن باشا عاصم. حسين باشا واصف. الشيخ عبد الوهاب النجار. إسماعيل بك حافظ الدكتور على بك سلام (الإسكندرية). مصطفى بك عزت. الأستاذ دافيد حزان. الأستاذ محمد بك توفيق. عبد القادر بك الغرياني. محمد بك أسعد. محمد بك حسني يكن. عثمان باشا ماهر. عبد العزيز بك فريد. الدكتور أحمد عل. محمود بك حسيب. شمس الدين بك حمودة إسماعيل بك لبيب. محمد بك فهمي حسين. محمود بك أبو النصر. محمد خلوصي بك. عبد الله بك طلعت. إبراهيم أفندي حافظ. يوسف بك ذهني. على بك حشمت. محمد بك رشوان. الشيخ مصطفى القاياتي. الشيخ محمود أبو العيون. على بك لهيطة. يوسف بك حافظ. إبراهيم بك حفظي. إسماعيل بك الملواني. محمد عبد اللطيف الصيدلي. الدكتور محمد بك على دويدار. محمود بك فهمي حسين. الدكتور أحمد فهمي الجهيني. الدكتور نصر فريد بك. الحسين أفندي العسقلاني. على بك المنزلاوي. محمود بك الشيشيني. حسن بك خيري (باشا). محمد توحيد بك السلحدار. محمد بك أحمد الشريف. مصطفى بك الخادم. محمد بك توفيق زاهر. الدكتور عبد العزيز نظمي بك. الأستاذ محمد بك رمضان. محمد على علوية باشا. إسماعيل أنفدي كامل. مصطفى بك رشيد. أحمد بك حجازي. حسن محسن باشا. عثمان بك أبو شنب. حسن بك جمجوم. توفيق بك جموده. حافظ أفندي مصطفى. سعيد بك طليمات. الدكتور السيد بك رفعت. محمد أفندي لمعي المهندس. عبد الخالق مدكور باشا. محمد بك على دولار. حسن بك حمدي. الدكتور محجوب ثابت. الشيخ محمد رفعت. محمد بك حبيب المهندس. الأستاذ محمود بسيوني (رئيس مجلس الشيوخ الأسبق)ز حسن بك نبيه الصمري (وكيل مجلس الشيوخ الأسبق). الدكتور أحمد بك السعيد (أسيوط). الأستاذ محمد كامل مرتجى. أمين بك إسماعيل. الأستاذ حسن عبد المعطي. الأميرالاي محمود بك حلمي إسماعيل. الأميرالاي على بك إسماعيل. محمود بك محرم رستم. محمد بك لبيب البتانوني. حسن بك رضا. بشارة باشا تقلا. الأستاذ داود بركات. جبرائيل تقلا بك (باشا). فؤاد بك حسيب. أنطون بك الجميل. حافظ بك المنشاوي. محمد بك فؤاد المنشاوي.

يوسف بك المنشاوي. السيد رضوان جلال وأخوه عثمان أفندي جلال (رئيس قلم قضايا السكة الحديد). على بك أبو الفتوح (باشا). محمد أبو الفتوح باشا. إسماعيل بك العسيلي. خليل بك محمود الفلكي. إسماعيل بك صادق. مصطفى بك الشوربجي (من أعيان بريم). الشيخ على الغاياتي. محمد كامل بخاتي بك. محمد أفندي الكزه. محمود أفندي السخاوي. محمدو أفندي على منصور. اليخ حسن خفاجي (الإسكندرية). سينوت بك حنا. عزيز بك خانكي. اليس بك عوض. سليمان بك العباني. الأستاذ أحمد الصدر. بيومي أفندي محمود. محمود أفندي على ناصر. الشيخ صالح الشهابي. إبراهيم عبد الواحد. الشيخ محمود عبد الغني. محمد عبد الكريم (سيدي جابر). حسن أفندي سيف. عبد الله بك محمد الصيدلي. شعبان أفندي خليفة. أحمد أفندي إبراهيم القويضي. محمود أفندي كمال. محمد عبد القادر القط. محمد أفندي عبد اللطيف التاجر. عبد الرازق أفندي الحبشي. صالح بك القاضي. السيد أفندي الشنيطي. إبراهيم أفندي أنيس. محمد أفندي بسيوني طنش. على أفندي أبو النظر. محمد أفندي رشدي. السيد أفندي الخطيب. محمد أفندي مرسي النحاس. عبد اللطيف أفندي الصاوي. اليوزباشي محمود لطفي الأزميرلي. شيخ العرب سليمان على مطيريد الخ.

## تلاميذه

نقصد بتلاميذه من أدركوه واعتنقوا مبادئه أو اقتبسوا من روحه الوطنية (ولو على وقت محدود)، وهم أيضًا لا سبيل على حصرهم، ولكننا نذكر من تحضرنا أسماؤهم، وسنرتبهم قدر ما استطعنا بحسب طبقاتهم وهم:

أحمد حلمي المحرر باللواء، مصطفى بك النحاس(باشا) [1]، الأستاذ عبد القادر حمزة (باشا)، محمد بك حافظ رمضان (باشا) على بك الشمسي (باشا) أمين أفندي عمر، سيد أفندي علي، الأستاذ محمد صادق عنبر، الأستاذ حسين فهمي بهجت، محمود خيري باشا، الأستاذ محمد لطفي جمعة، أمين بك الرافعي، الأستاذ أحمد وجدي، عبد الرحمن بك الرافعي، الدكتور عبد الحميد سعيد، الأستاذ أحمد وفيق، الدكتور حافظ عفيفي باشا، مصطفى بك الشوربجي، محمد زكي علي باشا، الأستاذ عبد المقصود متولي، الدكتور بعد الغفار متولين، إبراهيم بك راتب، الدكتور بك سلطان، الدكتور منصور بك فهمي، الأستاذ محمود عزمي، الأستاذ أحمد

(١) كان مصطفى بك النحاس (باشا) وهو قاض بالمحاكم الأهلية، يفخر باعتناق مبادئ الحزب الوطني، وقد انتخب من أجل ذلك وكيلا لنادي بالمدارس العليا، وفي سنة ١٩١٨ اختاره الوفد المصري عضوا فيه باعتباره ممثلا للحزب الوطني هو والدكتور حافظ بك عفيفي (باشا).



obeikandi.com

فايق، الدكتور عبد الحميد أبو هيف بك، عبد السلام بك ذهني، محمد بك صادق جلال، إمام واكد حامد بك العلايلي، الأستاذ حسن حسني، محمد بك فؤاد حمدي، الدكتور أحمد فؤاد، عبد الملك بك حمزة، إسماعيل بك كامل، إسماعيل بك شيرين، حسين بك شيرين، كمال بك الخشن، الأمير أفندي العطار، أحمد بك فهمي القطان، محمد على المهندس، عوض بك البحراوي. عبد الرحمن عزام باشا. الدكتور سيد سليمان عبد الحميد باشا. أحمد مختار المهندس، الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، الأستاذ على فهمي خليل. الأستاذ حسن شافعي الجيزاوي. الدكتور منصور رفعت. إبراهيم بك دسوقي أباظة. عبد الخالق عطية. الدكتور شفيق منصور. الأستاذ محمود خيرت. الدكتور عبد العزيز عمران. الأستاذ عبد الوهاب البرعي. الدكتور يحي الدرديري. عمر بك عارف. الدكتور منصور القاضي. الدكتور حسين همت. الدكتور أحمد توفيق. الأستاذ إسماعيل مظهر. الأستاذ محمود العمري. على بك مراد. هاشم بك مهنا. الأستاذ محمد عرارجي. الأستاذ سليمان حافظ. أحمد أفندي رمضان زيان. محمد أفندي فهمي بشير. الشيخ عبد الباقي نعيم سرور. الأستاذ محمود رمزي نظيم. محمد أفندي عوض جبيل، الأستاذ عبد الوهاب علي. عبد الله أفندي حسن عوض. الدكتور منصور القاضي. المرحوم على أفندي صادق (الإسكندرية)...الخ.

obeikandl.com

## معاصروه من الشعراء والأدباء

كان لظهور الدعوة الوطنية التي بثها مصطفى كامل أثر كبير في تطور الشعر في مصر، واتجاهه إلى الناحية الوطنية، التي لم يطرقها الشعراء من قبل، وبدا الاتجاه في قصائد فحول الشعراء المعاصرين للمترجم، فإن قرائحهم، بتأثير دعوة الفقيد، قد فاضت بالشعر الوطني، وسارت النهضة الأدبية على الأدبية على جانب النهضة الوطنية، تعذيها وتؤيدها، وتسجل حوادثها، وتعبر عن آلامها وآمالها، وردد الشعر صدى الحركة السياسية في الحوادث الهامة.

## حافظ إبراهيم

فمن ذلك أن حادثة دنشواي لقيت صداها في شعر حافظ إبراهيم، فأنشأ في يوليه سنة ١٩٠٦ قصيدته المشهورة عن الحادثة، ندد فيها بسياسة الاحتلال، وقال في مطلعها مخاطبًا المحتلين:

## قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

أيهـــا القـــائمون بـــالأمر فينـــا ... هـــل نســـيتم ولاءَنـــا والـــودادا

خَفِّضـــوا جيشـــكم ونـــاموا هنيئًـــا ... وابتغـــوا صـــيدكم وجوبـــوا الـــبلادا

وإذا أعـــــوزتُكم ذاتُ طـــــوقٍ [١] ... بـــين تلـــك الرُّبـــا فصـــيدوا العبـــادا

إنمـــا نحـــن والحمـــامُ ســـواءٌ ... لـــم تغـــادر أطواقُنـــا الأجيـــادا [٢]

لا تظنـــوا بنـــا العقـــوقَ ولكـــن ... أرشـــدونا إذا ضـــللنا الرشـــاد

لا تقيـــدوا مـــن أمـــة بقتيـــلٍ ... صـــادت الشـــمس نفسَـــه حـــين صـــادا [٣]

---

(١) ذات طوق: أي الحمامة.

(٢) يريد بالأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد، والأجياد الأعناق جميع جيد.

(٣) أي لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس وهو الكبتن بول (أنظر ص ٢٠٧. وأقاد الحاكم القاتل القتيل أي قتله به قودا.



obeikandl.com

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة:

جـــاء جُهَّالُنـــا بـــأمر وجئـــتم ضـــعفَ ضـــعفيه قســـوةً واشـــتدادًا

أحســـنوا القتـــل إن ضـــننتم بعفـــو أقصاصًـــا أردتـــم أم كيـــادا

أحســـنوا لقتـــل إن ضـــننتم بعفـــو أنفوسًـــا أصـــبتمُ أم جمـــادا

ليـت شـعر أتلـك محكمـة التفتـيش عـادت أم عهـد (نيـرون) عـادا

كيـف يحلـو مـن القـوى التشـفِّي مـن ضـعيف ألقـى إليـه القيـادا

إنهـا مُثلـةٌ تَشُـفّ عـن الغـيظ ولسـنا لغـيظكم أنـدادا

أكرمونـا بأرضـنا حيـث كنـتم إنمـا يكـرم الجـوادُ الجـوادا

وقد كان الفقيد شديد الإعجاب بشعر حافظ وأدبه، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١، قرظه في اللواء [١] تقريظًا يدل على عظم تقديره لشاعر النيل، وأسهب في الثناء عليه حين عرب كتاب "البؤساء" سنة ١٩٠٣.

## قصيدة حافظ في حفلة مدرسة مصطفى كامل

وكان حافظ معجبًا بوطنية مصطفى كامل، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين، وظهر إعجابه به وتأييده له بكل جوارحه في قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل، تعليقًا على خطبة الفقيد، قال في مطلعها:

سـمعنا حـديثًا [٢] كقطْـر النـدى فجِّـدد فـي الـنفس مـا جـددا

أضـحى لآمالنـا منعِشًـا وأمسـى لآلامنـا مُرْقـدا

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحببة على الفقيد:

---

(١) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.

(٢) يقصد خطبة مصطفى كامل في الحفلة.



obeikandl.com

فـــديناكَ يـــا شـــرقُ لا تجـــزعنْ إذا اليـــومُ ولَّـــى فراقْـــب غـــدا

فكـــم محنـــةً أعقبـــتْ محنـــةً ووّلـــت سِـــراعًا كـــرَدْع الصـــدى

فـــلا يُســـنك قيـــلُ العـــداة وإن كـــان قـــيلا كحَـــزّ المُـــدى [١]

أتـــودَع فيـــك كنـــوزُ العلـــوم ويمشـــي لـــك الغـــرب مســـترفدا [٢]

وتُبعـــثُ فـــي أرضـــك الأنبيـــاءُ ويـــأتي لـــك الغـــرب مسترشـــدا

وتقضـــي عليـــكَ قضـــاةُ الضـــلال طـــوالَ الليـــالي بـــأن ترقُـــدا؟

أَتشْـــقى بعهـــد ســـما بـــالعلوم فأضـــحى الضـــعيفُ بهـــا أيِّـــدا [٣]

إذا شـــاء بَـــزَّ السُـــها سِـــرَّره وأدرك مـــن جَرْيـــه المقصـــدا [٤]

وإن شـــاء أدنـــى إليـــه النجـــوم فنـــاجي المجَـــرَّرَ والفرقـــدا [٥]

وإن شـــاء زعـــزع شُـــمَّ الجبـــال فخـــرت لأقدامـــه سُـــجَّدا

وإن شـــاء شـــاهد فـــي ذَرَّة عـــوالم لـــم تحْـــىَ فيهـــا ســـدى

زمـــانٌ تُســـخرُ فيـــه الريـــاح ويغـــدو الجمـــادُ بـــه مُنشـــدا [٦]

وتَعْنـــو الطبيعـــةُ للعـــارفين بمعنـــى الوجـــود وسِـــرّ الهُـــدى

---

(١) المدى بالضم جمع مدية وهي السكين.

(٢) مسترفدا أي يطلب الرفد وهو العطاء.

(٣) الأبد بتشديد الياء القوى من الأيد بمعنى القوة.

(٤) بزه سلبه والسها الكوكب المعروف، أي إذا شاء ذو العلم سلب من السهار سره وأظهره للناس.

(٥) المجرة و الفرقد نجوم في السماء.

(٦) يشير إلى الطيران والفونوغراف.



obeikandl.com

إذا مـــا أهـــابوا أجـــابَ الحديـــدُ وقـــام البخـــارُ لـــه مُسْـــعِدا [1]

وطـــارتْ إلـــيهم مـــن الكهربـــاء بُـــروقٌ علـــى السّـــلك تطـــوِى المّـــدى

***

أيَجْمـــلُ مـــن بعـــد هـــذا وذاك بـــأن نَســـتكين وأن نجْمُـــدا؟

وهـــا أمّـــةُ (الصُّـــفر) قـــد مَهـــدت لنـــا الـــنهج فاســـتبقوا المـــوردا [2]

وقال فيها مخاطبًا الشباب:

فيـــا أيهـــا الناشـــئون أعملـــوا علـــى خيـــر مصـــر وكونـــوا يـــدا

ســـتُظهر فـــيكم ذواتُ الغيـــوب [3] رجـــالاً تكـــون لمصـــر الفـــدا

فيَـــا ليـــت شـــعري مـــن مـــنكُم إذا هـــي نـــادت يلبّـــى النـــدا

وقال في ختامها مخاطبًا مصطفى كامل:

لَـــكَ الله يـــا (مصـــطفى) مـــنَ فتـــى كثيـــر الأيـــادي كثيـــر العـــدا

إذا مـــا حمـــدتُكَ بـــين الرجـــال فأنـــت الخليـــقُ بـــأن تحمـــدا

سيُحصـــي عليـــه ســـجلُّ الزمـــان ثنـــاءً يخلـــد مـــا خُلـــدِّا

ويهتـــف باســـمك أبناؤنـــا إذا آن للـــزرع أن يُحصـــدا

والقصيدة من ابلغ شعر حافظ، وتأمل في البيت الأخير منها تجد حافظًا يقر لمصطفى كامل بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجني ثمار هذه الحركة، وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة

---

(١) مسعدا أي معينا.

(٢) أمة الصفر أي اليابان.

(٣) ذوات الغيوب أي الأقدار التي في عالم الغيب.



obeikandl.com

الوطنية سنة ١٩١٨، وجهر به في رثائه للمغفور له محمد فريد في ديسمبر ١٩١٩، إذ قال مناجيًا روح فريد:

قُــلْ (لصَــبّ النيــل [١]) إن لاقيتَــه ... فـــي جـــوار الـــدائم الفـــرد الصَّـــمد

إن مصـــرًا لا تِنـــي عـــن قصـــدها ... رغـــمَ مـــا تلقـــى وإن طـــال الأمـــدْ

جئـــت عنهـــا أحمـــل البشـــرى إلـــى ... (أول البـــانين) فـــي هـــذا البلـــدْ

فاســـترح واهنـــأ ونَـــمْ فـــي غِبطـــةٍ ... قـــد بـــذرتَ الحـــبَّ والشـــعبُ حَصَـــدْ

فحافظ يعترف هنا أيضًا لمصطفى كامل بأنه أول البانين في صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار ما بذبر، ورأي حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦.

واقتبس حافظ من روح مصطفى، وأيده في دعوته الوطنية، وردّد صداها في شعره، اعتبرْ ذلك في قصيدته عن حادثة دنشواي (ص ٣٨٧) وقصيدته في حفلة مدرسة مصطفى كامل (ص ٣٨٨) ثم، قصيدته في استقبال اللورد كرومر عند عودته على مصر في أكتوبر سنة ١٩٠٦، بعد حادثة دنشواي، قال:

---

(١) يريد مصطفى كامل.



obeikandl.com

## قصيدة حافظ في استقبال اللورد كرومر

## بعد حادثة دنشواي

(قصـرّ الـدوبارة [١] هـل أتـاك حـديثُنا ... فالشـرقُ ريـعَ لـه وَضـجَّ المعـربُ

أهـلاً بسـاكنك الكـريم ومرحبًـا ... بعـد التحيـة إننـي أتَعتَّـب

نقلـت لنـا الأسـلاكُ عهنـك رسـالةً ... باتَـتْ لهـا أحشـاؤنا تتلهّـب

إلى أن قال:

إنْ ضـاقَ صـدرُ النيـل عمّـا هالـه ... يـوم الحَمـام [٢] فـإن صـدرك أرحـب"

أو كلمـا بـاح الحـزين بأنَّـه ... أمْسَـت علـى معنـى التعَصَـب تُنسـب [٣]

رفًـا عميـدَ الـدوليتين بأمـة ... ليسـت بغيـر ولائهـا تتعـذب

إن ارهقـوا صـيَّادكم فلعلهـم ... للقـوت لا للمسـلمين تعصـبوا

ولربمـا ضـنَّ الفقيـرُ بقوتـه ... وسـخا بمهجتـه علـى مـن يَغصـب

فـي (دنشـواي) وأنـت عنـا غائـب ... لَعـب القضـاءُ بنـا وعـزَّ المهـرب

حَسـبوا النفـوسً مـن الحمـام بديلـةً ... فتسـابقوا فـي صـيدهن وصـوَّبوا

نُكبـوا وأقفـرت المنـازل بعـدَهم ... لـو كنـتَ حاضَـر أمـرهم لـم ينُكبـوا

خَليـتهم والقاسـطون [٤] بمرصـدٍ ... وسـياطهم وحبـالهم تتأهـب

---

(١) يريد قصر المعتمد البريطاني.

(٢) يوم الحمام يوم صيد الحمام في حادثة دنشواي.

(٣) يشير على زعم اللورد كرومر من أن التعصب الديني هو سبب حادثة دنشواي.

(٤) القاسطون الظالمون.



obeikandi.com

جُلـــدوا ولـــو منَّيـــتهم لتعلقـــوًا بحبـــال مـــن شُـــنقوا ولـــم يتهيبـــوا

شُـــنقوا ولـــو منحـــوا لأهَّلـــوا بلَظـــى ســـياط الجالـــدين ورحَبـــوا [1]

يتحاســدون علـــى الممـــات وكأســـه بـــين الشـــفاهِ وطعمـــه لا يَعـــذُب

موتـــان: هـــذا عاجـــلٌ متنمِّـــرٌ يرْنـــو، وهـــذا آجـــل يترقّـــب

والمستشـــار مكـــاثرٌ برجالـــه ومعـــاجزٌ ومنـــاجز مخُـــزب [2]

يختـــلُ فـــي أنحائهـــا متبســـمًا والـــدمع حـــول ركابـــه يتصـــبب

طـــاحوا بأربعـــةٍ فـــأردوا خامسًـــا هـــو خيـــر مـــا يرجـــو العميـــد ويطُلـــب

حـــبٌ يحـــاولُ غرســـه فـــي أنفـــس يُجنَـــى بمعرســـها الثنـــاءُ الطيـــب

كـــن كيـــف شـــئتَ ولا تكـــل أرواحنـــا للمستشـــار فغـــن عـــدلك أخصـــب

وأفِـــضْ علـــى (بُنـــدٍ) إذا ولـــي القضـــا رفقًـــا يهـــشُ لـــه القضـــاء ويطـــرَب

وقصيدة في شكوى مصر من الاحتلال وقد نشرة في يناير سنة ١٩٠٧ قال:

---

(١) أهلوا ورحبوا أي قالوا أهلا ومرحبا.

(٢) يريد الكابتن متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم، ومعجز عن عاجزات الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزا، وحزب أي جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق والبعض يتولى الجلد.



obeikandl.com

## قصيدة حافظ في شكوى مصر من الاحتلال

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهذَّبَتْ ... حواشيه حتى بات ظلمًا منظمًا

تمنُّ علينا اليوم أن أخضب الترى ... ،أن أصبح المصريُ حُرًا منعما

أعِدْ عهد (إسماعيل) جَلْدًا وسخرة ... فإنى رأيتُ المَنَّ أنكى وآلما

عملتم على عِزّ الجماد وذلنا ... فأغليتُم طينًا وأرْخصتم دما

إذا أخصبتْ أرضُ وأجدب أهلها ... فلا اطلعتْ نبتًا ولا جادَها السَّما

نَهشُ إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاهُ درهما

فلا تحسبوا في وفرة المال– لم تُفدْ ... متاعًا ولم تعصر من الفقر– مَغنما

فإن كثر المال – والخفضُ وارفٌ – ... قليل إذا حل الغلاءُ وخَيما [1]

وقصيدته التي قالها عند استقالة اللورد كرومر في إبريل سنة ١٩٠٧، قال فيها:

## قصيدة حافظ في استقالة اللورد كرومر

فَتى الشعر هذا موطن الصدق والهُدى ... فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا

لقد حان توديع العميد وإنه ... حقيقٌ بتشييع المحبين والعِدا

فودِّع لنا الطودَ الذي كان شامخا ... وشيِّع لنا البحرَ الذي كان مزبِدا

إلى أن قال:

يناديكَ قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) مَعهدا

وأنك أخصبتَ البلادَ تعمُّدا ... وأجدبت في مصر العقول تعمُّدا

---

(١) الخفض سعة العيش يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تغني شيئًا.



obeikandl.com

قضـــيتَ علـــى أم اللغـــات وإنـــه قضـاءٌ علينـا أو سـبيلٌ علـى الـردى (١)

ووافيـــتَ والقطـــران فـــي ظـــل رايـــةٍ فمازلـــت (بالســـودان) حتـــى تمـــردا (٢)

فطـاح كمـا طاحـت (مصَّـوع) بعـده وضـاعت مسـاعينا بأطمـاعكم سـدى

حجَبْـتَ ضـياء الصـحف عـن ظُلماتـه ولـم تسـتقل حتـى حجْبـتَ (المؤيـدا) (٣)

وأودعـــتَ تقريـــر الـــوداع مغـــامزًا رأينـــا جَفـــاء الطبـــع فيهـــا مُجســـدا

غمـــرتَ بهـــا ديـــنَ النبـــي وإننـــا لنغضـبُ إن أغضـبتَ فـي القبـر (أحمـدا)

يناديـــك أيـــن النـــابغون بعهـــدكم وأي بنـــاء شـــامخ قـــد تجـــددا

فمـا عهـد (إسـماعيل) والعـيش ضـيقٌ بأجـدب مـن عهـد لكـم سـال عَسْـجدا

يُناديـــكَ ولَّيـــت الـــوزارة هيئـــةً (٤) مـن الصُّـم لـم تَسـمع لأصـواتنا صـدى

فلـيس بهـا عنـد التشـاور مـن فتـىَ أبـــيّ إذا مـــا أصـــدر الأمـــر أوردا

بربـــك مـــاذا صـــدّنا ولـــوى بنـــا عـــن القصـــد إن كـــان الســـبيل ممهـــدا؟

أشـــرت بـــرأي فـــي كتابـــك لـــم يكـــن ســـديدًا ولكـــن كـــان ســـهمًا مســـددا

وحاولـــت إعطـــاء الغريـــب مكانـــةً تجـــر علينـــا الويـــلَ والـــذَّل ســـرمدًا

فيـــا ويـــل مصـــر يـــوم تشـــقَى بنـــدوةٍ يبيـــتُ بهـــا ذاك الغريـــب مُسَـــودا (١)

---

(١) أم اللغات أي اللغة العربية ويشير على محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.؟

(٢) وافيت أي جئت، والقطران أي مصر والسودان.

(٣) ظلماته أي ظلمات السودان وحجب المؤيد أي منعته عن دخول السودان.

(٤) وزارة مصطفى فهمي.



obeikandl.com

ألـــم يكفنـــا أنـــا سُـــلِبنا ضـــياعَنا  علـى حـين لـم نبلـغ مـن الفَطنـة المـدى

وزاحَمَنـــا فـــي العـــيش كـــل ممـــارسِ  خبيـــــر وكنـــــا جـــــاهلين ورُقَّـــــدا

ومـــا الشـــركاتُ الســـودُ فـــي كـــل بلـــدة  ســـوى شـــركٍ يُلْقـــى بـــه مـــن تَصَـــيدّا

ويبدو مبلغ تقدير حافظ للفقيد في قصيدته التي ألقاها على قبره يوم تشيع جنازة الزعيم، وقصيدته في حفلة الأربعين (وقد نشرناهما ص ٢٨٩ و ٢٩٠ ).

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بإحياء ذكراه الأولى، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي، قال فيها:

## قصيدة حافظ في الذكرى الأولى للفقيد

طوفـوا بأركـان هـذا القبـر واسـتلموا [٢]  واقضـــوا هنالـــك مـــا تقضـــي بـــه الـــذممُ

هُنـــــا جنـــــانٌ تعلـــــى الله بارئَـــــه  ضـــــاقت بآمالـــــه الأقـــــدارُ والهمـــــم

هنـــا فـــمٌ وبنـــانُ طالمـــا نَثـــرا  نثـــرًا تســـيرُ بـــه الأمثـــالُ والحكَـــم

هنـا الكمـيُّ [٣] الـذي شـادتْ عزائمـهُ  لطالـــب الحـــق رُكنًـــا لـــيس ينهـــدم

هنـــا الشـــهيدُ، هنـــا ربُّ اللـــواء، هنـــا  حـــامي الـــذِّمار هنـــا لشـــهْمُ الـــذي علمـــوا

***

يـــا أيهـــا النـــائم الهـــاني بمضـــجَعه  لَيَهْنَـــكَ النـــومُ لا هـــمٌ ولا سَـــقَم

بَاتَـــتْ تســـائلنا فـــي كـــلِّ نازلـــة  عَنْـــكَ المنـــابرُ والقِرْطَـــاسُ والقَلـــم

تركْـــتَ فينـــا فرَاغًـــا لـــيسَ يَشْـــغَلهُ  إلا أبـــيٌّ ذكـــيٌّ القلـــب مضـــطرم

---

(١) يشير على مشروع اللورد كروم في إنشاء مجلس تشريعي مختلط.

(٢) استلم القبر قبله أو لمسة بيده.

(٣) الشجاع.



obeikandi.com

منفَّـــر النـــوم [1] سَـــبَّاقٌ لغايتـــه  آثـــــاره عَمَـــــمُ آمَالُـــــه أُمَـــــمُ

***

إنـــي أرى وفـــؤادي لـــيس يكـــذبني  رُوحًا يَخُـــفُّ بهـــا الإكبـــارُ والعِظَـــم

أرَى جـــلالاً، أرَى نـــورًا، أرى مَلَكًـــا،  أرَى مُحيَّـــــا يحيّينـــــا ويبتســـــم

الله أكبـــرُ، هـــذا الوَجْـــهُ أعْرِفُـــه  هـــذا فتـــى النِّيـــل، هـــذا المُفْـــرد العَلَـــم

غُضّـــوا العُيُـــون وحَيُّـــوه تحيَّتَـــه  مـــن القُلُـــوب إذا لـــم تُسْـــعِد [2] الكَلِـــم

وأقسِـــمُوا أن تـــذودوا عـــن مبادئـــه  فـــنحنُ فـــي موقـــف يحلـــو بـــه القســـم

***

لَبيـــكَ، نحـــن الألـــى حركْـــتَ أنفسَـــهم  لمـــا ســـكنتَ ولمـــا غالـــك العَـــدَمُ

جئنـــا نُـــودِّي حســـابًا. عـــن مواقفنـــا  ونســـــتمدّ ونســـــتْعدِى [3] ونحـــــتكم

قيـــل اســـكُتوا فســـكَتْنَا ثـــم أنطقنـــا  عســـفُ الجُفَـــاة [4] وأعلـــى صـــوتنا الألـــم

قـــد اتّهْمَنـــا ولمـــا نَطَّلـــبْ جَلَـــلاً  إن الضـــعيفَ علـــى الحـــالَين مُـــتّهم

قـــالوا لقَـــد ظَلَمُـــوا بـــاَلْحقِّ أنفُسَـــهُمْ  والله يَعْلَـــمُ أن الظـــالمين هُـــمُ

إذا سَـــكَتْنا تَنَـــاجَوْا: تلـــك عَـــادَتهُم  وإنْ نَطقنـــا تَنَـــادَوْا: فِتْنَـــةٌ عَمَـــم

قـد مَـرَّ عَـامُ بِنـا والأمْـرُ يَحْـزُ بُنَـا [1]  آنـــا، وآونـــة تنتابُنـــا الـــنِّقَم

---

(١) منفر النوم أي مسهد.

(٢) أسعده أعانه.

(٣) نستمد نطلب المدد، ونستعدي، نستنصر.

(٤) يريد بالجفاة المحتلين.



obeikandl.com

فالنـاسُ فـي شـدةِ والـدّهْرُ فـي كَلَـبِ [٢] ولعَـيْشُ قـد حَـارَ فيـه الْحَـاذقُ الفهـم

وللسياســـة فينـــا كـــلّ آونـــةٍ لَـــوْنٌ جديـــدٌ وعَهْـــدٌ لـــيس يُحْتـــرِم

بينـا نـرَى جَمرَهـا تُخشـى مَلاَمسـه إذا بـــه عنـــد لِمْـــسِ المُصْـــطَلَى فَخَـــم

تصـــغى لأصـــواتنا طـــورًا لتخـــدَعنا وتَـــارَةً يُزْدَهيهـــا الكِبْـــرُ والصَّـــمَم

فمـــن مُلايَنَـــةٍ أسْـــتَارُها خـــدَعٌ علـــى مُصَـــالبةٍ أسْـــتَارُها وَهَـــم

مـاذا يريـدون [٣]؟ لا قـرّت عيـونهم إن الكنانـــة لا يُطْـــوَى لهـــم عَلَـــم

كـم أمـة رغبـتْ فيهـا فلمـا رسـخت لهـا- علـى حولهـا [٤]- فـي أرضـها قَـدَم

مـا كـان ربـكَ، ربُّ البيـت، تاركهـا وهـــي التـــي بحبـــال منـــه تَعْتصـــم

بيـك إنَّـا علـى مـا كنـت تعهـده حتـــى نَسُـــود وحتـــى تشـــهد الأمـــم

فـيْعَلم النيـل أنَّـا خيـرُ مـن وردوا ويســـتطيل اختيـــالاً ذلـــك الهـــرم

إلى أن قال:

يـا أيهـا الـنشء سـيرُوا فـي طريقتـه وثـابرُوا، رضـيَ الأعْـدَاءُ أو نقمـوا.

فكلكـم (مصـطفى) لـو سَـارَ سـيرتهُ ولكلكـم (كامـل) لـو جـازه [٥] السَّـأم

قـد كـان لا وانيًـا يومًـا ولا وَكِـلاً [٦] يســـتقبل الخطـــب بَسَّـــامًا ويقـــتحم

---

(١) حزبه الأمر: اشتد عليه.

(٢) الكلب: الشدة.

(٣) يريد المحتلين.

(٤) الحول: القوة.

(٥) جازمه أي جاوزه.

(٦) الوكل العاجز الذي يكل الأمر إلى غيره.



obeikandi.com

وأن يـــا قبـــر قـــد جئنـــا علـــى ظمـــأ ... فجـــدْ لنـــا بجـــواب، جـــادك الّـــيم [1]

أيـــن الشـــبابُ الـــذي أودعـــتَ نضـــرته ... أيـــن الخـــلال – رعـــاك الله – والشـــيم؟

ومـــا صـــنعت بآمـــال لنـــا طُويـــت ... يـــا قبـــرُ فيـــكَ وعفَّـــى رســـمها القـــدم؟

ألا جـــوابٌ يَـــروّي مـــن جوائحنـــا؟ ... مـــا للقـــبُـــور إذا نُوديـــت تجـــمُ حاشـــية [2]

نـــم أنْـــتَ، يكفيـــك مـــا عانيـــت مـــن تعـــب ... فـــنحنُ فـــي يَقظـــةٍ والشـــملُ ملتـــئم

هـــذا (لـــواؤك) خفَّـــاقٌ يظللنـــا ... وذاك شخصـــك فـــي الأكبـــاد مُرْتســـم [3]

---

(١) الديم جميع ديمة السحاب.

(٢) وجم يجم سكت عن الكلام.

(٣) توفى حافظ إبراهيم "شاعر النيل" في يوليه سنة ١٩٣٢.



obeikandl.com

# شوقي

أما شوقي، أمير الشعراء، فقد كان صديقًا حميمًا للفقيد، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فهما صنوان، وفرسا رهان، هذا في ميدان الوطنية والجهاد، وذاك في دولة الشعر والبيان، وان الفقيد يصف شوقي بأنه "الغدير الصافي في ألفاف الغاب، يسقي الأرض ولا يبصره الناظرون"، وكان يخصص لقصائده أمسى مكان في اللواء، وفي ذلك يقول في مرثاته الخالدة:

قد كنت تهتف في الورَى بقصائدي وتجلّ فوقَ النيرين مكاني

وزار الفقيد وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه أن يرثيه، وفي ذلك يقول:

وجعلت تسألني الرَّثَاء فهاكه من أدْمُعي وسَرَائري وجناني

وكان لدعوة مصطفى كامل أثرها في شعر شوقي، فمن ذلك أنه لما دعا الأمة سنة ١٩٠٢ إلى الاحتفال بالعيد المئيني لولاية محمد على (ص ١٦٧)، لبى شوقي نداءه، وأنشأ في مايو سنة ١٩٠٢ قصيدة من غرر قصائده، تخليدًا لهذا العيد [١]، قال فيها مناجيًا روح محمد علي:

## قصيدة شوقي في الاحتفال بالعيد المئيني لولاية محمد علي

عَلضمٌ أنْتَ في المشارق مُفردْ لكَ في العالمين ذكر مُخلدْ

حَبذا دولةٌ ومُلكٌ كبيرٌ أنتَ بَاني ركنيهما يَا محمد

ولوَاءٌ في البرِّ والبحر يُعْطى مظهر الشمْسِ في الوُجُود وأزيد

تُدْخِلُ الأرض فيه قُطرًا فَقُطرًا مُدْخَلَ الناس في شريعة أحمد

تملأ الأرض صافِنَاتٍ وتجْري لك في البحر كلَّ برج مُشَيَّد

هكذا فينلْ سماء المعالى من سعى في الورَى لمجد وسؤدد

---

(١) نشرها اللواء في عدد ٢٢ مايو سنة ١٩٠٢.



obeikandl.com

وثبـــاتٌ فـــي الحاثـــات وعـــزمٌ مِثـــلُ ريـــب الزَّمَـــان لا يَتـــرَدّد

تضـــع الســـيف موضـــعًا يرْتَضـــيه ومـــن البـــأس مـــا يـــذمُّ ويُحْمـــد

وتَصُـون النـوالَ عـن حُسْـن صُـنع لـــكَ يُنســـى ونعمـــةٍ لَـــكَ تجحـــدُ

لا تُبَـــالي بحاسِـــد وعَـــدُو آيـــة الفضـــل أن تُعـــادي وتحســـد

همســـةُ الفـــاتحين حكـــمٌ وقهـــرُ ولـــكَ الهمـــة التـــي هـــي أبعـــد

لـــيس مـــن يفـــتح الـــبلاد لتشـــقى مثـــل مـــن يفـــتح الـــبلاد لتســـعد

علمـــت مصُـــر والحجـــاز وأرض النـــوب والشـــام أن عهـــدك عَســـجد

أنـــت إن أحصـــى النوابـــغ فـــي الملـــ ـــك كـــريمُ الثنـــا علـــى الـــدهر أوحـــد

أيـــــدتهم قرابـــــةٌ وقبيـــــلٌ وأرى الله وحـــــده لـــــك أيـــــدٍ

فتـــــولاك والليـــــالي خُبـــــالى وتـــــولاّك والحـــــوادثُ تولـــــد

ورمـــــى عنـــــك والملـــــوكُ رمـــــاة نصفهم واجدون والنصفُ حُسِّد [1]

ركـــن مصـــرٍ أقمـــت بعـــد انقضـــاض أمـــــةٌ جُمعـــــت وأمـــــر تـــــوح

***

يـــا مُـــديم الرقـــاد فـــي خيـــر مرقـــد قـــم فمـــا حـــلّ قبلـــك الأرض فْرقـــد

وانظـــر الشـــرق كيـــف أصـــبح يهـــوى وأنظـــر الغـــرب كيـــف أصـــبح يصـــعد

وتأمـــــلْ ممالكًـــــا وبـــــلادًا لمـــــسَ الـــــدهُر عقـــــدها فتبـــــدد

كنـــتَ تحميـــه [1] والســـيوفُ عـــوار مـــن لـــه اليـــوم بالحســـام المجـــرد؟

---

(١) واجدون: غاضبون.



obeikandi.com

ينشـــر النـــور والحضـــارة فيـــه ... كلمـــــا زُوِّد الشـــــعوب تـــــزوّد

وتـــرى الأمـــر بـــين قلـــبٍ ذكـــيّ ... فـــي يديـــه وبـــين جفـــن مُســـهد

يـــا عصـــام الملـــك هـــل كنـــت تســـلو ... عـــن عـــروش الملـــوك أو كنـــت تزهـــد

صَّـــغر الجـــاهلون بـــالنفس مســـعاك ... وعـــــرُ النفـــــوس فيـــــه ممهـــــدَّ

مـــا ســـمعنا بفـــاتح ســـلَّ ســـيفًا ... يأخـــذ الملـــكَ حـــدُّه ثـــم أغمـــد

حالـــةٌ ســـامها (الأمـــينَ) أخـــوه ... وأمـــــروٌ بهـــــا (أميـــــة) يشـــــهد

ثُبـــت فـــي فتنـــة الحجـــاز إلـــيهم ... حـــين أخمـــدتها ولـــم تـــك تخمـــد

وآتـــــاهم بعـــــذره لـــــك بيـــــت ... كلمـــا جنـــدوا إلـــى الحـــرب جنـــد

يحفـــظ الملـــك ملـــك مصـــر علـــيهم ... جـــوهرًا فـــوق تـــاجهم يتوقـــد

زعمـــوا الشـــرق مـــن فعالـــك قَلـــقَ[1]ًا ... وأرى الشـــرق فـــي يمينـــك أقعـــد [٢]

جئتـــه بالحيـــاة والنـــور والثّمـــدين ... والـــــرأي القنـــــا والمهنـــــدٌ

كـــان بـــين الـــورى بـــركن فعـــزّزْت ... بثـــانٍ والـــركنُ بـــالركنِ يشـــتد

***

شـــرفًا فـــي الزمـــان آلَ علـــيٍّ ... جـــدّكم شـــيدُ الملـــوك المســـوَّد

ارجعـــوا فـــي العُـــلا إليـــه وروموا ... نهجـــه، الـــذي كـــان أقْصـــد

ألبســـوه كمـــا كســـاكم فخـــارًا ... كلمـــا رثَّـــت الثيـــاب تجـــدد

---

(١) أي الشرق.

(٢) أقعد أي أمكن وأثبت.



obeikandi.com

وامـــلأوا مســـمع الزمـــان حـــديثًا كـــدويّ الخضـــمّ أرغَـــى وأزبـــد

إنمـــا النـــاس أمـــة لا يموتـــون وأخـــرى تمـــر مـــرًا وتنفـــد

وأرى جـــدَّكم علـــى الـــدهر حيًّـــا خالـــدَ الـــذكر والثنـــاء المـــردّد

***

قصيدة شوقي في وداع اللورد كرومر

وقال سنة ١٩٠٧ ضمن قصيدته المشهور في وداع اللورد كرومر:

أيـــامُكم أم عهـــد إســـماعيلا أم أنـــت فرعـــون يســـوس النـــيلا

أم حـــاكمٌ فـــي أرض مصـــر بـــأمره لا ســـائلا أبـــدًا ولا مســـئولا

يـــا مالكًـــا رقّ الرقـــاب ببأســـه هـــلاَّ اتخـــذت إلـــى القلـــوب ســـبيلا

لمـــا رحلـــتَ عـــن الـــبلاد تشـــهدّت فكأنـــك الـــداءُ العيـــاء رحـــيلا

أوسَـــعْتنا يـــومَ الـــودَاع إهانـــةَ أدبٌ لعمـــر لا يصـــيبُ مثـــيلا

إلى أن قال:

أنـــذرتنا رقًّـــا يـــدوم وذلـــةً تبقـــى وحـــالاً لا تـــرى تحـــويلا

أحســـبت أن الله دونـــك قـــدرةً لا يملـــك التغييـــر والتبـــديلا

الله يحكـــم فـــي الملـــوك ولـــم تكـــن دولٌ تنازعـــه القـــوى لتـــدولا

فرعـــونُ قبلـــك كـــان أعظـــمَ ســـطوةً وأعـــز بـــين العـــالمي قبـــيلا

اليـــومَ أخلفـــت الوعـــودَ حكومـــةٌ كنـــا نظـــن عهودَهَـــا الإنجـــيلا

دخلـــت علـــى حكـــم الـــوداد وشَـــرعه مصـــرًا فكانـــت كالســـلال دخـــولا

هـــدمت معالمهـــا وهـــدت ركنهـــا وأضـــاعت اســـتقلالها المـــأمولا

وقال:

قــد مــدَّ إســماعيل قبلــك للــورى ظــلّ الحضــارة فــي الــبلاد ظلــيلاً

إن قـيس فـي جـود وفـي سـرف إلـى مــا تنفقــون اليــوم عــدَّ بخــيلا

أو كــان قــد صــرع المفــتشَ مــرةً فلكــم صــرعَ بدنشــواي قتــيلا

لا تــذكر الكربــاج فــي أيامــه مــن بعــد مــا انبــتّ فيــه ذيــولا

obeikandl.com

## قصيدة في ذكرى دنشواي

وقال سنة ١٩٠٧ عن (ذكرى دنشواي) بعد مرور عام على حادثتها في سبيل طلب العفو عن سجنائها [١]:

يـــا دنشـــواي علـــى ربـــاكِ ســـلامُ ذهبـــت بـــأنس ربوعـــك الأيـــامُ

شـــهداء حُكمـــك [٢] فـــي الـــبلاد تفرّقـــوا هيهـــات للشـــمل الشـــتيت نظـــام

مـــرت علـــيهم فـــي اللحـــود أهلّـــةٌ ومضـــى علـــيهم فـــي القيـــود العـــام

كيـــف الأرامـــلُ فيـــك بعـــد رجالهـــا وبـــأيِّ حـــال أصـــبح الأيتـــام

عشـــرون بيتًـــا أقفـــرت وانتابهـــا بعـــد البشاشـــة وحشـــةٌ وظـــلام

يـــا ليـــت شـــعري فـــي البـــروج حَمَـــائم أم فـــي البـــروج منيـــةٌ وحَمَـــام

(نيـــرونُ) لـــو أدركـــتَ عهـــد كرومـــرٍ لعرفـــتَ كيـــف تنفـــذ الأحكـــام

***

نـــوحى حمـــائمَ دنشـــواي ورَوّعـــي شـــعبًا بـــوادي النيـــل لـــيس ينـــام

إن نامـــت الأحيـــاء حالـــتْ بينـــه سَـــحرًا وبـــين فراشـــه الأحـــلام

متوجَـــعٌ يتمثـــل اليـــومَ الـــذي ضـــجتْ لشـــدة هولـــه الأقـــدام

وتدل مرثاة شوقي على مبلغ ما يكنه للقيد من الإعجاب والإكبار، وتعد قصيدته أعظم مرثاة في تاريخ الأدب العربي، وكان لا يفتأ يذكره بعد وفاته في قصائده، فمن ذلك قصيدته التي نظمها بمناسبة ذكراه السابعة بعنوان (شهيد الحق). تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة

---

(١) اللواء عدد ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٧.

(٢) أي حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواي.



obeikandl.com

١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى الفقيد فوفاه حقه، قال في مطلعها:

## قصيدة شوقي في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٥

إلامَ الخُلْفُ بينكمو إلاما؟ وهذى الضجةُ الكبرى علاما؟

وفيمَ يكيدُ بعضكمو لبعضٍ وتُبدون العداوة والخصاما؟

وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حالٍ ولا السودان دامَا

إلى أن قال:

ولَينا الأمَر حزبًا بعد حزب فلم نك مصلحين ولا كراما

جعلن الحكم توليةً وعزلا ولم نَعْدُ الجزاءَ و الانتقاما

وسُمْنا الأمر حين خلا إلينا بأهواء النفوس فما استقاما

وقال ذاكرًا مناقب الفقيد:

شهيدَ الحق قم ترَه يتيمًا بأرض ضُيّعتْ فيها اليتامى

أقام على الشفاه بها غريبًا ومرّ على القلوب فما أقاما [1]

سقِمتَ فلم تَبِت نفسٌ بخير كأن بمهجة الوطن السقاما

ولم أر مثلَ نعشك إذ تهادى فغطىَّ الأرضَ وانتظم الأناما

تَحمل همةً، وأقَلَّ دينًا وّضم مروءةً وحوى زماما

وما أنساكَ في العشرين لما طلعتَ حيالها قمرًا تمامًا

يُشارُ إليك في النادي وتُرمَى بعيني من أحب ومن تعامى

---

(١) أي أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر في القلوب.



obeikandl.com

إذا جئـــتَ المنـــابر كنـــت (قُسًـــا) إذا هـــو فـــي عكـــاظَ عَـــلا الســـناما

وأنـــت ألـــذُّ للحـــق اهتـــزازًا وألطـــف حـــين تنطقـــه ابتســـاما

وتحمـــل مـــن أديـــم الحـــق وجهًـــا صـــراحًا لـــيس يتْخـــذ اللثْـــاما

***

أتـــذكُر قبـــل هـــذا الجيـــل جـــيلاً ســـهرنا عـــن معلّمهـــم ونامـــا

مِهـــارُ الحـــق بَّغْضـــنا إلـــيهم شـــكيمَ القيصـــرية واللجامـــا [١]

لـــواؤك كـــان يســـقيهم بجـــام وكـــان الشـــعر بـــين يـــديَّ جامـــا [٢]

مـــن الوطنيـــة اســـتبقوا رحيقًـــا فضَضْـــنا عـــن معتقهـــا الختامـــا

غرســـنا كَرمهـــا فزكـــا أصـــولا بكـــل قـــرارة وزكـــا مُـــداما

جمعتهمـــو علـــى نبـــرات صـــوت كـــنفخ الصّـــور حركـــت الرجامـــا [٣]

لـــكَ الخطـــبُ التـــي غـــص الأعـــادي بسْـــورتها وســـاغت للنـــدامي [٤]

فكانـــت فـــي مرارتهـــا زئيـــرًا وكانـــت فـــي حلاوتهـــا بغامـــا [٥]

بـــكَ الوطنيـــة اعتـــدلت وكانـــت حـــديثًا مـــن خرافـــةَ أو منامـــا

بنيـــتَ قضـــية الأوطـــان منهـــا وصـــيرَّت (الجـــلاء) لهـــا دِعامـــا

---

(١) مهار جمع مهر والمراد بالمهار هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها بطش الاحتلال وجبروته.

(٢) الجام الإناء من الفضة.

(٣) الرجام القبور.

(٤) السورة الحدة والشدة، والندامى جمع نديم والمراد بهم الأنصار والأصدقاء.

(٥) البغام صوت الطبي.



obeikandi.com

## قصيدة في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٦

وله قصيدة ألقيت في الاحتفال بذكرى الفقيد في فبراير سنة ١٩٢٦ قال:

لم يَمُت من له أثرْ ... وحياةُ من السِّيرْ

أدعْه غائبًا وإن ... بعدت غاية السفر

آيب الفضل كلما ... آبت الشمس والقمر [١]

رُبَّ نور مُتَمِّم ... قد أتانا من الحُفَر

إنما الميْت من مشى ... ميِّت الخُبْر والخَبر

من إذا عاش لم يُفد ... وإذا مات لم يضر

ليس في الجاه والغنى ... منه ظلٌّ ولا ثمر

فَبُحَ العزُّ في القصور ... إذا ذَلّت القُصُر

أعْوزَ الْحق ذائدٌ ... وإلى (مصطفى) افتقر

وتمنّت حياضه ... هبّةَ الصارم الذكر

الذي يُنْفذ المدى ... والذي يركب الخطر

أيها القوم عَظِّموا ... واضح الأسّ والحجر

أذكروا الخُطبة التي ... هي من آية الكبر

لم ير الناس قبلها ... منبرًا تحت محتضر

لستُ أنسى لواءَه ... وهو يمشي على الظّفر

---

(١) أي يعود للفقيد فضل ويتجدد له ذكر كلما آبت الشمس وعاد القمر.



obeikandl.com

حَشَـــــرَ النـــــاسَ تحتَـــــه  زُمَـــــرًا إثْرُهـــــا رمـــــز

وتـــــرى الحـــــقَّ حولَـــــه  لا تـــــرى البـــــيضَ

كلمـــــا راح أو غـــــدا  والسـمر [1] نفـخ الـروح فـي الصـور

***

يـــا أخـــا الـــنّفْس فـــي الصـــبا  لـــذةُ الـــروح فـــي الصِّـــغَر

وخلـــــيلاً ذَخَرتُـــــه  لـــــم يقَـــــوَّم بمـــــدّخر

حـــــال بينـــــي وبينـــــه  فـــــي فُجاءاتـــــه القـــــدَر

كيـــــفَ أجْـــــزى مَـــــوَدَّةً  لـــــم يَشُـــــبْ صَـــــفْوَها كَـــــدر

غيـــــرَ دمـــــع أقولـــــه  قَـــــلَّ فـــــي الشـــــأن أو كَثُـــــر

وفـــــؤادٍ مُعَلَّـــــلٍ  بالخيـــــالات والـــــذكَر

لـــــم يـــــنم عنـــــك سَـــــاعةَ  فـــــي الأحاديـــــث والسَّـــــمر

قـــــم تـــــر القـــــومَ كتلـــــة  مثـــــل مَلْمُومـــــة الصـــــخر

جَـــــدَّدوا ألفـــــة الهـــــوى  والإخـــــاء الـــــذي شـــــطر

لـــــيس للخُلـــــف بيـــــنهم  أو لأســـــبابه أثـــــر

ألَّفـــــتهم روائـــــحٌ  غاديـــــاتٌ مـــــن الغيـــــر

وصَـــــحوا مـــــن منـــــوّم  وأفـــــاقوا مـــــن الخـــــدّر [2]

---

(١) البيض السيوف والسمر الرماح.

(٢) الخدر الكسل.



obeikandl.com

أقبلـــــوا نحـــــو حَقّهُـــــم ... مـــــا لـــــه غيـــــره وطـــــر

جَعَلـــــــــوه خليَّـــــــــةً ... شَـــــرَعُوا دونهـــــا الإبـــــر

وتَوَاصَـــــــــوْا بخطّـــــــــةٍ ... وتَـــــــــدَاعَوْا لمـــــــــؤتمر

وقصـــــــارى أولـــــى النهـــــى ... يتلاقَـــــوْنَ فـــــي الفكـــــر

آذنونـــــــــا بموقـــــــــفٍ ... مـــــن جـــــلال ومـــــن خطـــــر

نســـــمع الليـــــثَ عنـــــده ... دون آجامـــــــــــــــــه زأر

قـــــل لهـــــم فـــــي نـــــديّهم [1] ... مصـــــر بالبـــــاب تَنْتظـــــر [2]

## إسماعيل صبري

وكان الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبري صديقًا صدوقًا للفقيد، أيده في جهاده منذ الساعة الأولى، كان محافظًا للإسكندرية سنة ١٨٩٦-١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يلقي بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت الحكومة غليه أن يمنع إقامة الاجتماع الذي أعد لإلقاء الخطبة، بحدة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى على الحكومة ما أرادت ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام [3].

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (نوفمبر سنة ١٨٩٩) ظل على مودته للفقيد، وان يخرج في غالب الأيام من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضي معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له في الوقت الذي كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقي في رثائه لإسماعيل صبري [4] إذ يقول:

---

(١) يريد البرلمان.

(٢) توفى أحمد شوقي أمير الشعراء في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

(٣) ذكر هذه الواقعة الأستاذ الأديب أحمد الزين في مقدمته لديوان إسماعيل صبري باشا ص ٣٢.

(٤) توفى إسماعيل باشا صبري سنة ١٩٢٣.



obeikandl.com

ويْــح الشــباب وقــد تخطّــر بيــنهم هـــل مُتِّعـــوا بتمسُّـــح وطـــواف

لـــو عـــاش قُـــدوتهم وربُّ (لـــوائهم) نَكـــس (اللـــواء) لثابـــت وقَّـــاف [١]

فلكـــم ســـقاه الـــودَّ حـــين ودادُه جَـــرَبُ لأهـــل الحكـــم والأشـــراف

وتجد في شعر إسماعيل صبري انسجاما مع روح الفقيد، قال في قصيدة له وجهها إلى الخديو عباس الثاني يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨، يدعو على الدستور:

ســـدِّد سِـــهام بالشـــورى يُحـــط بـــكَ منـــه فـــي ظُلَـــم الحـــوادث فيلـــقُ

واســبقْ بـــه واضـــربْ بـــه وافـــتحْ بـــه مـــا شـــئت مـــن بـــابٍ أمامـــك يغلـــق

وقال فيها يذكر حادثة دنشواي والعفو عن مسجونيها:

وأقَلْـــتَ عثـــرة قريـــة حكـــم الهـــوى فـــي أهلهـــا وقضـــى قضـــاءٌ أخـــرقُ

إنْ أنَّ فيهـــا بـــائسٌ ممـــا بـــه أو رنّ جاوبـــه هنـــاك مُطّـــوقُ [٢]

وا رحمتـــا لُجنـــاتهم مـــاذا جنـــوا وقضـــاتهم مـــا عـــاقهم أن يتقـــوا [٣]

مـــا زال يُقـــذى كـــلَّ عـــين مـــا رأوا فيهـــا ويـــؤذي كـــلَّ ســـمع مـــا لقـــوا

حتـــى حكـــمَ فجـــاء حكمـــك آيـــةً للنـــاس طـــيَّ صـــحيفة تتـــألق

نزلـــتْ ترفـــرف حـــول كاتـــب نصـــها زمـــرًا ملائكـــةُ الرضـــى وتحلّـــق

شـــكرتك مصـــرُ علـــى ســـلامة بعضـــها شـــكرًا يغـــرِّب فـــي الـــورى ويشـــرِّق

---

(١) قوتهم أي قدوة الشباب، ورب اللواء هو الفقيد صاحب اللواء، أي لو عاش مصطفى كامل حتى شهد وفاة إسماعيل صبري لنكس اللواء حدادا عليه.

(٢) رن الرجل رنينا صاح ورفع صوته بالبكاء، والمطوق السجين.

(٣) قضاتهم أي قضاة المحكمة المخصوصة (انظر ص ٢٠٠).



obeikandl.com

ذكـرتْ لـك الصـفح الجميـل ولـم تـزل ترمـــى علـــى أمـــر أجـــلّ وترمُـــق [1]

فـــــانون دنشـــــواي ذلاك صـــــحيفةٌ تُتلـــــى فترتـــــاع القلـــــوب وتخفـــــق

هـــل يُرتجـــى صـــفو ويهـــدأ خـــاطرٌ والمـــوت حـــول نصوصـــها يترقـــرق

ومضـــــاجع القـــــوم النيـــــام أواهـــــلٌ بمعَّـــــذب يـــــردَى وآخـــــر يرهـــــقُ

لـــن تبلـــغ الجرحـــى شـــفاءً كـــاملاً مـــــا دام جارحهـــــا المهنَّـــــد يبـــــرق

فـــاحكم بغيـــر العنـــف واكســـر ســـيفه فـــــالح أجمـــــلُ والمكـــــارم أليـــــقُ

وقال سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمي باشا حين سقطت وزارته:

عجبـتُ لهْـم قـالوا "سـقطت" ومـن يكـن مكانـــك يـــأمن مـــن ســـقوط ويســـلمِ

فأنـــت امـــرؤٌ ألصـــقتَ نفســـك بـــالثرى وحرّمـــت خـــوف الـــذُّلِّ مـــا لـــم يُـــرّم

فـــو أســـقطوا مـــن حيـــثُ أنـــت زجاجـــةً علـــى الصـــخر لـــم تُصـــدع ولـــم تـــتحطَم [2]

وقد جزع لوفاة الفقيد جزعا شديدًا، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير، ووقف على قبره يلقي قصيدته في وداعه، ولم يكد يلقي البيت الأول منها وهو:

أداعـي الأسـى فـي مصـر ويحـك داعيـا هـــددت القـــوى إذ قمـــت بـــالأمس ناعيـــا

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يستطيع أن يتم القصيدة، وتدل قصيدته في حفلة تأبينه (ص ٢٧٧) على مبلغ حبه وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به وشدة حزنه عليه، فجاءت آية في البلاغة ورقة التعبير، وكأن كل بيت منها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم.

---

(١) يريد الدستور.

(٢) أي أن مصطفى فهمي باشا كان في منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها بحيث لو اسقطوا زجاجة في ذلك المكان المنخفض لم تتكسر.



obeikandl.com

# خليل مطران

وكان بين الفقيد وشاعر القطرين خليل مطران صداقة وود داما طول العمر، ويبدو ومبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته في قصيدته في حفلة الأربعين (ص ٢٩٢)، وقد نشرها في ديوانه، وصدرها بهذه الكلمة التي تعد في ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال:" مصاب الشرق في رجله المفرد، وبطله الأوحد، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة: إن في هذا الديوان الذي اختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، وداع المجاهد المتطوِّع للقائد العظيم".

وظل خليل مطران (رحمه الله) على تعاقب السنين، يحفظ عهد صديقه العظيم، ويشيد بذكراه، وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفًا رائعًا للنهضة القومية التي كونت حافظًا وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هي غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدها بجهده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها، قال فيها:

طـــرأت حالـــةٌ تـــيقَّظ فيهـــا ... لـــدعاة الهـــدى ضـــمير الســـواد [١]

فـــإذا (حـــافظ) وقـــد بـــثَّ مـــا فـــي ... نفســـه مـــن تجهّـــم واربـــداد

وبـــدا للمنـــى الجلائـــل فيهـــا ... أفـــقٌ واســـعُ المـــدى لارتيـــاد

مـــا تَجلـــى نبوغُـــه كتجليـــه ... وقـــد هـــب (مصـــطفى) للجهـــاد

يـــوم نـــادي الفتـــى العظـــيم قلبّـــي ... مـــن نَبـــا [٢] قبلَـــه بصـــوت المنـــادي

وورَى [٣] ذلـــك الشـــعور الـــذي كـــان ... كمينًـــا كالنـــار تحـــت الرمـــاد

فتـــأتّي بعـــد القنـــوط الـــدّجُوجّي [٤] ... رجـــاء للشـــاعر المجـــواد

---

(١) يريد الجمهور.

(٢) نبا تجافي وتباعد.

(٣) ورى الزند خرجت ناره.

(٤) المظلم.

مـــس منـــه الســـوادَ فانبجســـت نـــار ... ونـــــور مـــــن طـــــيّ ذاك الســـــواد

أكبـــــر الـــــدهرُ وثبـــــةً وثبتهـــــا ... مصُـــــر مفتكّـــــة مـــــن الأصـــــفاد

وثُغـــاءٌ [١] غـــدا هزيمًـــا [٢] فـــألقى ... رُعْبـــــه فـــــي مـــــرابض الآســـــاد

مـــا الـــذي أخـــرج الشـــجاعة مـــن حيـــث ... طوتهـــــــا قـــــــرونُ الاســـــــتبداد

وجَـــلا غُـــرة الصـــلاح فلاحـــت ... تزدهـــــي مـــــن غياهـــــب الإفســـــاد

فـــــإذا أمـــــةٌ أبيـــــةٌ ضـــــيم ... مالهـــــا غيـــــر حقهـــــا مـــــن عَتـــــاد

نهضـــــت فجـــــأة تنـــــافح فـــــي آنٍ ... عـــــدوين أســـــرفا فـــــي اللـــــداد

أجنبيًـــــا ألقـــــى المراســـــىَ حتـــــى ... تقـــــلَ الراســـــياتُ فـــــي الأطـــــواد

وهوانًـــــا كأنمـــــا طبـــــع الشـــــعبَ ... عليـــــــه تقـــــــادمُ الإخـــــــلاد

حلبـــــة يُعـــــذرُ المقصّـــــر فيهـــــا ... والخـــــواتيم رَهـــــن تلـــــك المبـــــادى

لـــــيس تغييـــــرُ مـــــا بقـــــوم يســـــيرًا ... كيـــــف مـــــا عُـــــودوه مـــــن آمـــــاد

غيـــــر أن الإيمـــــان كـــــان حليفًـــــا ... لقلـــــــوب الطليعـــــــة الأنجـــــــاد

فاســـتعانوا بـــه علـــى مـــا ابتغـــوه ... غيـــر بـــاغين مـــن بعيـــد المـــراد

إلى أن قال:

بعـــــد وثْـــــبٍ عنيـــــف ... وارتـــدادٍ فـــي الشـــوطِ غـــبّ ارتـــداد

ســـاور الأمـــة التـــردُ والتَّـــاث [٣] ... عليهـــا فـــي الســـيروجهُ الرشـــاد

---

(١) الثغاء صوت الشاة والمعز.

(٢) الهزيم صوت الرعد.

(٣) التاث عليه الأمر اختلط والتبس.



obeikandl.com

لا تسل يومذاك عن جلد القاده ... في مُلتقى الخطوب الشداد

كلما ازدادت أبواً ! ... لاً كفاحًا وعزمُهم في ازدياد

يبذلون القوى وفوق القوى غير ... مبالين أنها لنفاد

و(الزعيمُ الأبرُّ) أُطيبهُم نفسًا ... عن النفس في صراع العوادي

هل ينجي شعبًا من اليأس إلا ... حَدَث من خوارق المعتاد

مصطفى مصطفى بحسبك إن يذكرْ ... فداءٌ أن كنتَ أو فاد

مصطفى مصطفى ليهنئك أن احييت ... قومًا بذاك الاستشهاد

دب فيه روحٌ جديد له ما ... بعدَه في القلوب والأخلاد [1]

تنقضى الحادثات بعدك والرُّوح" ... مقيمٌ فيهم على الآباد

كادَ يومٌ شيعتَ فيه يريهم ... لمحةً من جلال يوم المعاد

صدروا عنه بالتعارف فيما ... بينهم وهو قوة الأعداد [2]

واستشفوا لبأسهم فيه سرًا ... كم تحامى أن يدركوه الأعادي

هذه مصر الفتية هبتْ ... في صفوفٍ فتيةً للذياد

رجل مات مخُلفًا منه جيلاً ... رابط الجأش غير سهل المقاد

عهد نور من الحفاظ ونار ... بعد طول الخمود والإخماد

تخذت عبقرية الشعر فيه ... سلمًا للعروج والإصعاد

---

(١) العقول.

(٢) أي قوة الاتحاد.



obeikandi.com

أبلغــت (حافظًــا) مــن الحــظ أوجًــا زاد منـــــه العليـــــاء كـــــل مـــــراد [1]

وكان الفقيد يعجب أيضًا بقصائد أحمد محرم ويشيد بها في اللواء ويسميه (نابغة البحيرة)، وبقى أحمد محرم على صلته بالفقيد ووفائه له ولذكراه، وكذلك كان معجبا بشعر أحمد الكاشف، ثم بشعر احمد نسيم.

وقد أدرك في بداية عهده الشاعر الأديب المشهور الشيخ على الليثي، وأحبه حب الوالد لولده، ولمح فيه النبوغ والعبقرية، وكان يقول له:" إن أوتيت ذكاء يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفي، وحدة بها تسكت من ناقشك وتفحم من جادلك".

ومن تلاميذه من الأدباء والشعراء المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني، كان حين وفاة الزعيم طالبًا بمدرسة المعلمين، وقد رفت أسبوعًا من المدرسة جزاء له خطبة وطنية ألقاها تلك السنة في حفلة الطلبة بدار التمثيل العربي وبدأت كتاباته الوطنية تظهر في صحف الحزب الوطني عقب وفاة الزعيم.

## أصدقاؤه وأنصاره في الشرق والغرب

أولهم مدام جولييت آدم، فهي التي عرفته بأقطاب السياسة في فرنسا، وأيدته في جهاده بما تراه مبسوطا في فصول هذه الكتاب.

ومن أصدقائه من كتاب الغرب (بييرلوتي) الأديب الفرنسي المشهور، كانت بينهما صلة ود وثيقة ورسائل متبادلة، وكان لوتي يمد الاتيندار اجيسيان بالمقالات الممتعة.

ومن أصدقائه الشعراء شكري غانم الشاعر اللبناني الشهير، نبغ في الشعر الفرنسي ووضع باللغة الفرنسية مسرحية (عنترة) التي مثلت في فرنسا ومصر وحازت استحسانا كبيرًا، وقد خطب الفقيد في الاحتفال الذي أقيم تكريمًا له بالقاهرة في يناير سنة ١٩٠٦ خطبة بليغة، أثنى فيها على شعر المحتفل به وأدبه، وصرح شكري غانم بأنه هو الذي وجهه إلى وضع رواية (عنترة) بالفرنسية لكي تكون فيها دعاية للبطولة العربية في الأوساط الفرنسية المثقفة.

وكان له في أوروبا أصدقاء وأنصار عديدون، نذكر منهم الكولونل مارشان بطل حادثة فاشودة وإرنست جوديه وكلاهما من تلاميذ مدام آدم، والمسيو فلورانس وزير خارجية فرنسا السابق، والمسيو بللتان وزير بحريتها السابق، ولهما في الايتندار اجيبسيان مقالات عدة، والمسيو

---

(١) توفى خليل مطران "شاعر القطرين" في يونيه سنة ١٩٤٩.



obeikandi.com

تارديو الذي صار رئيس وزراء فرنسا والكونت روشفور، وكان معظم مديري الصحف الفرنسية الكبرى ومحرريها من أصدقاء الفقيد والمعجبين به وبجهاده.

## مصطفى كامل وطلعت حرب

كان الفقيد صديقًا لطلعت حرب باشا، وامتدحه في لواء ١٠ يناير سنة ١٩٠٠ لمناسبة ظهور كتابه في تربية المرأة. ووصفه بأنه "الكاتب الفاضل محمد أفندي طلعت حرب". ولما ظهرت كفاءته المالية أثنى عليه وكتب عنه في لواء ١٠ يوليه سنة ١٩٠٥ تحت عنوان (مصري فاضل) ما يأتي:

"من الأشياء التي تسر كل مصر يحب بلاده وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهدا على كفاءة المصري في الأعمال الجسيمة وتقدير الأوروبيين له حق قدره فعزتلو حضرة المقدام العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقًا هو أول مصري نقدمه اليوم للقراء انتخب مديرًا لشركتين عظيمتين، هما شركة العقارات المصرية. وشركة كوم امبو، خلفًا لحضرة عاداه بك مديرهما السابق، وإن من يعلم أن أصحاب هاتين الشركتين مؤسسيهما هم من كبار الماليين المعدودين كالمسيو أرنست كاسل والمسيو سوارس وشركائه لا يرتاب في أن الثقة بهذا المصري الجليل عظيمة، كما لا شك في أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأو بعيد من الرقي والفلاح بما أوتيه حضرة مديرها الجديد من سمو الإدراك وسعة الإطلاع في المسائل المالية، فهنيئا للشركتين به، ونسأل العلي القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله".

فكأن الفقيد كان يستشف ما وراء الحجب، ويلمح في الأفق ما كان لطلعت حرب باشا– رحمه الله– من الشأن العظيم في نهضة مصر الاقتصادية، وأنه سيتولى زعامتها في ميدان الاقتصاد والمال، فأثنى عليه هذا الثناء المستطاب.

obeikandl.com

**مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه في سفح الأهرام**

وترى إلى يساره مدام جولييت آدم. فمحمد بك فريد. فعلى فهمي كامل بك وإلى يمينه مدام يونج.
فحسين واصف باشا

obeikandl.com

## مصطفى كامل ومصطفى فهمي

كان الفقيد شديد الحملة على مصطفى فهمي باشا رئيس الوزارة في ذلك الحين وعلى الوزراء عمومًا، ولا عجب فمصطفى فهمي كان سياسته تمثل الخضوع التام للاحتلال الأجنبي، ولم يكن من أنصار الاحتلال فحسب، بل كان من المخلصين له، العاملين على تحقيق مآربه، وقد نشر المسيو دجرفيل حديثًا له في كتابه (مصر الحديثة سنة ١٩٠٥، تغنى في بفضل الاحتلال قال فيه: " إن عمل انجلترا في مصر لهو عمل مجيد يشهد لها بالفخار، انظر إلى حالة مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت غليه الآن سنة ١٩٠٥، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء، إن التغير كان سريعًا واسع المدى لدرجة أني في بعض الأحيان أغمض عيني وأتساءل: هل أنا في منام.. وفي الواقع لا توجد في العالم حكومة أخرى تسير بانسجام مثل حكومتنا، إنك تسألني إذا كانت مصر نستطيع يومًا أن تتحرر من انجلترا، هذه مسألة دقيقة متروكة للمستقبل، أما ما يمكنني أن أؤكده الآن فهو أننا لا نستطيع ذلك في الوقت الحاضر، فإن عملها لم يتم بعد ولا يزال تمامه بعيدًا، لقد شيدت دعائمه القوية ولكن لا يزال البناء غير تام ببشر الآمال الزاهر، على أنه فيم يحق لنا أن نشكو انجلترا؟ إننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا وهنائنا، أنظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور إنها كانت منذ عشرين سنة لا تساوي شيئًا والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات فماذا تكون قيمتها لو جلت انجلترا عن مصر؟"

فهذه الأقوال تعبر عن روح مصطفى فهمي باشا، وكل أعماله في الوزارة كانت تصدر عن هذه الفكرة، فكرة تمجيد الاحتلال والولاء له، فكان بديهيا أن يخاصمه زعيم الحركة الوطنية الاستقلالية.

## مصطفى كامل وسعد زغلول

حينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنية سنة ١٨٩٠ كان سعد زغلول لا يزال المحامي النابه (سعد أفندي زغلول)، وكان منصرفا إلى أعماله في المحاماة. ثم عين سنة ١٨٩٢ قاضيًا (مستشارًا)، فأنقطع إلى قضائه بمحكمة الاستئناف.

وكانت علاقة مصطفى بسعد ودية حتى سنة ١٩٠٦، حدثني فؤاد باشا سليم أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار ووالده لطيف باشا سليم، وهناك عرف مصطفى كامل إذ كان طالبًا بمدرسة الحقوق، ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا، لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتلال، على أن علاقته بمصطفى كامل ظلت ودية كما أسلفنا، وحين صدر اللواء سنة

١٩٠٠، كان سعد زغلول لا يزال مستشارًا بمحكمة الاستئناف، وشقيقه أحمد فتحي بك زغلول رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية، ولما ظهر كتاب (المحاماة) لأحمد فتحي زغلول بك كتب عنه الفقيد في عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالة افتتاحية بتوقيعه أثنى فيها ثناءً كبيرًا على الكتاب وصاحبه، وليس بخفي أن مجرد تخصيص المقالة الافتتاحية لتقريظ الكتاب هو دليل في ذاته على التقدير والود الكبير، قال في مقالته:

"لست ممن يزفون المدائح زفا أو يبجلون الناس حبا في مرضاتهم، وطمعًا في استرضاءهم، ولكني أكون مقصرًا أمام الله والناس إذا لم اشكر أمام الملأ مؤلف كتاب (المحاماة) صاحب العزة المفضال أحمد بك فتحي زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الخ".

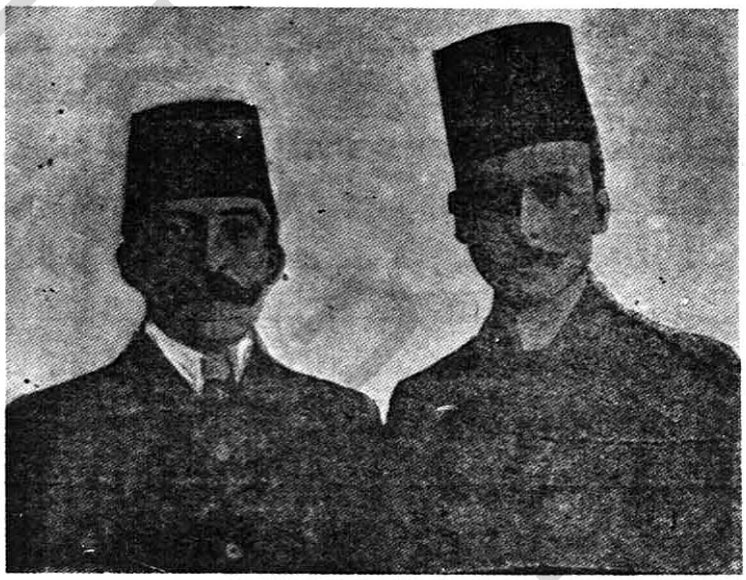

**مصطفى كامل وبيير لوتي (ص ٤٠٩)**

ويبدو وده لسعد مما كتبه اللواء في عدد ٧ فبراير سنة ١٩٠٦ عن مرضه، قال تحت عنوان (شفاه الله): "انحرفت صحة حضرة الأصولي المفضال سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية، وقضت بإجراء عملية جراحية بسيطة له، وقد تمت على غاية ما يرام، وأخذت صحته تتحسن تحسنًا عظيمًا، مما سر أصدقاءه ومحبيه العديدين الذي توافدون كل يوم على منزله لعيادته، نسأل الله له الشفاء التام والصحة والعافية، حتى تتنفع البلاد بعلمه الغزير ومعارفه الواسعة، فهذه الكلمة تدل على تقدير الفقيد لسعد، ونشر اللواء في ٢٨ فبراير نبأ شفائه في غبطة وسرور.

على أن علاقة الفقيد بفتحي باشا زغلول قد انقطعت وانقلبت إلى خصومة شديدة بعد أن اشترك في الحكم على المتهمين في حادثة دنشواي، إذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة (أنظر ص ٢٠٨) وهو الذي كتب الحكم بقلمه، وازدادت صلته بالوكالة البريطانية، ورقي بعد الحكم وكيلاً لوزارة الحقانية، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة، وسماه (قاضي دنشواي) وقال له في منزل سعد باشا يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٦ أن حكمه في قضية دنشواي "يحول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة".

من ذلك ترى أن صداقة الفقيد وخصومته كانتا خالصتين لوجه الحق والوطن فإذا مدح، مدح بحق، وإذا انتقد، انتقد بحق، غير متأثر بصلات شخصية، أو مآرب ذاتية، وكانت علاقاته الشخصية تتبع المصلحة القومية.

ولما عين سعد باشا وزيرًا للمعارف في أكتوبر سنة ١٩٠٦ امتدح صفاته، وأمل الخير على يده، وكتب في لواء ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان (سعد بك زغلول وزير المعارف) يقول: "لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديو المعظم في سراي التين عرض عليه تعيين سعاد سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية وزيرًا للمعارف المصرية، فارتاح سمة الخديو لهذا الطلب لما يعهده في سعادة سعد بك من الفضل والعلم والأخلاق القوية، وإن ما يعرفه الناس في أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولاً، وفي القضاء ثانيًا، يحملهم جميعًا على الارتياح لهذا التعيين الذي صادف مصريًا مشهورًا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، حب الإنصاف والعدل، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم نصبًا لا عمل فيه، وكان المستشارون الإنجليز أصحاب السيطرة التامة في النظارات، حقّ للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول في وزارة المعارف، هل يكون كبقية الوزراء، أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب– أم يكون وزيرًا أسمًا وعملاً ويحي سلطة الوزراء المصريين؟ اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكًا باستقلاله وحقوقه، وأكثرهم انتقادًا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم، وسمعناه يقرع بلهجة جادة الكسالى والمقصرين

كبارًا كانوا أو صغارًا، فإذا بقي سعد بك في وظيفته الجديدة كما هو وكما كان– وهو ما نعتقد – ألمنا خيراً كبيرًا للمعارف، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة "الحياة المصرية" إلى الوزارة، على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيرًا للمعارف تقديرًا لعلمه وإعلانًا لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية، وإتباعه لسياسة جديدة قاضية بإعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة، فإن السياسة تقضي قبل كل شيء بأن يكون الوزير وزيرًا حقيقة، وأن يكون العامل عاملاً مؤديًا لوظيفته، متمتعًا بكل حقوقه، لا أن يكون آلة في يد الموظف الإنجليزي، ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير، والمحقق لآمال الأمة في نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال، فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيرًا للمعارف إلا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفلكي باشا وأمثالهما ممن خدموا العلم في هذا القطر خدمات خالدة، وكانت لهم في مناصبهم الكلمة النافذة، والرأي المتبع، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك، وأن يكون في مستقبله كما هو في حاضره وكما كان في ماضيه، الرجل المستقل الذي لا يخدعه منصب ولا مال".

ولكن الفقيد أخذ ينتقد سعد باشا حين انسحب من لجنة مشروع الجامعة المصرية عقب تعيينه وزيرًا للمعارف (وكان نائب الرئيس أو الرئيس الفعلي لها) فإنه لم يكد يتولى وزارة المعارف في ٢٨ أكتوبر حتى وقف اجتماع اللجنة، وكانت تجتمع في داره، ثم اجتمعت يوم ٣٠ نوفمبر بدار حسن بك جمجوم أحد أعضائها، وحضر سعد باشا الاجتماع فأعلن انسحابه من اللجنة، بدعوى أن كثرة أعماله في الوزارة لا تسمح له بالاشتراك في مشروع الجامعة، مع أن تعيينه وزيرًا للمعارف كان أدعى لاضطلاعه بعمل هو من أخص واجبات وزارة (التعليم)، وكتب الفقيد في هذه الصدد (يقول): "كيف يهتم المستشار في الاستئناف بمشروع علمي ولا يهتم به ناظر المعارف؟ " وقال في مقالة أخرى: "إن تخليه يظهر للملأ الخطر الذي يحيق بالمشروعات العامة إذا كان لرجال الحكومة داخل فيها، واعتقادنا أن أقوى ضمانة لأمثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها".

وتبين أن انسحابه من رياسة اللجنة كان تحقيقًا لرغبة الاحتلال، لكي حبط المشروع، وقد أصابه الفتور والركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة، وبخاصة لأن الحكومة خلقت في ذلك الحين" بإيعاز من الاحتلال أيضًا" حركة إنشاء الكتاتيب واستحثت الأعيان في مختلف الجهات على التبرع لها، معارضة بذلك مشروع الجامعة، وبقى المشروع راكدًا حتى دبت فيه الحياة حين تولى رياسة لجنته الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد) في سنة ١٩٠٨.

واشتد الفقيد في نقد سعد باشا حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة في مارس سنة ١٩٠٧ جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية، وكان وقتئذ باللغة الإنجليزية، فاعترض سعد باشا وكان وزيرًا للمعارف، على هذا الاقتراح، وألقى خطبة طويلة في هذا الصدد، سوغ فيها جعل التعليم باللغة الإنجليزية، قائلاً: " إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو إتباعًا لشهوتها، ولكنها فعل ذلك مراعاة لمصلحة الأمة"، وقال: "إذا فرضنا أنه يمكننا أن جعل التعليم من الآن باللغة العربية، وشرعنا فيه فعلاً فإننا نكون أسأنا إلى بلادنا وغلى أنفسنا إساءة كبرى، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة الخ، على أن الجمعية العمومية رفضت اعتراضات سعد باشا على هذا الاقتراح وأقرته الأغلبية العظمى، وقد كانت خطبته دفاعًا عن سياسة الاحتلال في التعليم، لأن الاحتلال هو الذي أحل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية، فأحدث هذا الموقف ضجة استياء عند الرأي العام.

وكتب مصطفى كامل مقالاً في الاتيندار اجبسيان عربه اللواء في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٧ تحت عنوان (فشل وزير)، قال فيه"

"إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة (مصطفى فهمي باشا) الأمين على وحيه، الخادم لسياسته، وفهموا أيضًا لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد في العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطني، في حين أن كل شيء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله إلى السلطة، فسعد باشا زغلول قد فشل فشلاً عظيمًا في الجمعية العمومية ولو كان وزيرًا أوروبيًا يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال في الحال، ولكنه وزير في مصر، يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته، ألا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف، ويفضلوا ماضيه كل التفضيل، ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف".

وزاد في انتقاده إياه امتداح اللورد كروم له في خطبة الوداع التي ألقاها قبل رحيله عن مصر، على حين أنه طعن في المصريين جميعًا ورماه بنكران الجميل.

وصفوة القول أن موقف مصطفى كامل من سعد زغلول كان وديًا حتى انسحابه من لجنة مشروع الجامعة، ثم تحول إلى موقف انتقاد نزيه وخصومه شريفة، تبعًا لما اقتضاه الدفاع عن المصالح الوطني العام.